

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الأعراف

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى

الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
(بقية الجزء السابع والجزء الثامن)

الطبعة الثانية

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير تحليل لسورة الأعراف ، توخينا فيه أن نبرز ما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وهدايات شاملة ، وحكم جليلة ...

واقفه نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، وأنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ، .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

١٤٠٥/٢/٥ هـ - ١٩٨٤/١٢/٧ م

المؤلف

د. محمد سيد طنطاوى

تمهيد بين يدي السورة،

١ - سورة الاعراف هي السورة السابعة في الترتيب المصحفي ، وهي أطول سورة مكية في القرآن الكريم ، وعدد آياتها مائتان وست آيات .
والرأى الراجح عند العلماء أنها جميعها مكية ، وقيل إن الآيات من ١٦٣ - ١٧٠ مدنية ، وكان نزولها بعد سورة « ص » .

٢ - ومناسبتها لسورة الأنعام التي قبلها أن سورة الاعراف تعتبر كالتفصيل لها ، فإن سورة الأنعام قد تكلمت عن أصول العقائد وكميات الدين كلاماً إجمالياً ، ثم جاءت سورة الاعراف فكانت كالشرح والتفصيل لذلك الإجمال ، خصوصاً فيما يتعلق بقصص الأنبياء مع أقوامهم وبعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - .

٣ - مقاصدها وبميزاتها : وقد اشتملت سورة الاعراف على المقاصد الإجمالية التي اشتملت عليها السور المكية ، كإقامة الأدلة على وحدانية الله ، وعلى صدق رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى أن يوم القيامة حق .. إلخ .
والذي يتأمل هذه السورة الكريمة يراها تهتم بعرض الحقائق في أسلوبين بارزين فيها ، أحدهما أسلوب التذكير بالنعم ، والآخر أسلوب التخويف من العذاب والنقم .

أما أسلوب التذكير بالنعم فتراه واضحاً في لغتها لأنظار الناس إلى ما يملكونه ويمسكونه من نعمة تمكينهم في الأرض ، ونعمة خلقهم وتصويرهم في أحسن تقويم ، ونعمة تمتع الإنسان بما في هذا المكون من خيرات سخرها الله ...
وأما أسلوب التخويف بالعذاب فالسورة الكريمة زاخرة به ، تلمس ذلك في قصص نوح ، وهود ، وصالح . ولوط ، وشعيب ، وموسى مع أقوامهم .
وقد استغرق هذا القصص أكثر من نصفها ، وقد ساق لنا السورة

الذكورية ما دار بين الأنبياء وبين أقوامهم ، وما آل إليه أمر أولئك الأقوام الذين لم يستجيبوا لنصائح المرسلين إليهم .

٤ - عرض إجمالى لها : ونحن عندما نستعرض سورة الأعراف نراها فى الربع الأول منها تعالينا بالحديث عن مظنة القرآن وتأمرونا بإتباعه ، ونحذرونا من مخالفته ، ونحثنا على المسارعة إلى العمل الصالح الذى تنقل به موازيتنا يوم القيامة .

قال تعالى : « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون »

ثم سافت لنا بأسلوب منطوقى بليغ قصة آدم مع إبليس ، وكيف أن إبليس قد خدعه بأن أغراه بالأكل من الشجرة المحرمة ، فلما أكل منها هو وزوجه ، بدت لهما سوءاتهما وطافقا يخصمان عليهما من ورق الجنة

ثم وجهت إلى بنى آدم نداء فى أواخر هذا الربع نهتهم فيه عن الاستجابة لوسوسة الشيطان .

قال تعالى : « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة فيزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، لانه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »

وفى الربع الثانى منها نراها تأمرنا بأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ، ونحذرونا بأن الله - تعالى - ، قد أباح لنا أن نتمتع بالطيبات التى أحلها لنا ، ونبشرنا بحسن العاقبة متى اتبعنا الرسل الذين أرسلهم الله لهدايتنا ، ثم تسوق لنا فى بضع آيات عاقبة المكذبين لرسول الله ، وكيف أن كل أمة من أمم الكفر عندما تقف بين يدى الله للحساب تلعن أخبتها .

قال تعالى : كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولام ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولام لأخراهم فإنا كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . .

ثم تبين السورة بعد ذلك عاقبة المؤمنين فتقول : : والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون
وفي أواخر هذا الربع وفي أوائل الربع الثالث منها نراها تسوق لنا تلك المحاورات التي تدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وتحكي لنا ما يحصل بينهم من نداءات ومجادلات ، تنتهي بأن يقول أصحاب النار لأصحاب الجنة على سبيل التذلل والتوسل : : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . .

فيجيهم أصحاب الجنة : : إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم هواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا

ثم تسوق لنا السورة بعد ذلك جانباً من مظاهر نعم الله على خلقه ، وتدعونا إلى شكره عليها لكي يزيدنا من فضله .

وفي الربع الرابع منها وكذلك في أواخر الثالث ، نحدثنا السورة السكرية عن قصة نوح مع قومه ، ثم عن قصة هود مع قومه ، ثم عن قصة صالح مع قومه ، ثم عن قصة لوط مع قومه ، ثم عن قصة شعيب مع قومه ولقد سافت لنا خلال حديثها عن هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم من العبر والعظات ما يهدى القلوب ، ويشفي الصدور ويحمل العقلاء على الاستجابة لهدى الأنبياء والمرسلين .

أما في الرابع الخامس منها فقد بينت لنا سنن الله في خلقه ، ومن مظاهر هذه - السنن أنه - سبحانه - لا يعاقب قوماً إلا بعد الابتلاء والاختبار ،

وأن الناس لو آمنوا واتقوا لفتح - سبحانه - عليهم بركات من السماء والأرض وأن الذين يأمنون مكر خالقهم هم القوم الخاسرون .

قال تعالى : : ذلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ، . ثم عقب على ذلك ببيان أن الله - تعالى - قد ساق قصص السابقين لأعظة والاحتبار .

ثم أسهبت السورة في الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - فقصت علينا في زهاء سبعين آية - استغرقت الربع السادس والسابع والثامن - ما دار بينه وبين فرعون من محاورات ومناقشات ، وما حصل بينه وبين السحرة من مجادلات ومساجلات انتهت بأن قال السحرة : : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ، .

ثم حكى لنا ما لقيه موسى من قومه بني إسرائيل من تكذيب وجهالات ، مما يدل على أصلاتهم في التمرد والعصيان ، وعراقتهم في الكفر والطغيان .

وفي الربع التاسع منها حدثتنا عن العهد الذي أخذه الله على البشر بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ثم حذتنا على التفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، وبينت لنا أن موعد قيام الساعة لا يعلمه سوى علام الغيوب ، وأن الرسل المكرام وظيفتهم تبليغ رسالات الله ، ثم هم بعد ذلك لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً .

أما في الربع العاشر والآخر فقد اهتمت السورة الكريمة بإقامة الأدلة على وحدانية الله ، ووبخت المشركين على شركهم ، ودعت الناس إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وأمرتهم بأن يكثروا من التضرع والدعاء .

« واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغضو
والأصا ولا تكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن
عبادته ويسبحونه وله يسجدون . »

وبعد : فهذا عرض سريع لما اشتملت عليه سورة الأعراف من توجيهات
حكيمه ، وآداب عاليه ، وعظات سامية ، ولعلنا بذلك نكون قد أعطينا
القارئ الكريم فكرة مجملة عنها قال أن نفسرها تفسيراً تحليلياً مفصلاً . والله
نسأل أن يلمننا جميعاً الرشد والسداد فيما نقول ونفعل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

التفسير

« الْمَص (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَلَمَّا كَانَ دُغُوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَسَأَلْنَا الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسَأَلَنَ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ يَعْلَمُ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن تَقَلَّتْ مُوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَن خَفَّتْ مُوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) » .

سورة الأعراف من السور التي ابتدأت ببعض حروف التهجى «المص»، ولم يسبقها في النزول من هذا النوع من السور سوى ثلاثة وهي سور : (ن ، ق ، ص) ويبلغ عدد السور القرآنية التي ابتدأت بالحروف المقطعة تسعاً وعشرين سورة .

هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء في المعنى المقصود من حرف التهجى التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال اختلافهم في رأيين :

الرأى الأول : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، ففى من المشابهة التى استأثر الله بعلمه وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى إحدى الروايات

عنه - كما ذهب إليه الشعبي ، وسفيان الثوري ، وغيرهما من العلماء ؛ فقد أخرج ابن المذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال : « إن لكل كتاب إمرا ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور ، وروى عن ابن عباس أنه قال : « عجزت العلماء عن إدراكها ، وعن علي - رضي الله عنه - أنه قال : « إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي ، وفي رواية أخرى للشعبي أنه قال : « سر الله فلا تطلبوه » .

ومن الاعتراضات التي وجهت إلى هذا الرأي أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس لأنه من المتعابه فإنه يترقب على ذلك أنه كالخطاب بالمحمل ، أو مثل ذلك كمثل التكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ، ولكن الذي تنفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة في أوائل بعض السور . وهناك مناقشات للعلماء حول هذا الرأي لا مجال لذكرها هنا .

أما الرأي الثاني : فيرى أصحابه أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتعابه الذي استأثر الله بعلمه ، وأصحاب هذا الرأي قد اختلفوا فيما بينهم في تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتي :

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « من قرأ حم السجدة ، حفظ إلى أن يصبح » ، وبدليل اشتباه بعض السور بالتسمية بها ، كسورة « ص » ، وسورة « يس » ، إلخ .

ولا يخلو هذا القول من الضعف ، لأن كثيرا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، فلو كانت أسماء للسور لم تتكرر لمعان مختلفة ؛ لأن الغرض من التسمية رفع الاشتباه . وأيضا فالتسمية بها أمر عارض لا يتنافى مع المراد منها في ذاتها .

٢ - وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى .

٣ - وقيل إنها حروف مقطعة بعضها من أسماء الله تعالى ، وبعضها من صفاته ، فمثلا : د الم ، أصلها أنا الله أعلم .

٨ - وقيل إنها اسم الله الأعظم ، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مقال ، والتي أوصلها الإمام السيوطي في كتابه « الإتيان » ، إلى أكثر من عشرين قولاً ،

٥ - ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة قد وردت في بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين يحداهم القرآن ، فكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن تروونه مؤلفا من كلام هو جنس ما نولفون منه كلامكم . ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاؤوا مثله ، أو ادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك .

ومما يشهد بصحة هذا الرأي أن الآيات التي تلي هذه الأحرف المقطعة تتحدث عن الكتاب المنزل وكونه معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - وكثيراً ما تبدأ هذه الآيات باسم الإشارة صراحة ، مثل قوله تعالى : د الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، أو ضمنا مثل قوله - تعالى - في أول سورة الأعراف ، ألمص ، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذره ، وأيضا فإن هذه السور تجعل هدفها الأول منذ بدئها إلى نهايتها إثبات الرسالة من طريق هذا الكتاب المنزل .

هذه خلاصة موجزة لأراء العلماء في الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض

السور القرآنية ، ومن أواد ، زيدا لذلك فليرجع - مثلا - إلى كتاب
« البرهان » للزركشي ، وإلى كتاب « الإلتقان » للسيوطي (١) .

ثم مدح - سبحانه - الكتاب الذي أنزله على نبيه - صلى الله عليه
وسلم - فقال : « كتاب أنزلناه إليك فلا يكن في صدرك حرج منه » .

المراد بالكتاب جملة القرآن الكريم ، وقيل : المراد به هنا السورة . وحرج
الصدر ضيقه وغمه ، مأخوذ من الحرجة التي هي مجتمع الشجر المشبك المتلف
الذي لا يجد السالك فيه طريقا يخرج منه .

والمعنى ، هذا كتاب كريم أنزلناه إليك يا محمد فيه هداية العقليين ، فبلغ
تعاليمه للناس ، ولا تحزن أو تضجر إذا وجدت من بعضهم صدوداً عنه ، فانت
عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

ولقد حكى لنا القرآن أن المشركين وصفوا النبي - صلى الله عليه وسلم -
- بأنه ساحر . أو مجنون ، كما وصفوا القرآن بأنه ليس من عند الله ، فكان
- صلى الله عليه وسلم - يضيق صدره لذلك .

قال تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » .

فالمقصود بقوله - تعالى - « كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج
منه » ، تقوية قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وتثبيت فؤاده ، وتسلية عما
يتقوله المشركون من أكاذيب وأباطيل ، وإفهام الداعي إلى الله في كل زمان
ومكان أن من الواجب عليه أن يكون قوى القلب في تحمل مهمته ، مطمئن
البال على حسن عاقبته ، لا يتأثر بالمخالفة ، ولا يضيق صدره بالإنكار ...

وقد فسر صاحب الكشاف الحرج بالشك فقال : « فلا يكن في صدرك
حرج منه ، أي شك منه كقوله : « فإن كنت في شك عما أنزلنا إليك »

(١) راجع الإلتقان في علوم القرآن ج ٣ ص ١ للإمام السيوطي . طبعة

وسمى الشك حرجاً لأن الشاك يضيق الصدر حرجه ، كما أن المتيقن منشراح الصدر
منفسحة . أى : لا شك فى أنه منزل من الله ، ولا تخرج من تبليغه ، لأنه
كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم . فكان يضيق صدره
من الأداء ولا ينبسط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم ، (١) .

وعلى أية حال فإن من فسر الحرج بالضيق راعى مدلول الكلمة الأصلية
ومن فسر به بالشك راعى الاستعمال المجازى ولذا قال الألوسى :

قوله - تعالى - : « فلا يكن فى صدرك حرج منه ، أى : شك . وأصله
الضيق ، واستعماله فى الشك مجاز علاقته للزوم ، فإن الشاك يعتربه ضيق
الصدر ، كما أن المتقين يعتربه انشراحه وانفساحه ، (٢) .

ولفظ « كتاب » يكون مبتدأ إذا جعلنا « المص » اسماً للسورة ، وإلا كان
خبراً لمبتدأ محذوف والتقدير : هذا كتاب . وتفسيره للتفخيم والتعظيم وجملة
« أنزل إليك » صفة له دالة على كمال تعظيم قدره وقدر من أنزل عليه .

ولما قيل « أنزل » ولم يقل أنزله الله وأنزلناه . الإيدان بأن المنزل مستغن
عن التعريف لشرفه وغاية ظهوره .

ثم بين - سبحانه - العلة فى إنزال الكتاب فقال : « لتنذر به وذكرى
للمؤمنين » .

الإذار : هو الإعلام المقترن بالتحذيف من سوء عاقبة المخالفة .

أى : أنزلنا إليك الكتاب لتنذر به قومك وسائر الناس ، وتذكرك به أهل
الإيمان والطاعة ذكرى نافعة مؤثرة ، لأنهم هم المستعدون لذلك ، وهم المختفرون
بإرشادك .

قال تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٨٦ ، طبعه دار العربى ببيروت .

(٢) تفسير الألوسى ج ٨ ص ٧٤ منبر الدمشقي .

وقال تعالى : « تبصرة وذكري لعل عبد منيب » .

وقال تعالى : « إنما يتذكر أولوا الألباب » .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : فما محل ذكري ؟ قلت يحتل الحركات الثلاث . النصيب بإضمار فعلها . كآفه قيل : لتتذرع به وتذكر تذكر ، لأن الذكري اسم بمعنى التذكير ، والرفع عطفاً على كتاب ، أو لأنه خبر مبتدأ محذوف . والجر للعطف على محل لتتذرع ، أي : الإذمار ولذا ذكر ، (١) .

ثم أمر القرآن الناس باتباع تعاليم الإسلام التي جاء بها محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال : اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلاً ما تذكرون .

أي : اتبعوا أيها الناس ملة الإسلام وأحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه ، وامثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، لأن الذي أنزل عليكم هذه الشريعة هو ربكم الذي هو خالقكم ومربيكم ومدير أموركم والعليم بما فيه مصلحتكم وحذار من أن تتركوا شريعة الإسلام التي تدعوكم إلى إفراد الله بالعبودية ، وتتخذوا معه شركاء يزينون لكم الأباطيل ، ويصرفونكم عن دينه القويم . فالآية الكريمة كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين لحضهم على إفراد الله بالعبودية ، ونهيمهم عن إتباع أحد من الخلق فيما يتعلق بالأمور الدينية التي وضعتها الشريعة الإسلامية .

وقوله : - تعالى - « قليلاً ما تذكرون » ، معناه : تذكر أ قليلاً تذكر ، أو زماً قليلاً تذكر فهو منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أو ظرف زمان محذوف . وما مزيدة لتأكيد القلة .

ثم ساق لهم بعد ذلك على سبيل الإنذار والتحذير جانباً من العذاب الذي نزل بمن سبقهم بسبب ظلمهم وعنادهم فقال - تعالى - :

وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوم قاتلون . فما كان دعواهم
إذا جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين .

كم هنا خبرية بمعنى كثير . وهي في محل رفع على الابتداء والجملة بعدها
خبرها ، (ومن قرية) تمييز .

والقرية تطلق على مكان اجتماع الناس . وبأسنا : أى عذابنا وعقابنا .
وبياتا : أى ليلا ومنه البيت لأنه يبات فيه . يقال : بات يبيت بيتا وبياتا .
وقاتلون من القاتلة وهي القيولة وهي نوم نصف النهار . وقيل : هي الاستراحة
نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن معها نوم . ودعواهم ، أى : دعائهم
واستغاثتهم بربهم أو قوتهم .

والمعنى : وكثيراً من القرى الظالمة أردنا إهلاكها ، فنزل على بعضها عذابنا
في وقت نوم أهلها بالليل كما حصل لقوم لوط ، ونزل على بعضها في وقت
استراحة أهلها بالنهار كما حصل لقوم هعيب ، فما كان منهم عندما باغتهم
العذاب في وقت اطمئنانهم وراحتهم إلا أن اعترفوا بذنوبهم وقالوا على سبيل
التحسر والتندم وطعما في الخلاص : إنا كنا ظالمين .

فها تان الآيتان الكريمتان توضحان باجلى بيان أن هلاك الأمم سببه بغيا
وفسادها وانحرافها عن الطريق المستقيم ، وتلك سنة الله التي لا تتخلف في أى
زمان أو مكان . وأن الظالمين عندما يفاجأون بالعقوبة يتحسرون ولا يستطيعون
إنكار ما ارتكبوه من جرائم ومنكرات ولا يمكن ذلك لن ينفعهم لأن ندمهم
وتحسرم قد فات وقته ، وكان الأجدر بهم أن يتوبوا من ذنوبهم عندما جاءتهم
النذر ، وقبل حلول العذاب .

ولذا قال ابن كثير : قل ابن جريره في هذه الآية الدلالة الواضحة

في صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قوله :
« ما هلك قوم حتى يعذروا عن أنفسهم »^(١) .

وهـ أو ، في قوله « فجاءها بأسنا بيانا » أو هم قائلون ، للتنوين ، أى أن
بعضهم جاءهم عذابنا ليلا وبعضهم جاءهم نهرا عند استراحتهم . وإنما خص
هذا الوقتان بنزول العذاب ، لأنهما وقتا غفلة ودعه واستراحة ، فيكون
نزول العذاب فيهما أشد وأوجع .

ومن العبر التي نأخذها من هاتين الآيتين أن العاقل هو الذي يحافظ على
أداء الأوامر واجتناب النواهي ، ولا يأمن صفو الليالي ، ورخاء الأيام ،
بل يعيش حياته وصلته بربه مبذية على الخوف والرجاء فإنه « لا يأمن مكر
الله إلا للقوم الخاسرون » .

وبعد أن بين القرآن ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى . عقبه ببيان
ما سيحل بهم من عذاب أخروى ، فقال :

« فلنسلأن الذين أرسل إليهم ولنسلأن المرسلين : فلتقصن عليهم بعلم
وما كنا غائبين » .

والمراد بالذين أرسل إليهم جميع الأمم التي بلغتها دعوة الرسل ، يسأل كل
فرد منها عن رسوله إليه وعن تبليغه لدعوة الله ، ويسأل المرسلون عن التبليغ
منهم وعن إجابة أقوامهم لهم ، وقد ورد ذلك في كثير من آيات القرآن .
قال - تعالى - : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟ قالوا لا علم لنا
إنك أنت علام الغيوب » .

وقال تعالى : « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ؟ »
والمعنى : فلنسلأن المرسل إليهم عما أجاوبوا به رسلهم الذين جاءوا
لهدايتهم ، ولنسلأن المرسلين عما أجيبوا به من أقوامهم وعن تبليغهم لرسالات

(١) تفسير ابن كثير ٢٦ ص ٢٠١

الله ، ولنقصن على الرسل والمرسل إليهم كل ما وقع منهم عن علم دقيق وإحصاء شامل ، لأننا لا يغيب عنا شيء من أحوالهم .

وعطفت جملة « فلنسالن ... » على ما قبلها بالفاء ، لأن هذا السؤال سيكون في الآخرة ، وما ذكر قبل ذلك من عقوبات هو آخر أسرارهم في الدنيا . فالآية الكريمة بيان لعذابهم الآخرى إثر بيان عذابهم الدنيوى .

وأكد الخبر بلام القسم ونون التوكيد ، لأن المخاطبين كانوا ينكرون البعث والجزاء .

فإن قيل : قد أخبر الله عنهم قبل ذلك أنهم قالوا عند نزول العذاب بهم « إنا كنا ظالمين » ، فلماذا يسألون يوم القيامة مع أنهم اعترفوا بظلمهم في الدنيا ؟

فالجواب : أنهم لما اعترفوا سألوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم ، والمقصود من هذا السؤال تهريبهم وتوبيخهم لكفرهم وعنادهم .

فإن قيل : فما فائدة سؤال الرسل مع العلم بأنهم قد بلغوا الأمانة ونصحوا للأمة ؟

فالجواب من فوائد الرد على من أنكر من المشركين أن الرسل قد بلغوهم ، فقد حكى القرآن أن بعضهم قال : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » ، ومن فوائده - أيضا - مضاعفة الثواب لهؤلاء الرسل الكرام حيث إنهم قد بذلوا قصارى جهدهم في التبشير والإفذار ، ولم يصدر عنهم تقصير قط . فسؤال المرسل إليهم إنما هو سؤال توبيخ وإفضاح ، وسؤال المرسلين إنما هو سؤال استشهاد بهم وإفصاح .

فإن قيل : هناك بعض الآيات تثبت أن المجرمين لن يسألوا يوم القيامة كما في قوله تعالى : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » ، وكما في قوله تعالى « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » ، فكيف نجمع بين هذه الآيات التي تنفي السؤال والآيات التي تثبته كما في قوله « فلنسالن الذين أرسل إليهم ... » ؟

فالجواب ، أن في يوم القيامة مواقف متعددة ، فقد يسألون في موقف الحساب ولا يسألون في موقف العقاب . أو أن المراد بالسؤال في قوله « فلنسالن الذين ... » ، التوبيخ والتقريع . والمنق في قوله « فيؤمئذ لا يسأل عن ذنبه ... » سؤال الاستعلام ، أى أن المذنب لا يسأل يوم القيامة هل أذنبت أولاً ، لأن الله لا تخفى عليه خافية ، وإنما يسأل : لم فعلت كذا ؟ بيد أن يعرفه — سبحانه — بما فعله ، ويؤيد هذا القول قوله — تعالى — « فلننصن عليهم بآياتنا ما كنا غائبين ، أى : فلنخبرهم بما فعلوا لإخبارنا ناشئاً عن علم منا .

قال بعض العلماء : « والذى يهمنا هنا ، أن نقرر أن هذا السؤال لم يكن سؤال استفهام ولا استخبار ، وإنما هو سؤال تبكيت وتذكير ، فليس في السائل مظنة أن يحجل ، ولا في المستول مظنة أن ينسکر : ، وهو تصوير لما يكون من شعور المكذبين بتكذيبهم ، وشعور المرسلين بتبليغهم ، وهو نوع من تسجيل الحجة على من أنكرها وأعرض عنها في الوقت الذى كان يجديه الإقبال عليها والإيمان بها ، وهو نوع من زيادة الحسرة ، وقطع الآمال في النجاة بوضع يد المجرم على جسم جريمته ، وهو في الوقت نفسه نوع من زيادة الأمن والطمأنينة للرسول في القيام بدعوتهم وتبليغهم ما أمروا بتبليغه ، ولعل كل ذلك يرشد إليه قوله — تعالى — « فلننصن عليهم بآياتنا ما كنا غائبين ، (١) .

ثم بين — سبحانه — مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة فقال :
« والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ، .
الوزن : عمل يعرف به قدر الشيء ، يقال : وزنته وزناً ووزنه . وهو

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٢٠٤ لفضيلة الأستاذ الأبر الشيخ محمود شلتوت — رحمه الله — .

مبتداً ، ويومئذ متعلق بمحذوف خبره . والحق صفته . أى : والوزن الحق يوم القيامة .

ومعنى الآيتين الكريمتين : والوزن الحق ثابت فى ذلك اليوم الذى يسأل الله فيه الرسل والمرسل لإيهم . ويخبرهم جميعاً بما كان منهم فى الدنيا ، فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان والعمل الصالح ، فأولئك هم الفائزون بالشواب والنعم ، ومن خفت موازين أعماله بالكفر والمعاصى فأولئك الذين خسروا أنفسهم بسبب ما اقترفوا من سيئات أدت بهم إلى سوء العقاب .

قال تعالى : ، ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أقلنا بها وكفى بنا حاسبين .

وقد اختلف العلماء فى كيفية الوزن فقال بعضهم : إن الذى توزن هى صحائف الأعمال التى كتبت فيها الحسنات والسيئات تأكيداً للعبرة وإظهاراً للنصفة ، وقطعاً للمعذرة . قال ابن عمر : توزن صحائف أعمال العباد يوم القيامة .

وقيل : إن الوزن هنا كناية عن القضاء السوى ، والعدل التام فى تقدير ما يمكن به الجزاء من الأعمال ، وذكر الوزن إنما هو ضرب مثل كما تقول : هذا الكلام فى وزن هذا وفى وزانه . أى يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن .

والذى تراه أن من الواجب علينا أن نؤمن بان فى الآخرة وزناً للأعمال ، وأنه على مقدار ما يظهر يكون الجزاء ، وأنه وزن أو ميزان يلقى بهما يجرى فى ذلك اليوم الهائل الشديد ، أما كيفية هذا الوزن فرده إلى الله ، لأنه شئ استأثر الله بعلفه ، وعلينا أن نعتى أنفسنا من محاولة الكشف عن أمر غيبى لم يرد فى حقيقته خير قاطع فى كتاب الله أو سنة رسوله .

قال الجمل فى حاشيته على الجلالين : ... فإن قلت : أليس الله - تعالى - يعلم مقادير أعمال العباد ، فما الحكمة فى وزنها ؟ قلت فيه حكم : منها ، إظهار

العدل وأن الله - تعالى - لا يظلم عباده ، ومنها : امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقي . ومنها تعريف العباد بما لهم من خير أو شر وحسنة أو سيئة ، ومنها إظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه - سبحانه - أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ وفي صحائف الحفظلة الموكلين ببني آدم من غير جواز النسيان عليه ، (١) .

وقوله - تعالى - . . . فن ثقلت موازينه ، تفصيل للأحكام المترتبة على الوزن ، وثقل الموازين المراد به رجحان الأعمال الحسنة على غيرها ، كما أن خفة الموازين المراد بها رجحان الأعمال القبيحة على ماسواها .

وقوله - تعالى - . . . بما كانوا بآياتنا يظلمون ، متعلق بخسروا ؛ أي : أن خسراتهم لأنفسهم في الآخرة كان سببه جحودهم لآيات الله واستهزامهم بها في الدنيا .

ثم حكى القرآن جانباً من مظاهر نعم الله على خلقه فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَسْجُدْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) » .

مكناكم : من التمكين بمعنى التمليك أو معناه . جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً وأقدرناكم على التصرف فيها ومعايش : جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وما تكون به الحياة .

والمعنى : ولقد جعلنا لكم - يابني آدم - مكاناً وقراراً في الأرض ،

وأقدرونا كم على التصرف فيها ، وأنشأنا لكم فيها أنواعا شتى من المطاع والمشارب التي تعيشون بها عيشة راضية ، واسكن كثيرا منكم لم يقابلوه هذه النعم بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والكفران . وفضلا عن ذلك فمنعنا الذين خلقنا أباكم آدم من طين غير مصور ، ثم صورناه بعد ذلك .

أو المعنى نحن الذين خلقناكم في ظهر آدم . ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق ، ثم أمرنا بعد ذلك ملائكتنا بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس فإنه لم يكن من الساجدين .

والسجود : لغة ، التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره ، وخصر في الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .

والعلماء أقوال في كيفية السجود الذي أمر الله به الملائكة لآدم وأرجح هذه الأقوال . أن السجود المأمور به في الآية يحمل على المعنى المعروف في اللغة . أى : أن الله - تعالى - أمرهم بفعل تجاه آدم يكون مظهرا من مظاهر التواضع والخضوع له تحية وتعظيما ، وإقرارا له بالفضل دون وضع الجبهة على الأرض الذي هو عبادة ، إذ عبادة غير الله شرك يتنزه الملائكة عنه ، وعلى هذا الرأي سار علماء أهل السنة .

وقيل إن السجود كان لله . وآدم إنما كان كالقبة يتوجه إليه الساجدون تحية له . وإلى هذا الرأي اتجه علماء المعتزلة ، وقد قالوا ذلك هربا من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم ، إذ أن أهل السنة قالوا : إبليس من الملائكة والصالحون من البشر أفضل من الملائكة . واحتجوا بسجود الملائكة لآدم وخالفت المعتزلة في ذلك ، وقالت الملائكة أفضل من البشر ، وسجدوا للملائكة لآدم كان كالقبة .

والذي نراه أن ما سار عليه أهل السنة أرجح لأن ما ذهب إليه المعتز يبعد أن المقام مقام لإظهار فضل آدم على الملائكة ، وإظهار فضله علم

لا يتحقق بمجرد كونه قبلة للسجود : وأمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، هو لون من الابتلاء والاختبار ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، وينفذ ما سبق به العلم واقتضته المشيئة والحكم .

وإبليس : اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشئ عن شدة اليأس وفعله بلس . والراجح أنه اسم أجمعى ، ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة وهو كائن حي ، وقد أخطأ من حمله على معنى داعى الشر الذى يخطر فى النفوس ، إذ ليس من المعقول أن يكون ذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه . قال - تعالى - إنه براكم هو وقيله من حيث لا ترونهم . .

والعلماء فى كون إبليس من الملائكة أولا قولان : أحدهما أنه كان منهم ، لأنه - سبحانه - أمرهم بالسجود لآدم ، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود ، ولو لم توجه إليه الأمر بالسجود لم يكن عاصياً ولما استحق الحزى والذمكال ، ولأن الأصل فى المستثنى أن يكون داخل تحت اسم المستثنى منه حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه .

والثانى : أنه ليس منهم لقوله - تعالى - : إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة .

ففى هاتين الآيتين بيان لنعمتين عظيمتين من نعم الله على عباده : أولاهما : نعمة التمكين فى الأرض واتخاذهم إياها وطناً مزوداً بضروب شتى مما يحتاجون إليه فى معاشهم وما به قوام حياتهم وكما لها ، وثانيهما : نعمة خلقهم من أب واحد ، تجمعهم به رحم واحدة ، وبسببها كانوا خلفاء فى الأرض وفى عمارة الكون ، وفضلوا على كثير من الخلق ، فكان الواجب عليهم أن يقابلوها بالشكر والإيمان .

ثم حكى القرآن الكريم الأسباب التي حملت إبليس على عدم السجود
لآدم فقال :

« قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي
مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) » .

أى : قال الله - تعالى - لإبليس : ما ألزمتك واضطرك إلى أن
لا تسجد لآدم ؟ فالمنع مجاز عن الإلجاء والاضطرار . أو ما حملك ودعاك إلى
ألا تسجد ؟ فالمنع مجاز عن الحمل . والاستفهام للتوبيخ والتقريع .
ودلا . في قوله : ألا تسجد ، مزيدة للتغيبه على أن الموبخ عليه ترك
السجود . وتوكيد لمعنى الفعل الذى دخلت عليه وتحقيقه ، كأنه قيل : ما منعك
أن تحقق السجود وتلزمه نفسك .

وقد حكى القرآن ما أجاب به إبليس فقال : « قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي
مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ، أَى : قال إبليس أنا خير من آدم ، لأننى مخلوق
من عنصر النار الذى هو أشرف من عنصر الطين ، والأشرف لا يليق به
الانقياد لمن هو دونه ،

قال ابن كثير : « وقول إبليس - لعنه الله - « أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ .. إلخ
من العذر الذى هو أكبر من الذنب ، إذ بين بأنه خير من آدم لأنه خلق
من النار وآدم خلق من الطين ، فنظرا اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى
التشريف العظيم ، وهو أن الله - تعالى - خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ،
وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص ، وهو قوله - تعالى - « فقهوا له ساجدين ،
فشد من بين الملائكة لترك السجود فأبعده الله عن رحمته ، وكان قياسه فاسداً
لأن النار ليست أشرف من الطين ، فإن الطين من شأنه الرزاقه والأناة
والتنبت ، وهو محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح ، والنار من شأنها

الإحراق والطيش والسرعة ، ولهذا خان إبليس عنصره ، ونعم آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والالتقياد والاستسلام لأمر الله . وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت :

« قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » (١) .
وقد حكى القرآن ما رد الله به على إبليس بقوله :

« قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ » (١٣) .

أى : قال الله - تعالى - لإبليس فاهبط من الجنة بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعى .

وقيل إن الضمير فى « منها » يعود على المنزلة التى كان فيها قبل أن يطرده الله من رحمته . أى : فاهبط من رتبة المملكية التى كنت فيها إلى رتبة العناصر الشريرة .

وقيل : إن الضمير يعود على روضة كانت على مرتفع من الأرض خلق فيها آدم - عليه السلام - .

وقوله : « فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا » معناه : فَمَا يَصِحُّ وَلَا يَسْتَقِيمُ وَلَا يَلِيقُ بِشَأْنِكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ، لأنها ليست مكاناً للتكبرين وإنما هى مكان للطيعين الخاشعين المتواضعين .

وقوله « فَاخْرُجْ » تأكيد للأمر بالهبوط ومتفرع عليه .
وقوله : « إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ » تعطيل للأمر بالخروج . أى : فَاخْرُجْ مِنْهَا فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ الصَّغَارِ وَالْهُوانِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى أَوْلِيَائِهِ لِتَكْبَرِكَ وَغُرُورِكَ .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٠٣ بتصرف وتلخيص .

ثم حكى القرآن ما طلبه إبليس من الله - تعالى - وما أجاب الله به عليه
 « قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)
 قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا يَنبَغِي لَهُمْ
 بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ
 أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُورًا مَذْخُورًا لَكَ
 نَجِيمَكَ مِنْهُمْ لَا مَلَأْنَا جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَتَجْمَعِينَ (١٨) » .

أى : قال إبليس لله - تعالى - أخبرنى ولا تمتنى إلى يوم بعث آدم
 وذريته من القبور ، وهو وقت النفخة الثانية عند قيام الساعة . وقد أراد بذلك
 النجاة من الموت : إذ لاموت بعد البعث . كما أراد بذلك أن يجد فسحة من
 الإغواء لبني آدم .

وقوله : « أَنْظِرْنِي » مأخوذ من الإظهار بمعنى الإمهال والتأخير . تقول
 أنظرته بحق أنظره إنظاراً أى : أهلهته .

وقوله : « قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ » معناه : قال الله - تعالى - له : إنك
 من المؤخرين إلى يوم الوقت المعلوم كما جاء ذلك فى قوله - تعالى - « قَالَ
 رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم .
 وهو - على الراجح - وقت النفخة الأولى فيموت كما يموت غيره . وقيل :
 المراد به الوقت المعلوم فى علم الله أنه يموت فيه .

قال ابن كثير : أجابه الله - تعالى - إلى ما سأل . لما له فى ذلك من
 الحكمة والإرادة المشيئة التى لا تخالف ولا تمنع ولا معقب لحكمه وهو
 سريع الحساب .

ثم حكى القرآن ما توعد به إبليس آدم وذريته من كيد وأذى فقال : « قَالَ
 فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . . . » .

الباء للقسم أو للسببية أى : فأقسم بإغوائك لإيى ، أو بسبب إغوائك لإيى ، لا ترصدن لآدم وبنيه على طريق الحق وسبيل النجاة ، كما يترصد قطاع الطرق للساثرين فيها فأصدنهم عنها وأحاول بكل السبل أن أصرفهم عن صراطك المستقيم ، وإن أمكنك من العمل على إفسادهم وإضلالهم .

والإغواء : خلق الغى بمعنى الضلال . وأصل الغى الفساد ، ومنه غوى الفصل -- كرضى -- غوى ، إذا بشم من اللبن ففسدت معدته ، أو منع الرضاع فهزل وكاد يهلك ، ثم استعمل في الضلال ، يقال : غوى يغوى غياً وغراية فهو غاو وغوى إذا ضل . وأغواه غيره : أضله .

وقوله « ثم لا تبينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم » زيادة بيان لحرص الشيطان على إضلال بني آدم بشق الوسائل ، أى : آتيهم من الجهات الأربع التى إعتاد العدو أن يهاجم عدوه منها . والمراد لاسوائهم ولا ضللتهم بحيث لا أفتر عن ذلك ولا أياس .

وقيل إن معنى « ثم لا تبينهم ومن بين أيديهم » أى : من قبل الآخرة لأنها مستقبل آتية ، وما هو كذلك فكأنه بين الأيدي . « ومن خلفهم » أى من قبل الدنيا لأنها ماضية بالنسبة إلى الآخرة ولأنها فانية متروكة . وعن أيمنهم وعن شمائلهم ، أى : من جهة حسناهم وسديئاتهم بحيث أزين لهم السيئات وأزهدهم فى الحسنات .

وقوله « ولا نجس أكثرهم شاكرين ، أى : مطيعين مستعملين لقوام وجوارحهم وما أنعم الله به عليهم فى طريق الطاعة والتقرب إلى الله .

ولما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن كقوله - تعالى - : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين » .

ولقد وردت آيات كثيرة وأحاديث متعددة فى التحذير من الشيطان وكيد ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا

لأنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ، وجاء في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن سيرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - : ان الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقدم له بطريق الإسلام ، فقال : أقسم وتند دينك ودين آبائك وأبيك ؟ قال : فمضاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أنها جرو تدع أرضك وسماؤك ولأنما مثل المهاجر كالفرس في الطول - أي كالفرس المربوطة بالحبل - قال : فمضاه فهاجر . قال : ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : هو جهاد النفس والمال . فتقاتل فتقتل فتنتكح المرأة ويقسم المال ؟ قال فمضاه فجاهد : فتال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فن فعل ذلك منهم فأت ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم عن عبد الله بن عمر قال لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يترك هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي . يقول . اللهم اني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي . اللهم أستر عورتي وآمن روعاتي . اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك ان اغتال من تحتني .

ثم حكى القرآن ما نوه الله به الشيطان واتباعه فقال : وقال اخرج منها مذموماً أي . اخرج من الجنة او من تلك الروضة مهاناً محقراً .

يقال . ذأمة يذامه ذأماً اذا عاقبه وحقره فهو مذموم ، وقوله . مدحوراً أي . مطروداً مبعداً . يقال . دحره دحراً ودحوراً طرده وأبعده .

ومن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ، أي . لمن أطاعك من الجن والإنس لأملأن جهنم من كفارك . كقوله - تعالى - « قال ذاهب فن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ، .

واللام في قوله (لمن) لتوطئة القسم والجواب (لأملائن جهنم منكم أجمعين)
ثم حكى القرآن ما أمر الله - تعالى - به آدم فقال .

« وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا
وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) » .

صدر الكلام بالفداء للتنبيه على الاهتمام بالمأمور به ، وتخصيص الخطاب
بآدم - عليه السلام - الإيذان بأصالته بالخلق وتعالى المأمور به .

وقوله (اسكن) من السكنى وهو اللبث والاقامة والاستقرار ، دون
السكون الذى هو ضد الحركة .

والزوج . يطلق على الرجل والمرأة . والمراد به هنا حواء ، حيث تقول
العرب للمرأة زوج ولا تكاد تقول زوجة .

والجنة . هى كل بستان ذى شجر متكاثف ملتف الأغصان ، يظلل ما تحته
ويستره من الجن وهو ستر الشئ عن الحواس .

وجهور أهل السنة على أن المراد بها هنا دار الثواب التى أعدّها الله
للمؤمنين يوم القيامة ، لأن هذا هو المتبادر الى الذهن عند الاطلاق .

ويرى جمهور علماء المعتزلة ان المراد بها هنا بستان بمكان مرتفع من
الأرض ، خلقه الله لاسكان آدم وزوجته . واختلفوا فى مكانه ، ف قيل انه
بفلسطين ، وقيل بغيرها ،

وقد ساق ابن القيم فى كتابه « حادى الأرواح » أدلة الفريقين دون ان
يرجح شيئاً منها .

والذى نراه ان الأحوط والأسلم . الكف عن تعيينها وعن القطع به ،
والى ذهب أبو حنيفة وأبو منصور الماترىدى فى التأويلات ، إذ ليس لهذه
المسألة تأثير فى العقيدة .

وتوجيه الخطاب إليهما في قوله (فكلا من حيث شئتما لتعميم التشريف والايذان بقساويهما في مباشرة المأمور به . أى . كلا من مطاعم الجنة وثمارها أكلا واسعا من أى مكان أردتم .

ثم بين - سبحانه - أنه نهى عن الأكل من شجرة معينة فقال :-
ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .

القرب : الدنو والمنهى عنه هو الأكل من ثمار الشجرة . وتعليق النهى على القرب منها القصد منه المبالغة في النهى عن الأكل ، إذ في النهى عن القرب من الشيء نهى عن فعله من باب أولى . وأكد النهى بأن جعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة ظلما ، فقال : فتكونا من الظالمين ، وقد ظلمنا أنفسهما إذ أكلا منها ، فقد ترتب على أكلهما منها أن أخرجا من الجنة التي كانا يعيشان فيها عيشة راضية .

وقد تكلم العلماء كثيرا عن إسم هذه الشجرة ونوعها ف قيل هي التينة ، وقيل هي السنبلة ، وقيل هي الكرمة ... ألخ الا أن القرآن لم يذكر نوعها على عادته في عدم الانحصر لذكر ما لم يدع المقصود من سياق القصة الى بيانه .
وقد أحسن ابن جرير في التعبير عن هذا المعنى فقال : والصواب في ذلك ان يقال : ان الله - تعالى - نهى آدم وزوجه عن الأكل عن شجرة بعينها من أشجار الجنة دون مائر اشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعبادة دليل على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وقد قيل كانت شجرة البر ، وقيل شجرة العنب ، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وان جهله جاهل لم يضره جهله به ، (١)

ثم بين القرآن بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال :

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا

مَلَائِكَةٍ أَوْ نَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَسَمْتُ لَكُمْ أَنِّي لَنِصِيحِينَ (٢١) فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) »

قوله - تعالى - : فوسوس لهما الشيطان ، أى : ألقى إليهما إبليس الوسوسة ، والوسوسة فى الأصل الصوت الخفى ، ومنه قيل لصوت الخلى . وسواس . والمراد بها هنا : الحديث الخفى الذى يلقىه الشيطان فى قلب الإنسان ليقارف الذنب .

وقوله : ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما ، . . وورى ، من المواراة وهى الستر . والسوءة . فرج الرجل والمرأة ، من سوء . وسميت بذلك ، لأن انكشافها بسوء صاحبها . وقيل الكلام كناية عن إزالة الحرمة وإسقاط الجاه .

والمعنى : أن إبليس وسوس إلى آدم وحواء بأن يأكلا من الشجرة المحرمة لتسكون عاقبة ذلك أن يظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر . وفى هذا التعبير تصريح بأن كشف العورة من أفتح الفواحش التى نهى الله - تعالى - عنها .

وقد حكى القرآن أن إبليس لم يسكتف بالوسوسة ، وإنما خدعهما بقوله :

« ما نها كما ربكنا عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » .

أى قال لهما : ما نها كما ربكنا عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين الذين لا يموتون ويبقون فى الجنة ساكنين .

وقوله : « إلا أن تكونا ملكين » ، استثناء مفرع من المفعول لأجله بتقدير مضاف أو حذف حرف النفي ليكون علة . أى كراهية أن تكونا ملكين .

ثم حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة أو بالقول المجرد ، وإنما أضاف إلى ذلك القسم المؤكد فقال : « وقاسمهما إني لسكائن الناصحين » ، أى : أقسم لهما بالله إنه إلهما لمن الناصحين المخلصين الذين يسعون لما فيه منفعتهما .

قال الألوسى : إنما عبر بصيغة المفاعلة للمبالغة ، لأن من يبارى أحداً فى فعل يجد فيه . وقيل المفاعلة على بابها ، والقسم وقع من الجافين ، لسكنه اختلاف متعلقه ، فهو أقسم لهما على النصيح وهما أقسما له على القبول (١) .

ثم حكى القرآن كيف نجح إبليس فى خداع آدم وحواء فقال : « فدلاهما بغرور » . أى : فأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية ، وأطعمهما فى غير مطعم بسبب ماغرهما به من القسم .

ودلاهما مأخوذ من التولية ، وأصله أن الرجل العطشان يدلى فى البئر بدلوه ليشرب من مائها ، فإذا ما أخرج الدلو لم يجد به ماء ، فيكون مداليا فيها بغرور . والغرور إظهار النصيح مع إبطال الغش ، وأصله من غررت فلانا أى أصبت غرته وغفلته ونلت منه ما أريد .

ثم بين القرآن الآثار التي ترقبت على هذه الحديعة من إبليس لهما فقال : فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوء أتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة .
أى : فلما خالفا أمر الله - تعالى - بأن أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها ، أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية ، ففسا قطعهما لباسهما ، وظهرت لهما عوراتهما . وشرعا يلزقان من ورق الجنة ورقة فوق أخرى على عوراتهما لسترهما .

ويخصفان : مأخوذ من الخصف ، وهو خرز طاقات النعل ونحوه بإصاق بعضها ببعض ، وفعله من باب ضرب .

قال بعض العلماء : ولعل المعنى - والله أعلم - أنهما لما ذاقا الشجرة وقد نهيا عن الأكل منها ظهر لهما أنهما قد زلا ، وخلصا ثوب الطاعة ، وبدت منهما سواة المعصية ، فاستحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما ، فأخذتا يفعلان ما يفعل الخائف الخجل عادة من الاستتار والاستخفاء حتى لا يرى ، وذلك يخصف أوراق الجنة عليهما ليستترا بها ، وماهيا لذاك حيلة سوى ذلك . فلما سمعا النداء الرباني بتقرعهم ولو مهما ألها أن يتوبا إلى الله ويستغفرا من ذنبيهما بكلمات من فيض الرحمة الإلهية ، فتاب الله عليهما وهو التواب الرحيم ، وقال لهما فقط أولهما ولذريتهما ، أولهما وإبليس : اهبطوا من الجنة إلى الأرض ، لينفذ ما أراد الله من استخلاف آدم وذريته في الأرض ، وعمارة الدنيا بهم إلى الأجل المسمى . ومنازعة عدوهم لهم فيها ، والله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا ، (١) .

ثم بين القرآن ما قاله الله - تعالى - لهما بعد أن خالفا أمره . فقال :
« وناداهما ربهما ، بطريق العتاب والتوبيخ » ألم أنهيكما عن تلكما الشجرة .

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٢٥٥ . لفضية الأستاذ الشيخ حسين

محمد مخلوف .

أى عن الأكل منها ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، أى : ظاهر
العداوة لا يفتر عن إبذائكما وإيقاع الشر بكما .

وهنا النفس آدم وحواء من ربهما الصفح والمغفرة ، قالاربنا ظلمنا أنفسنا ،
أى : أضررناها بالمعصية والمخالفة ، وإن لم تغفر لنا ، ما سلف من ذنوبنا
، وترحمنا ، بقبول توبتنا ، لنكونن من الخاسرين ، أى : لنصيرن من الذين
خسروا أنفسهم فى الدنيا والآخرة ، .

وقد حكى القرآن مارد الله به على آدم وحواء وإبليس ، فقال : قال اهبطوا ،
أى من الجنة إلى ما عداها . وقيل الخطاب لآدم وحواء وذريتهما . وقيل
الخطاب لهما فقط لقوله - سبحانه - فى آية أخرى ، قال اهبطا منها جميعا :
والقصة واحدة ، وضمير الجمع لكونهما أصل البشر .

وجملة ، بعضكم لبعض عدو ، فى موضع الحال من فاعل اهبطوا ، والمعنى
اهبطوا إلى الأرض حالة كون العداوة لا تنفك بين آدم وذريته ، وبين إبليس
وشيعته ، ولكم فى الأرض مستقر ، أى موضع استقرار ، ومتاع ، أى :
تمتع ومعيشة ، إلى حين ، أى : إلى حين انقضاء آجالكم .

، قال فيها ، أى فى الأرض ، تحيون ، تعيشون ، وفيها تموتون ومنها
تخرجون ، أى : يوم القيامة للجزاء ، كما فى قوله - تعالى - منها خلقناكم وفيها
نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، .

وبعد أن قص القرآن على بنى آدم قصة خلقهم وتصويرهم وما جرى بين
أبيهم وبين إبليس ، وكيف أن إبليس قد خدع آدم وزوجه خداعا ترتب عليه
إخراجهما من الجنة . . . بعد كل ذلك أورد القرآن أربع نداءات لبنى آدم
حضرهم فيها على تقوى الله وحذرهم من وسوسة الشيطان وذكرهم بنعمه عليهم ،
فقال فى النداء الأول :

« يَا بَنِي آدَمَ فَذَٰ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُم لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » (٢٦) .

السوءة : العورة . والریش : لباس الزينة ، استعير من ریش الطائر ، لأنه لباسه وزينته . وقال الجوهري : الریش والرياش بمعنى كاللبس واللباس ، وهو اللباس الفاخر .

والمعنى : يا بني آدم تذكروا واعتبروا واشكروا الله على ما حباكم من نعم ، فإنه - سبحانه - قد هيا لكم سبيل الحصول على الملابس الذي تستقرون به عوراتكم ، وتفتنون به في مناسبات التجميل والتعبد .

والمراد بإزال ما ذكر أنه خلق لبني آدم مادة هذا اللباس التي تتكون من القطن والصوف والحريز وما إليها ، وألهمهم بما خلق فيهم من غرائز طرق استنباتها وصناعتها بالفزل والنسيج والخياطة .

والتعبير بأنزلنا يفيد خصوصية البشر باللباس الذي يستر العورة ، وبالرياش التي يتزينون بها ، أي أنزلنا عليكم لباسين : لباسا يوارى سوا أنفسكم ، ولباسا يزيناكم ، لأن الزينة غرض صحيح وحجبا من طبيعة البشر . قال - تعالى - : « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً » .

قال الجمل : « وقوله - تعالى - « وَرِيشًا » ، يحتمل أن يكون من باب عطف الصفات . والمعنى : أنه وصف اللباس بوصفين : مواراة السواة ، والزينة . ويحتمل أن يكون من باب عطف الشيء على غيره . أي : أنزلنا عليكم لباسا موصوفا بالمواراة ، ولباسا موصوفا بالزينة ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أن هناك لباسا آخر أفضل وأكمل من كل ذلك

(١) حاشية الجمل على الحلالين ج ٢ ص ١٣٢ .

فقال : « ولباس التقوى ذلك خير ، أى : أن اللباس الذى يصون النفس من الدنيا والآرجاس ، ويستزها بالإيمان والعمل الصالح هو خير من كل لباس حتى يتزين به البشر . فلم الإشارة هنا يعود على لباس التقوى . وقد عبر القرآن هنا عن التقوى بأنها لباس ، وعبر عنها فى موضع آخر بأنها زاد ، مشاكلة للسياق الذى وردت فيه هنا أو هناك ، وذلك من باب تجميع المعنويات وتنسيقها مع الجو العام الذى وردت فيه ، وتلك طريقة انفرد بها القرآن الكريم .

قال صاحب الكشاف : وقوله : « ولباس التقوى ، مبتدأ ، وخبره إما الجملة التى هى « ذلك خير » ، كأنه قيل : ولباس التقوى هى خير ؛ لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر . وإما المفرد الذى هو خير ، وذلك صفة للمبتدأ ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير ، (١) . وقوله - تعالى - « ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ، معناه : ذلك الذى أنزله الله على بنى آدم من النعم من دلائل قدرته وإحسانه عليهم ، لعلهم بعد ذلك لا يعودون إلى النسيان الذى أوقع أبويهم فى المعصية .

قال صاحب الكشاف : وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر ظهور العورات وخصف الورق عليها ، لإظهارا للفتنة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن القستر باب عظيم من أبواب التقوى (٢) .

ثم أتبع القرآن النداء الأول بنداء آخر مبالغة فى وعظ بنى آدم وتذكيرهم بفضل الله عليهم ، فقال - تعالى - :

« يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسُهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَائِمُ هُوَ

وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَمَعْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) .

والمعنى : يا بني آدم لا يصرف نفسك الشيطان عن طاعة الله ، بأن تمسكنوه من أن يوقعكم في المعاصي كما أوقع أبويكم من قبل فيها ، فكان ذلك سبباً في خروجهما من الجنة التي كانا يتمتعان بنعيمها .

وقوله : « ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوء انهما » جملة حالية من أبويكم . أى أخرجهما من الجنة حال كونه فارعاً عنهما لباسهما . وأسند النزاع إلى الشيطان لأنه كان متسبباً فيه . ثم أكد تحذيرهم من الشيطان بجملة تعليلية فقال : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » أى : إن الشيطان وجنوده يرونكم يا بني آدم وأنتم لا ترونهم ، فالجملة السكريئة تعليل للنهي السابق . وهو قوله : « لا يفتننكم » . وتأكيدهم للتحذير ، لأن العدو إذا أتى من حيث لا يرى كان أشد وأخوف ، ولذا قال مالك بن دينار : « إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا على من عصمه الله » .

وقوله « وقبيله » معطوف على الضمير المستتر في قوله « يراكم » ، المؤكد بقوله « هو » .

قال الألوسي ما ملخصه : والقضية مطلقة لا دائمة ، فلا تدل على ما ذهب إليه المتمتزة من أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس أصلاً ولا يتمثلون . ويشهد لما قلنا ما صح من رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - لأحدهم حين رام أن يشغله عن الصلاة فامسكته الله منه ، وأراد أن يربطه في سارية من سوارى المسجد ثم ذكر دعوة سليمان في قوله : « رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » فتركه (١) .

ثم بين -- سبحانه -- سنته في خلقه فقال : « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ، . أى : إنا صيرنا الشياطين قرناء للذين لا يؤمنون ، مسيطرين عليهم ، متمكنين من إغوائهم ، لأن حكمتنا اقتضت أن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن ، متجانسين مع الكافرين الذين هم شرار الإنس .

وبذلك فرى أن الآية الأولى التي ورد فيها النداء الأول قد ذكرت بنى آدم بجانب من نعم الله عليهم ، ثم جاءت هذه الآية مصدرية بنداء آخر حذرهم فيه من وسوسة الشيطان ومداخله حتى لا يقعوا فيها وقع فيه أبوه آدم من قبل . ثم حكى القرآن بعض القبايح التي كان يفعلها المشركون ، ورد على أكاذيبهم بما يدحضها فقال :

« وَإِذَا قَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) » .

الفاحشة : هى كل فعل قبيح يتنافى مع تعاليم الشريعة مثل الإشرak بالله ، والطواف بالبيت الحرام بدون لباس يستر العورة .

قال الإمام ابن كثير : « كانت العرب - ماعدا قريشا - لا يطوفون بالبيت الحرام فى ثيابهم التى لبسوها ، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها ، وكانت قريش - وهم الحبس (١) - يطوفون فى ثيابهم ، ومن أعاره أحسبى ثوبا طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوبا جديداً ولا أعاره أحسبى ثوبا طاف عريانا ، وربما كانت المرأة تطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئا ليستتره بعض الستر ، وأكثر ما كان النساء يطفن عراة ليلا ، وكان هذا شيئا قد ابتلا عوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله فأنكر

(١) سمو بالحس لأنهم تحمسوا فى دينهم أى : تشددوا . والخاسة : الشجاعة .

الله عليهم ذلك وقال : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » (١)

فآية الكريمة تحكى عن هؤلاء المشركين أنهم كانوا يرتكبون القبائح التى نهى الله عنها كالطواف بالكعبة عرايا ، وكالإشراك بالله ، ثم بعد ذلك يحتجون بأنهم قد وجدوا آباءهم كذلك يفعلون ، وبأن الله قد أمرهم بذلك ، ولا شك أن احتجاجهم هذا من الأكاذيب التى ما أنزل الله بها من سلطان ، ولذا عاجلهم القرآن بالرد المفجع ، فقال : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون » .

أى : قل يا محمد هؤلاء المفتريين على الله الكذب : إن كلامكم هذا يناقضه العقل والنقل . أما أن العقل يناقضه ويكذبه . فلأنه لا خلاف بيننا وبينكم فى أن ما تفعلونه هو من أقبح القبائح بدليل أن بعضكم قد تنزه عن فعله . وأما أن النقل يناقضه ويكذبه فلأنه لم يثبت عن طريق الوحي أن الله أمر بهنا ، بل الثابت أن الله لا يأمر به ، لأن الفاحشة فى ذاتها تجاوز لحدود الله ، وانتهاك لحرمانه ، فهل من المعقول أن يأمر الله بانتهاك حدوده وحرمانه ؟ والاستفهام فى قوله - تعالى - « أتقولون ... » للإسكار والتوبيخ وفيه معنى النفي .

ثم بين - سبحانه - ما أمر به من طاعات عقب تكذيبه المشركين فيها أفتروه فقال :

« قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ، إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٣٠) » .

أى : قل لهم يا محمد إن الذى أمر الله به هو العدل فى الأمور كلها ، لأنه هو الوسط بين الإفراط والتفريط ، كما أنه - سبحانه - قد أمركم بأن توجوهوا إليه وحده فى كل عبادة من عبادتكم ، وأن تكثروا من التضرع إليه بخالص الدعاء وصالحه ، فإنه مخ العباد .

ثم ذكرهم - سبحانه - بمبدئهم ونهايتهم فقال : كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة .

أى : أن الذى قدر على ابتدائكم وإنشائكم ولم تكونوا شيئاً ، يقدر على إعادتكم ليجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة والطاعة .

قال صاحب المنار : « وهذه الجملة من أبلغ الكلام الموجز المعجز ؛ فإنها دعوى متضمنة الدليل ، بقشبيته الإعادة بالبده فهو يقول : كما بدأكم ربكم خلقاً وتكونوا بقدرته تعودون إليه يوم القيامة حالة كونكم فريقين ، فريقاً هدام فى الدنيا فاهتدوا بإيمانهم به وإقامة وجوههم له وحده فى العبادة ودعائه مخلصين له الدين ، وفريقاً حق عليهم الضلالة لإنباعهم لإغراء الشيطان ، وإعراضهم عن طاعة الرحمن ، وكل فريق يموت على ما عاش عليه ويبعث على مات عليه ، ومعنى حقت عليهم الضلالة ، ثبتت بثبوت أسبابها الكسبية ، لأنها جعلت غريزة لهم فكانوا مجبورين عليها ، يدل على هذا تولى لها على طريق الاستئناف البيان بقوله : « إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله يحسبون أنهم مهتدون ، ومعنى اتخذهم الشياطين أولياء ، أنهم أطاعوهم فى كل ما يزينونه لهم من الفواحش والمنكرات ، يحسبون أنهم مهتدون فيما تلقىهم الشياطين إياه من الشبهات ^(١) » .

ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء ثالثاً إلى بنى آدم أمرهم فيه بالتمتع بالحلال ، ويزينه الله التى أخرجها لعباده بدون إسراف أو تبذير فقال - تعالى :

« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) » .

والمعنى : عليكم يا بني آدم أن تتجملوا بما يستقر عورتكم ، وأن تتحلوا بلباس زينتكم كلها صليتم أو طفتم ، واحذروا أن تطوفوا بالبيت الحرام وأقم عرايا :

قال القرطبي : « يا بني آدم هو خطاب لجميع العالم ، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عرايا ، فإنه عام في كل مسجد للصلاة . لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (١) » .

وقال ابن عباس : « كان بعض العرب يطوفون بالبيت عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل . يقولون : لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فأنزل الله - تعالى - « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ (٢) » .

ثم أمرهم - سبحانه - أن يتمتعوا بالطيبات بدون إسراف أو تقتير فقال : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » .

أي : كلوا من المسأكل الطيبة ، واشربوا المشارب الحلال ولا تسرفوا لا في زينتكم ولا في ماosلكم أو مشربكم . لأنه - سبحانه - يكره المسرفين .

قال الإمام ابن كثير : « قال بعض السلف : جمع الله الطب في نصف آية في قوله « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » ، وقال البخاري : قال ابن عباس كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأك خصلتان : « سرف ومخيلة » (٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٧٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٨ ص ١٢٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١ .

وقد كان السلف الصالح يقفون بين يدي الله في عبادتهم وهم في أكمل زينة ، فهذا - مثلاً - الإمام الحسن بن علي ، كان إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه فقبل له ؛ يابن بنت رسول الله لم تلبس أجمل ثيابك ؟ فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، فانا أنجمل لربي ، لأنه هو القائل : خذوا زينتكم عند كل مسجد ، (١) .

وقال السكلي : « كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم إلا قوتا ولا يأكلون لحماً ولا دسماً يعظمون بذلك حجهم ، فهم المسلمون أن يفعلوا كفعالهم فأنزل - تعالى - « وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا » .

فهذه الآية الكريمة تهدي الناس إلى ما يلصق معاشهم ومعادهم ، إذ أنها أباحت المسلم أن يتمتع بالطيبات التي أخلقها الله ، ولكن بدون إسراف أو بطر ، ولذا جاء الرد على المنتطحين الذين يضيقون على أنفسهم ما وسعه الله في قوله - تعالى - بعد ذلك :

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (٣٢) .

أي : قل يا محمد لأولئك الذين يطوفون بالبيت عرايا ، ويمتنعون عن أكل الطيبات : من أين أنيتم بهذا الحكم الذي عن طريقه حرمت على أنفسكم بعض ما أحله الله لعباده ؟ فالاستفهام لإفكار ما هم عليه بأبلغ وجه .

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم بأبلغ رد فقال : « قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا : خالصة يوم القيامة » .

أي : قل أيها الرسول لأمتك : هذه الزينة والطيبات من الرزق نابت للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويشاركهم فيها المشركون أيضاً ، أما في الآخرة فهي خالصة للمؤمنين ولا يشاركهم فيها أحد من أشرك مع الله آلهة أخرى .

وقوله - تعالى - « كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » معناه : مش
تفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما في تضاعيفها من
توجيهات سامية ، وآداب عالية ،
ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من المحرمات التي نهي عباده عن
اقترافها فقال تعالى .

« قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ
بَغْيِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) » .

والمعنى : قل يا محمد طؤلا.الذين ضيقوا على أنفسهم ماوسعه الله ، قل لهم :
إن ما حرمه الله عليكم في كتبه وعلى السنة رسله هو هذه الأنواع
الحس التي أولها ، الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ، أي : ما كان قبيحا
من الأقوال والأفعال سواء أكان في السر أو العلن ، وثانيها وثالثها (الإثم
والبغى بغير الحق) والإثم : هو الشيء القبيح الذي فعله يعتبر معصية ، والبغى :
هو الظلم والتطاول على الناس وتجاوز الحد .

قال الإمام ابن كثير : « وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة
بالفاعل نفسه ، والبغى هو التمدي على الناس ، فحرم الله هذا وهذا ، (١) .
وقيد البغى بـ يكونه بغير الحق ، لأنه لا يكون إلا كذلك . إذ معناه في اللغة
تجاوز الحد . يقال : بغى الجرح . إذ تجاوز الحد في فساده .

وقيل قيده بذلك ليخرج البغى على الغير في مقابلة بغيه ، فإنه يسمى بغيا
في الجملة . لكنه بحق ، وهو قول ضعيف لأن دفع البغى لا يسمى بغيا ، وإنما يسمى
انتصافا من الظالم ، ولذا قال القرآن « ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم
من سبيل » .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢٢ .

وقيل إن القيد هنا لإخراج الأمور التي ليس لهم فيها حقوق ، أو التي تطيب أنفسهم فيها عن بعض حقوقهم فيبدلون عنها رضى وإرتياح لمنفعة أو مصلحة لهم يرجونها ببذلها .

ورابع الأمور التي حرمها الله أخبر عنه القرآن بقوله : « وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » .

أى : وحرم عليكم أن تجعلوا لله شركاء فى عبادته بدون حجة أو برهان . وقوله « ما لم ينزل به سلطانا » بيان للواقع من شركهم ، إذ أنهم لا حجة هندهم على شركهم : لا من العقل ولا من النقل ، فالجملة الكريمة قد اشتملت على التهمك بالمشركين وتوبيخهم على كفرهم .

وخامسها قوله - تعالى - « وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، أى : حرم عليكم أن تقولوا قولاً يتعلق بالعبادات أو المحملات أو المحرمات أو غيرها بدون علم منكم بصحة ما تقولون ، وبغير بينة على صدق ما تدعون ،

قال صاحب المنار : « ومن تأمل هذه الآية حق التأمل ، فإنه يحتنب أن يحرم على عباد الله شيئاً أو يوجب عليهم شيئاً فى دينهم بغير نص صريح عن الله ورسوله ، بل يحتنب - أيضاً - أن يقول : هذا مندوب أو مكروه فى الدين بغير دليل واضح من النصوص ، وما أكثر الغافلين عن هذا المتجرئين على التشريع ... » (١) .

وبعد أن بين القرآن ما أحله الله وما حرمه . عقب على ذلك بأن بين أن أجل الناس فى هذه الدنيا محدود ، وأنهم إن آجلاً أو عاجلاً سوف يقفون أمام ربهم للحساب فقال :

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) .

أى : لسكل أمة من الأمم ولسكل جيل من الأجيال مدة من العمر محدودة فى علم الله ، فإذا ما انتهت هذه المدة انقطعت حياتهم وفارقوا هذه الدنيا بدون أى تقديم أو تأخير .

وليس المراد بالساعة هنا ما اصطلاح عليه الناس من كونها ستين دقيقة ، وإنما المراد بها الوقت الذى هو فى غاية القلة .

ثم أورد القرآن بعد ذلك النداء الرابع والآخر لبنى آدم ، وحضهم فيه على اتباع الرسل ، والسير على الطريق المستقيم فقال :

« يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ، فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) »

والمعنى : يا بنى آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم ، يتلون عليكم آياتى التى أنزلتها عليهم لهدايتكم فآمنوا بهم وعزروهم وانصروهم ، فإن من آمن بهم واتقى ما نهاه عنه ربه ، وأصلح نفسه وعمله ، فأولئك لا خوف عليهم يوم القيامة ، ولا هم يحزنون لفارقتهم الدنيا ، أما الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

فلايتان السكريمتان تخبران جميع بنى آدم أن رسل الله قد بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ، فعلى المرسل إليهم أن يطيعوهم حتى يفوزوا برضاء خالقهم . قال ابن جمل : « وإنما قال رسل بلفظ الجمع وإن كان المراد به واحدا وهو النبى صلى الله عليه وسلم ، لانه خاتم الأنبياء ، وهو مرسل إلى كافة الخلق ، فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ، فعلى هذا يكون الخطاب فى قوله يا بنى آدم ، لأهل مكة ومن يلحق بهم . وقيل أراد جميع الرسل . وعلى هذا الخطاب

فى قوله : يا بنى آدم ، عام لكل بنى آدم ، وانما قال منكم أى : من جنسكم ومثلكم من بنى آدم ، لأن الرسول اذا كان من جنسهم كان أقطع لعذرهم وأثبت للحجة عليهم ، لأنهم يعرفونه ويفرقون أحواله ، فإذا أنام بما لا يليق بقدرته أو بقدره أمثاله علم أن ذلك الذى أنى به معجزة له ، وحجة على من خالفه ، (١) .

ثم تعرض السورة المكريمة بعد ذلك لمشاهد يوم القيامة فى خمس عشرة آية فتصور لنا قاسمها البليغ المؤثر حال المشركين عند قبض أرواحهم ، وحالهم عند ما يقفون أمام الله للحساب يوم الدين ، وتحكى لنا ما يجرى بين رؤساء المشركين ومرءوسيه من مجادلات وملاعظات ، ثم تعقب على ذلك ببيان ما أعد الله للمؤمنين من أجر عظيم ونواب جزيل ، ثم يختم هذه المشاهدة بالحديث عما يدور بين اصحاب الجنة واصحاب النار من محاورات ونزاعات . استمع الى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بطريقته التصويرية المعجزة فيقول .

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؟ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ قَالُوا هَٰؤُلَاءِ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ، وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) » .

أى . لا أحد أشد ظلما ممن افترى الكذب على الله ، بأن اجل ما حرمه أو حرم ما أحله ، او كذب بآياته المنزلة على أنبيائه ، والإستفهام فى قوله فمن اظلم للإنكار .

ثم بين - سبحانه - غابيتهم فقال - « أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب » .

أى . أولئك الذين كذبوا بآيات الله سينا لهم نصيبهم مما كتب لهم وقدر من رزق وأجر ، وخير وشر ، والمراد بالكتاب ، كتاب الوحي الذى أنزل على الرسل ، فإنه يتضمن ما أعدّه الله للمؤمنين من ثواب وما أعدّه للكافرين من عقاب . وقيل المراد به اللوح المحفوظ ، أى أولئك يناهم نصيبهم المكتوب لهم فى كتاب المقادير ، وهو : اللوح المحفوظ .

ثم صدور القرآن حالهم عند قبض أرواحهم فقال . « حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ، قالوا . أينما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا . ضلوا عنا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . »

أى . أولئك المفتررون يناهم نصيبهم الذى كتب لهم مدة حياتهم ، حتى إذا ما انتهت آجالهم وجاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم سألهم سؤالاً توبيخ وتقريع : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا ، وتزعمون أنها شفعاؤكم عند الله لى تنقذكم من هذا الموقف العصيب ؟ وهذا يحجب المشركون على الملائكة بقولهم بحسرة وندامة . « ضلوا عنا ، أى : غابوا عنا وصرنا لاندري مكانهم ، ولا نرجو منهم خيراً أو نفعاً ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بعبادتهم لغير الله الواحد القهار . »

وهذا يصدر عليهم قضاء الله العادل الذى صورّه القرآن فى قوله :

« قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أداركوا فيها جميعاً قالت أحرأهم لأولأهم ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتتهم عذاباً من النار ، قال : لكل صنّف ولكن لا تعلمون (٣٨) . »

أى : قال الله - تعالى - لأولئك المكذبين ادخلوا فى ضمن أمم من الجن والإنس قد سبقتم فى الكفر ، وشاركنكم فى الضلالة .

ثم بين - سبحانه - بعض أحوالهم فقال : كلما دخلت أمة لعنت أختها ، أى : كلما دخلت أمة من أمم الكفر النار لعنت أختها فى الدين والملة ، فالأمة المتبوعة تلعن الأمة التابعة لأنها زادتها ضلالا ، والأمة التابعة تلعن الأمة المتبوعة لأنها كانت سببا فى عذابها .

ثم قال - تعالى - : « حتى إذا ادركوا فيها جميعا ... ، أى : حتى إذا ما اجتمعوا جميعا فى النار الرؤساء والأتباع ، والأغنياء ، والفقراء ، قالت أخراهم دخولا أو منزلة وهم الاتباع ، لأولاهم دخولا أو منزلة وهم الزعماء والمتبوعين » ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار » .

أى : قال الاتباع : يا ربنا هؤلاء الرؤساء هم السبب فى ضلالتنا وهلاكنا ، فآذقهم ضعفا من عذاب النار لإضلالهم إيانا فضلا عن أنفسهم .

وهنا يأتيهم الجواب الذى يحمل لهم التهم والسخرية ، فيقول الله لهم : « قال : لكل ضعف ولكل لا تعلمون » أى : لكل منكم ومنهم عذاب مضاعف من النار . أما أنتم فبسبب تقليدكم الأعمى ، وأما هم فبسبب إضلالهم لكم ولغيركم ، ولكنكم يا معشر المقلدين لا تعلمون ذلك لجهلكم وانطماس بصيرتكم .

« وَقَالَتْ أُولَآئِهُمُ الْآخِرَآءُ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) » .

أى : قال الزعماء لأتباعهم بعد أن سمعوا رد الله عليهم : إنا وإياكم متساوون فى استحقاق العذاب ، وكلنا فيه سواء . لأننا لم نجبركم على الكفر ، ولكنكم أنتم الذين كفرتم باختياركم ، وضللتم بسبب جهلكم ، فذوقوا العذاب المضاعف مثلنا بسبب ما اكتسبتموه فى الدنيا من قبائح وفسكرات :
فقرله - تعالى - : « بما كنتم تكسبون » ، بيان لأسباب الحكم عليهم .

وأنهم ما وردوا هذا المصير إلا بسبب ، ما اكتسبوه من آثام :
وما اجتروا من سيئات .

ثم بين القرآن بعد ذلك لونا آخر من ألوان عذاب المكذبين فقال :

« إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ
أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحِظَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ،
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ
غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) » .

فهاتان الآيتان تصوران أكل تصوير استحالة دخول المشركين الجنة
بسبب تكذيبهم لآيات الله واستكبارهم عنها .

وقد فسر بعض العلماء قوله - تعالى - : « لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ »
بمعنى ، لا نقبل أعمالهم ولا ترفع إلى الله كما ترفع أعمال الصالحين . قال -
تعالى - : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » :

وفسره بعضهم بمعنى أن أرواحهم لا تصعد إلى السماء بعد الموت ، لأنها
قد أغلقت عليهم بسبب شركهم ، ولكنها تفتح لأرواح المؤمنين :

والمراد أن الكافرين عند موتهم وعند حسابهم يوم القيامة يكونون على
غضب الله ولعنته بسبب ما ارتكبوه في الدنيا من شرك وظلم .

أما قوله - تعالى - : « وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحِظَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ »
فعناه : أن هؤلاء المشركين لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم أبواب السماء
ولا يدخلون الجنة حتى يدخل ما هو مثل في الضخامة وهو الجبل الكبير ،
فيما هو مثل في الضيق وهو ثقب الإبرة .

وفي قرأة « حَتَّى يُلَاحِظَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ » - بضم الجيم وتشديد الميم وفتحها -
وهو الجبل الغليظ أى : لا يدخلون الجنة حتى يدخل ذلك الجبل الغليظ الذى

تربط به السفن في ذلك الثقب الصغير للابرة ، وهيات أن يحصل هذا ، فكما أنه غير ممكن حصول ذلك فكذلك غير ممكن دخول المشركين الجنة .

قال الجمل في حاشيته : ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ، ولولج الدخول بقعدة ، ولذلك يقال هو الدخول في ضيق فهو أخص من مطلق الدخول . والجمل معروف وهو الذكر من الإبل ، وسم الخياط ثقب الإبرة ، وإنما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لأنه أكبرها ، وثقب الإبرة من أضيق المنافذ ، فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه في ثقب الإبرة الضيق محالاً فثبت أن الموقوف على المحال محال . فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار الجنة ميتوس منه قطعاً (١) .

وقوله : وكذلك نجزي المجرمين ، معناة : ومثل ذلك الجزاء الرهيب نجزي جنس المجرمين ، الذين صار الاجران وصفا لازما لهم .

ثم بين - سبحانه - ما أعد لهم في النار فقال : لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزي الظالمين .

جهنم : لاسم لدار العذاب . والمهاد : الفراش . والغواشي جمع غاشية ، وهي ما يغشى الشيء أي يغطيه ويستره .

أي : أن هؤلاء المكذبين لهم في جهنم محيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، فهي من تحتهم بمنزلة الفراش ، ومن فوقهم بمثابة الغطاء ، ومثل ذلك الجزاء نجزي كل ظالم ومشرک . وإلى هنا تكون الآيات السكرية قد بينت لنا بأسلوب مؤثر ومصور حال المشركين عندما تقبض أرواحهم ، وحالهم عندما يقفون أمام الله للحساب ، وحالهم عندما يلعن بعضهم بعضا ، وحالهم والعذاب من فوقهم ومن أسفل منهم ، وهي مشاهد تفزع النفوس ، وتحمل العقلاء على الاستقامة والاهتداء .

ثم نرى السورة بعد ذلك نسوق لنا ما أعد الله للمؤمنين بعد أن بينت فيها سبق عاقبة الكافرين فقال — تعالى — :

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُوَدِّعُهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) » .

أى : والذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الأعمال الصالحة التي لا عسر فيها ولا مشقة . إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، أولئك الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، هم أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

وجملة — لا نكلف نفساً إلا وسعها — معترضة بين المبتدأ الذى هو قوله « والذين آمنوا ... » وبين الخبر الذى هو قوله « أولئك أصحاب الجنة ... » .

قال الجمل : « وإنما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر ، لأنه من جنس هذا الكلام : لأنه — سبحانه — لما ذكر عملهم الصالح ، ذكر أن ذلك العمل من وسعهم وطاعتهم وغير خارج عن قدرتهم ، وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم قدرها ، يتوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة ولا صعوبة (١) » .

وقال صاحب الكشف : « وجملة « لا نكلف نفساً إلا وسعها » معترضة بين المبتدأ والخبر ، للترغيب فى اكتساب ما لا يسكتهم وصف الواصف من

النعيم الخالد مع المتعظيم بما هو في الوسع ، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح (١) .

ثم بين - سبحانه - ما م عليه في الجنة من صفاء نفسى ونقاء قلبى فقال - تعالى - : « ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار ، أى : قلنا ما في قلوبهم من تحاقد وعداوات في الدنيا ، فهم يدخلون الجنة بقلوب سليمة ، زاهرة بالتواد والتعاطف حالة كونهم تجري من تحتهم الأنهار فيرونها وهم في غرفات قصورهم فيزداد سرورهم وحبورهم .

« وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . » أى : قالوا شاكرين لله أنعمه ومنته : الحمد لله الذى هدانا في الدنيا إلى الإيمان والعمل الصالح ، وأعطانا في الآخرة هذا النعيم الجزيل ، وما كنا لنهتدى إلى ما نحن فيه من نعم لولا أن هدانا الله إليه بفضله وتوفيقه . وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والتقدير : ولولا هداية الله موجودة ما اهتدينا .

وقوله : « لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، جملة قسمية ، أى : والله لقد جاءت رسل ربنا في الدنيا بالحق ، لأن ما أخبرونا به قد وجدنا مصداقه في الآخرة .

« ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ، أى : ونودوا من قبل الخالق - عز وجل - بأن قيل لهم : تلكم هى الجنة التى كانت الرسل تعدكم بها في الدنيا قد أورثكم الله إياها بسبب ما قدمتموه من عمل صالح .

فآية الكريمة صريحة في أن الجنة قد ظفر بها المؤمنون بسبب أعمالهم الصالحة .

فإن قيل : إن هناك أحاديث صحيحة تصرح بأن دخول الجنة ليس بالعمل وإنما بفضل الله ، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لن يدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضلته ورحمته .

فاجواب على ذلك أنه لا تنافي في الحقيقة ، لأن المراد أن العمل لا يوجب دخول الجنة ، بل الدخول بمحض فضل الله ، والعمل سبب عادي ظاهري . ونوضح أن الأعمال مهما عظمت فهي ثمن ضئيل بالنسبة لعظمة دخول الجنة ، فإن النعمة الآخروية سلعة غالية جداً فمثل هذه المقابلة كمثل من يبيع قصوراً شاهقة وضياعاً واسعة بدرهم واحد .

فإقبال البائع على هذه المبادلة ليس للمساواة بين العمل ونعمة الجنة ، بل لتفضله على المشتري ورحمته به ، فمن رحمته بعباده المؤمنين أن جعل بعض أعمالهم الثابتة وأموالهم الزائلة ثمناً لتعيم لا يبلى ، ولذلك قال ابن عباس عندما قرأ قوله - تعالى - : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » : نعمت الصفقة ، أنفس هو خالقها وأموال هو رازقها ثم يمنحنا عليها الجنة .

على أنه -- سبحانه -- هو المتفضل في الحقيقة بالثمن والمثمن جميعاً . لا جرم كان دخول الجنة بفضلته -- سبحانه -- وهو الموفق للعمل والمعين عليه . ويمكن أن يجاب -- أيضاً -- بأن الفوز بالجنة ونعيمها إنما هو بفضل الله والعمل جميعاً ، فقوله : « ونودوا أن تذككم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ، أي : مع فضل الله -- تعالى -- ، وإنما لم يذكر ذلك لئلا يتكلموا . وقوله - صلى الله عليه وسلم - « لن يدخل أحداً عمله الجنة .. » ، أي مجرداً من فضل الله ، وإنما اقتصر على هذا لئلا يغتروا .

هذه أصح الآراء في الجمع بين الآية والحديث ، وهناك آراء أخرى لم نذكرها لضعفها .

وبعد هذه المزاولة بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين ، بدأ القرآن

يسوق لنا مشهداً آخر من الحوار الذى يدور يوم القيامة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار .

استمع إلى سورة الاعراف وهى تحكى لنا هذا المشهد المؤثر بأسلوبها العجيب فتقول :

« وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنَّ لِمَنُ اتَّقَى اللَّهَ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَتَمَوَّنَ عِوَجًا ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ فَلَمَنَ لَهُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَئِنُّونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا : رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، قَالُوا : مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جِئْتُمْكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ يَمِزْهُ رَبُّكُمْ اللَّهُ ، قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنفَسُهُمْ كَمَا نَسُوا الْقِيَامَ يَوْمَئِذٍ وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) » .

والمعنى : أن أصحاب الجنة سوف يسألون أهل النار سؤال تعبير وتوبيخ

يوم القيامة فيقولون لهم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من العذاب ومن الجزاء

فهل وجدتم أنتم ما وعدكم ربكم حقاً من العقاب وسوء المصير ؟ قالوا : نعم .
أى : قال أهل النار : نعم وجدنا ما وعد ربنا على السنة رسله حقاً .

وهذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار .

والظاهر أن هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار لأن الجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد . فكل فريق من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه من الكفار في دار الدنيا .

وعبر بالماضى مع أن هذا النداء يكون في الآخرة لتحقيق الوقوع وتأكيده .

وكلمة : حقاً ، نصبت في الموحدين على الحالية ، وقيل إنها مفعول ثان ويكون وجد بمعنى علم .

ثم آيين - سبحانه - ما جرى بعد ذلك فقال : « فاذن مؤذن بينهم ، أن لعنه الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ... » .

التأذين : رفع الصوت بالإعلام بالشىء . واللعنة : الطرد والإبعاد مع الخزي والإهانة .

والمعنى : بعد أن قامت الحجة على الكافرين وثبت الفوز للمؤمنين . نادى مناد بين الفريقين بقوله : لعنة الله على الظالمين لأنفسهم ، وأغيرهم ، الذين من صفاتهم أنهم يمنعون الناس عن اتباع شريعة الله ، ويريدون لها أن تكون معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها الناس ، وهم بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب جاحدون مكذبون .

وفي قوله « فاذن مؤذن بينهم » فذكر المؤذن ؛ لأن معرفته غير مقصودة بل المقصود الإعلام بما يكون هناك من الأحكام ولم يرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شىء ، فهو من أمور الغيب التى لا تعلم علماً صحيحاً إلا

بالتوقيف المستند إلى الوحي ، وما ورد في ذلك فهو من الآثار التي لا يعتمد عليها .

قال بعض العلماء : « وفي هاتين الآيتين تعرض السورة لمرحلة أخرى من مراحل العذاب ، وهي نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار نداء يسجل عليهم الخزي والنكال ، ويشعرهم بالحسرة والندامة ، إذ كذبوا بما يرونه الآن واقفا في مقابلة النعيم الذي صار إليه أهل الإيمان ، وأحسوا به كذلك واقفا . وفي هذا نرى صورة من الحديث الذي يمثل الرضا والاطمئنان واللذة من جانب . ويمثل الحسرة والذلة والقلق من جانب آخر . ويصور الحكم النافذ الذي لا مرد له ولا محيص عنه يؤذن به مؤذن لا يدرك كنهه ولا يعلم من هو ولا ماصوته ولا كيف يلقي أذانه ، ولا كيف يكون أثر هذا الأذن في نفوس سامعه .

ولأنه لتصوير قوي بارع ، يحرك إليه النفوس ، ويهز المشاعر ، ويبين أن النهاية الآلية المتوقعة لطؤ لا المكذبين ، إنما هي تسجيل اللعنة عليهم ، والطرد والحرمان من رحمة الله ، مشيرا إلى أسباب ذلك الحرمان المائلة في ظلمهم الذي كونه صدم عن سبيل الله ، وبفهم إياها عوجا وانحرافا وكفرهم بدار الجزاء ، (١) .

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ، يحدثنا فيه عن أصحاب الأعراف وما يدور بينهم وبين أهل الجنة وأهل النار من حوار فيقول :

« وبينهما حجاب ، أى : بين أهل الجنة وأهل النار حجاب يفصل بينهما ، ويمنع وصول أحد الفريقين إلى الآخر ،

ويرى بعض العلماء أن هذا الحجاب هو السور الذي ذكره الله في قوله

(١) تفسير القرآن الكريم من لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود

شلتوت .

- تعالى - في سورة الحديد . . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . .

ثم قال - تعالى - . . وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون . .

الأعراف : جمع عرف ، وهو المكان المرتفع من الأرض وغيرها .
ومنه عرف الديك وعرف الفرس وهو الشعر الذي يكون في أعلى الرقبة .

والمعنى : وبين الجنة والنار حاجز يفصل بينهما وعلى أعراف هذا الحاجز - أى فى أعلاه - رجال يرون أهل الجنة وأهل النار فيعرفون كلا منهم بسيماهم وعلاماتهم التى وصفهم الله بها فى كتابه كيباض الوجوه بالنسبة لأهل الجنة ، وسوادها بالنسبة لأهل النار ، ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة عند رؤيتهم لهم بقولهم : سلام عليكم ونحية لكم ، لم يدخلوها وهم يطمعون . .

هذا ، وللعلماء أقوال فى أصحاب الأعراف أوصلها بعض المفسرين إلى اثني عشر قولاً من أشهرها قولان :

أولهما : أن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقدرى هذا القول عن حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف .

وقد استشهد أصحاب هذا القول بما رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : . . مثل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . . عن استوت حسناتهم وسيئاتهم فقال : . . أولئك أصحاب الأعراف ، لم يدخلوها وهم مطمعون . .

وعن الشعبي عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فمعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخطفت بهم

حسناتهم عن النار . قال : فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم ^(١) ، .
وهناك آثار أخرى تقوى هذا الرأي ذكرها الإمام ابن كثير في
تفسيره ^(٢) ، .

أما الرأي الثاني فيرى أصحابه أن أصحاب الأعراف قوم من أشرف
الخلق وعدوهم كالأنبياء والصديقين والشهداء . وينسب هذا القول إلى مجاهد
وإلى أبي مجلز فقد قال مجاهد : أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء .
وقال أبو مجلز : أصحاب الأعراف هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة
وأهل النار . ومعنى كونهم رجالاً - في قول أبي مجلز أي : في صورتهم .

وقد رجح بعض العلماء الرأي الثاني فقال : وليس أصحاب الأعراف
من تساوت حسناتهم وسيئاتهم كما جاء في بعض الروايات ، لأن ما نسب إليهم
من أقوال لا يتفق مع انحطاط منزلتهم عن أهل الجنة ، انظر قولهم المستكبرين :
« ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » ، فإن هذا الكلام لا يصدر
إلا من أرباب المعرفة الذين اطمأنوا إلى مكائدهم . . . ولذا أرجح أن رجال
الأعراف هم عدول الأمم والشهداء على النسياس ، وفي مقدمتهم الأنبياء
والرسل . . . ^(٣) ، .

والذي نراه : أن هناك حجاباً بين الجنة والنار ، الله أعلم بحقيقته ، وأن
هذا الحجاب لا يمنع وصول الأصوات عن طريق المناداة ، وأن هذا الحجاب
من فوقه رجال يرون أهل الجنة وأهل النار فينادون كل فريق بما يناسبه ،
يحيون أهل الجنة ويقرعون أهل النار ، وأن هؤلاء الرجال - يغلب على
ظننا - أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم . لأن هذا القول هو قول جمهور

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١٦

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها .

(٣) تفسير القرآن الكريم ج ٢ . لفهضيلة الأستاذ الأبرار الشيخ محمد شلتوت .

العلماء من السلف والخلف، ولأن الآثار تؤيده ، ولذا قال ابن كثير ، واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله (١) .

وقوله لم يدخلوها وهم يطمعون ، فيه وجهان : أحدهما أنه في أصحاب الأعراف ، أى أن أصحاب الأعراف عندما راوا أهل الجنة سلموا عليهم حال كونهم في أى أصحاب الأعراف - لم يدخلوها معهم وهم طامعون في دخولها مترقبون له .

وثانيهما : أنه في أصحاب الجنة : أى : أنهم لم يدخلوها بعد ، وهم طامعون في دخولها لما ظهر لهم من يسر الحساب . وكريم اللقاء .

ثم قال - تعالى - : وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . .

أى : وإذا ما اتجهت أبصار أصحاب الأعراف إلى جهة أصحاب النار قالوا مستعيزين بالله من سوء ما رأوا من أحوالهم : يا ربنا لا تجعلنا مع هؤلاء القوم الظالمين ، ولا تجعلنا وإياهم في هذا المسكن المين .

قال صاحب المنار : . وقد أفاد هذا التعبير بالفعل المبني للجهول أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ويلقون إليهم السلام ، وأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار ، فإذا صرفت أبصارهم تلقاءهم من غير قصد ولا رغبة ، بل بصارف بصرفهم إليها قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

ثم قال : والإنصاف أن هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١٦ .

وسبائهم وكانوا موقوفين مجحولا مصيرهم ... (٥) ، ،

ثم بين - سبحانه - ما يقوله أهل الأعراف لروس الكفر في هذا الموقف العصيب فقال : ، ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . ،

أى : ونادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار كانوا أصحاب وجهة وغنى في الدنيا ، فيقولون لهم على سبيل التوبيخ والتقريع ما أغنى عنكم جمعكم وكثرتكم واستكباركم في الأرض. يغبر الحق . فقد صرتم في الآخرة بسبب كفركم وعنادكم إلى هذا الوضع المهن .

وقد كرر - سبحانه - ذكرهم مع قرب العهد بهم ، فلم يقل ونادوا ، لزيادة التقرير ، وكون هذا النداء خاصاً في موضوع خاص فكان مستقلاً .

وقوله : يعرفونهم بسيماهم ، أى : بعلاماتهم الدالة على سوء حالهم يومئذ كسواد الوجوه ، وظهور الدلة على وجوههم . أو يعرفونهم بصورهم التي كانوا يعرفونهم بها في الدنيا .

ثم يبدون توبيخهم وتبكيهم فيقولون لهم : أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، أدخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أقمتم تحزنون . ،

أى : أن أصحاب الأعراف يشيرون إلى أهل الجنة من الفقراء والذين كانوا مستضعفين في الأرض ثم يقولون لروس الكفر الذين كانوا يعذبونهم : أهؤلاء الذين أقسمتم في الدنيا أن الله - تعالى - لا ينالهم برحمة في الآخرة لأنه لم يعطهم في الدنيا مثل ما أعطاهم من مال وبنين وسلطان .

وهنا ينادى مناد من قبل الله - تعالى - على هؤلاء الفقراء فيقول لهم : أدخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أقمتم تحزنون . ،

أبى : أدخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون فى المستقبل ، ولا أتم محزونون على ما خلفتموه فى الدنيا .

وقيل : إن قوله - تعالى - « أدخلوا » من كلام أصحاب الأعراف - أيضاً ، فكأنهم التفتوا إلى أولئك المشار إليهم من أهل الجنة وقالوا لهم : أمكثوا فى الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة .

ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهداً ختامياً من مشاهد يوم القيامة تدور محاوراته بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فتقول :

« وفادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين اتخذوا دينهم لهما ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا ، وما كانوا بآياتنا يجحدون » .

إفاضة الماء : صبه ، ومادة الفيض فيها معنى الكثرة .

والمعنى : أن أهل النار - بعد أن أحاط بهم العذاب المهيمن - أخذوا يستجدون أهل الجنة بذلة وانكسار فيقولون لهم : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله من طعام ، لكي نستعين بهما على ما نحن فيه من سقم ووجع . وهنا يرد عليهم أهل الجنة بما يقطع آمالهم بسبب أعمالهم فيقولون لهم : إن الله منع كلا منهما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهما ولعباً ، أبى الذين اتخذوا دينهم - الذى أمرهم الله باتباع أوامره واجتنبات نواهيه - مادة للسخرية والتأهى ، وصرف الوقت فيم لا يفيد ، فأصبح الدين - فى زعمهم - صورا ورسوما لا تزكى نفساً ، ولا تظهر قلباً ، ولا تهذب خلقاً وهم فوق ذلك قد غرتهم الحياة الدنيا - أبى شغلهم بمتعها ولذائذها وزينتها عن كل ما يقربهم إلى الله ، ويهديهم إلى طريقه القويم .

وقوله - تعالى - « فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا ، معاه فاليوم نفعل بهم فعل النامى بالمنسى من عدم الاعتناء بهم وتركهم فى النار تركاً كلياً

بسبب تركهم الاستعداد لهذا اليوم ، وبسبب جحودهم لإياتنا التي جاءتهم بها أنبيائهم .

فالذين آمنوا في حق الله - تعالى - مستعملين في لازمه ، بمعنى ، أن الله لا يجيب دعاءهم ، ولا يرحم ضعفهم وذللهم ، بل يتركهم في النار كما تركوا الإيمان والعمل الصالح في الدنيا .

وهكذا تسوق لنا السورة الكريمة مشاهد متنوعة لأحوال يوم القيامة ، فتحكي لنا أحوال الكافرين ، كما تصرر لنا ما أعدّه الله للمؤمنين . كما تسوق لنا ما يدور بين الفريقين من محاورات ومناقشات فيها العبر والعظات ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ثم بين - سبحانه - منزلة القرآن الكريم في إثباته للرسالة المحمدية عن طريق الإخبار بأحوال الأمم السابقة وبيان سوء عاقبة من كذب به ، فقال :

« وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ قَبْلَ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) » .

قوله : « وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ ... الخ ،

التفصيل : عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصّولا بعضها عن بعض بحيث لا يبقى فيها اشتباه أوليس .

والمعنى : ولقد جئنا هؤلاء الناس على لسالك يا محمد بكتاب عظيم الشأن ، كامل التبيان ، فصلنا آياته تفصيلا حكيما ، وبيننا فيه ما هم في حاجة إليه من أمور الدنيا والآخرة بيانا شافيا يؤدي إلى سعادتهم متى اتبعوه واهتدوا بهديه .

والضمير لأولئك الكافرين الذين اتخذوا دينهم هواً واعباً ، وقيل هو
لهم والمؤمنين ، والمراد بالكتاب : القرآن الكريم .

وقوله : على علم ، حال من فاعل فصلناه ، أى : فصلناه على أكل
وجه وأحسنه حالة كوننا عالمين بذلك أنهم العلم .

فالمراد بهذه الجملة الكريمة بيان أن ما فى هذا القرآن من أحكام وتفصيل
وهداية ، لم يحصل عبثاً ، وإنما حصل مع العلم التام بكل ما اشتمل عليه من
فوائد متكاثرة ، ومنافع متزايدة .

وقرأ ابن محيص : فصلناه ، بالاضاد الممجمة . أى : فصلناه على سائر
الكتب عالمين بأنه حقيق بذلك .

وقوله : هدى ورحمة ، حال من مفعول فصلناه ، وقرئ : بالجر على البدائية
من : علم ، وبالرفع على إضمار المبتدأ ، أى . هو هدى عظيم ورحمة واسعة .

وقال : . لقوم يؤمنون ، لأنهم هم المنتفعون بهديه ، والمستجيبون
لتوجيهاته ثم بين - سبحانه - عاقبة هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن الذى أنزله
الله هداية ورحمة فقال : . هل ينظرون إلا تأويله ، .

النظر هنا بمعنى الانتظار والتوقع لا بمعنى الرؤية . فالمراد ينظرون
ينظرون ويتوقعون ، وتأويل الشيء : مرجه ومصيره الذى يؤول إليه ذلك
الشيء . والاستفهام بمعنى النفي .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين ليس أمامهم شيء ينتظرونه بعد أن أصروا
على شركهم إلا ما يؤول إليه أمر هذا الكتاب وماتجلى عنه عاقبته ، من تبين
صداقه ، وظهور صحة ما أخبر به من الوعد والوعيد والبعث والحساب ،
وانتصار المؤمنين به واندحار المعرضين عنه .

فإن قيل : كيف ينتظرون ذلك مع كفرهم به ؟

فالجواب : أنهم قبل وقوع ما هو محقق الوقوع ، صاروا كالمنتظرين له ،

لأن كل آت قريب ، فهم على شرف ملاقاته ما وعدوا به ، وسينزل بهم
لا عالة .

ثم بين .. سبحانه - حالهم يوم الحساب فقال : يوم يأتي تأويله يقول
الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا
أو نرد فنجعل غير الذي كننا نعمل ، .

أى : يوم يأتي يوم القيامة الذى أخبر عنه القرآن ، والذى يقف الناس
فيه أمام خالقهم للحساب ، يقول هؤلاء المكافرون الذين جهدوا هذا اليوم
عندما تكشف لهم الحقائق ، قد جاءت رسل ربنا بالحق ، وتبين صدقهم
ولكننا نحن الذين كذبناهم وسرنا فى طريق الضلال ، فهل لنا من شفعاء
فيشفعوا لنا فى هذه الساعة العصيبة ودفعوا عنا مانحن فيه من كرب وبلاء ،
أو نرد إلى الدنيا فنعمل عملاً صالحاً غير الذى كننا نعمله من الجحود واللغو
واللعب .

أى : أنه لا طريق لنا إلى الخلاص مانحن فيه من العذاب الشديد إلا أحد
هذين الأمرين ، وهو أن يشفع لنا شفيع فلأجل تلك الشفاعة يزول هذا العذاب ،
أو يردنا الله إلى الدنيا حتى نعمل غير ما كننا نعمل .

فالجملة الكريمة تصور حسرتهم يوم القيامة تصويراً يهز المشاعر ، ويحمل
العقلاء على الإيمان والعمل الصالح .

والاستفهام فى قوله « فهل لنا من شفعاء .. » للتمنى والتحسر ، ومن
مزية للاستغراق والتأكيد وشفعاء مبتدأ مؤخر وأنا خبر مقدم .

ثم بين - سبحانه - نهايتهم فقال : قد خسروا أنفسهم وضل عنهم
ما كانوا يفترور ، .

أى : قد خسروا هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهوا أنفسهم ، بسبب
إشراكهم بالله ، وذهب عنهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من أن أصنامهم
تشفع لهم يوم الجزاء ، وأيقنوا أنهم كانوا كاذبين فى دعواهم .

ثم ذكر -- سبحانه -- جانباً من يدبغ صنعه ، وجليل قدرته ، امكى بدال
على أنه هو المعبود الحق فقال -- تعالى :

« إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ، وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) » .

أى : إن سيدكم ومالككم الذى يجب عليكم أن تفردوه بالعبادة هو الله
الذى أنشأ السموات والأرض على غير مثال سابق فى مقدار ستة أيام .

قال الشهاب : اليوم فى اللغة مطلق الوقت . فإن أريد هذا فالمعنى فى ستة
أوقات . وإن أريد المتعارف وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها فالمعنى فى
ستة أيام ، لأن اليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسموات فيقدر فيه مضاف (١) .

وقال صاحب فتح البيان : د قيل هذه الأيام من أيام الدنيا ، وقيل من أيام
الآخرة ، قال ابن عباس : يوم مقداره ألف سنة وبه قال الجمهور وقال سعيد
ابن جبير ، د كان الله قادراً على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما فى لحظة
ولحظة ، فخلقهن فى ستة أيام تعلماً لخلقهن لتثبت والتأنى فى الأمور ، (٢) .

وقوله : ثم استوى على العرش ، قال الشيخ القاسمى :
ورد الاستواء على معان اشترك لفظه فيها ، لجاء بمعنى الاستقرار ، ومنه
استوت على الجودى ، وبمعنى القصد ومنه : ثم استوى إلى السماء ومردخان ،
وكل من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوى له وإليه . قال الفراء : تقول العرب
استوى إلى بخاصمى أى : قصد لى وأقبل على . ويأتى بمعنى الاستيلاء :

(١) تفسير القاسمى ج ٧ ص ٢٧٠٠ .

(٢) تفسير فتح البيان للشيخ صديق حسن خان ج ٢ ص ٣٤٢ .

قال الشاعر : « قد استوى بشر على العراق » ويأتى بمعنى العلو ومنه هذه الآية .

قال البخارى فى آخر صحيحه فى كتاب الرد على الجهمية فى باب قوله - تعالى - « وكان عرشه على الماء » ، قال مجاهد : استوى وعلا على العرش .

وقال ابن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقول ، « الرحمن على العرش استوى » ، أى : عز وارففع (١) .

وعرش الله - كما قال الراغب - مما لا يعلمه البشر إلا بالإسم ، وليس كما تذهب إليه أوهام العامة ، فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له - تعالى الله عن ذلك - لا محولا .

وقد ذكر العرش فى إحدى وعشرين آية . وذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .

أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة إلى أنه صفة لله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لاستحالة انصافه - سبحانه - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به ، ليس كمثل شئ وهو السميع البصير ، وأنه يجب الإيمان بها كما وردت وتفويض العلم بحقيقتها إليه - تعالى - .

فمن أم سلمة - رضى الله عنها - فى تفسير قوله - تعالى - « الرحمن على العرش استوى » ، أنها قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والاقرار به من الإيمان ، والوجود به كفر .

وقال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعا على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه .

وقال الإمام الرازي : إن هذا المذهب هو الذي نقول به ونختاره
ونعتمد عليه .

وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرفه - أي الاستواء - عن ظاهره
لاستحالاته ، وأن المراد منه - كما قال الإمام القفال - أنه استقام ملكه ، واطرد
أمره ونفذ حكمه - تعالى - في مخلوقاته ، وأقته - تعالى - دل على ذاته وصفاته
وكيفية تدبيره للعالم على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم واستقر في قلوبهم دلتها
على عظمته وكمال قدرته وذلك مشروط بنفي التشبيه ، وبشهاد بذلك قوله - تعالى -
« ثم استوى على العرش يدبر الأمر » (١) .

وهذا وللعلماء كلام ، كلام طويل حول هذه المسألة التي تتعلق بالمحكم
والمتشابه فليرجع إليها من شاء :

وقوله : « يغشى الليل النهار ، التغشية التغطية والستر ، أي : يجعل الليل
غاشيا للنهار مغطيا له فيذهب بنوره ، ويصير السكون مظلما بعد أن كان مضيا
ويجعل النهار غاشيا لليل فيصير السكون مضيا بعد أن كان مظلما ، وفي ذلك
من منافع الناس ما فيه وبه تتم الحياة ، وهو دليل القدرة والحكمة والتدبير
من الإله العلي العظيم .

ولم يذكر في هذه الآية يغشى الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر
كقوله - تعالى - « صراط مستقيم » ، أو لدلالة الحال عليه ، أو لأن اللفظ
يحتسماهما : يجعل الليل مفعولا أول والنهار مفعولا ثانيا أو بالعكس .

والآية الكريمة من باب أعطيت زيدا عمرا ، لأن كلا من الليل والنهار
يصلح أن يكون غاشيا ومغشيا ، فوجب جعل الليل هو الفاعل المعنوي . والنهار
هو المفعول من غير عكس لتلا يلتبس المعنى .

وقد قال - تعالى - في آية أخرى : يَكُورُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُورُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ ، .

وقوله : يَطْلُبُهُ حَثِيئاً ، أى : يطلب الليل النهار أو كلاهما يطلب الآخر طلباً سريعاً حتى يلحقه ويدركه ، وهو كناية عن أن أحدهما يأتي عقب الآخر ويخلفه بلا فاصل ، فكأنه يطلبه طلباً سريعاً لا يفتّر عنه حتى يلحقه .

والحث على الشيء : الحض عليه . يقال : حث الفرس على العدو يحثه حثاً صاح به أو وكزه برجل أو ضرب . وذهب حثيئاً أى : مسرعاً .

والجملة حال من الليل ، لأنه هو المتحدث عنه أو حال من النهار أى : مطلوب حثيئاً ، أو من كل منهما على الرأى الثانى الذى يفسر : يطلبه حثيئاً ، بأن كليهما يطلب الآخر .

وقوله : : وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مَسْخَرَاتُ بَأَمْرِ ، أى : وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونهن مذلات خاضعات لتصرفه ، منقادات لمشيئته ، كأنهن مميزات أمرن فأنقذن ، فتسمية ذلك أمراً على سبيل التشبيه . قال الألوسى : وبصح حمل الأمر على الإرادة . أى : هذه الأجرام العظيمة والمخلوقات البدية منقادة لإرادته : ومنهم من حمل الأمر على الأمر السكالى وقال : إنه - سبحانه - أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة على الوجه المخصوص إلى حيث شاء ولا مانع أن يعطيها الله إدراكاً وفهماً لذلك (١) .

وقرأ الجمهور بنصب الألفاظ الثلاثة على أنها معطوفة على السموات ، أى : خلق السموات وخلق الشمس والقمر والنجوم . . وينصب : مسخرات ، أيضاً على أنها حال من هذه الثلاثة .

وقرأ أبو عامر بالرفع في جميعها على الابتداء والخبر مسخرات .

وقوله : « ألا له الخلق والأمر » ، ألا : أذاً يفتتح بها القول الذي يهتم بشأنه لأجل تنبيه المخاطب لمضمونه وحمله على تأمله . والخلق : إيجاد الشيء . من العدم . والأمر : التدبير والتصرف على حسب الإرادة لما خلقه . فهو - سبحانه - الخالق والمدير للعالم على حسب إرادته وحكمته لا شريك له في ذلك .

وهذه الجملة الكريمة كالتذييل للكلام السابق أى : أنه - سبحانه - هو الذى خالق الأشياء كلها ويدخل فى ذلك السموات والأرض وغيرهما ، وهو الذى دبر هذا الكون على حسب إرادته ويدخل فى ذلك ما أشار إليه بقوله : « مسخرات بأمره » .

وقوله : « تبارك الله رب العالمين » .

تبارك . فعل ماض لا يتصرف ، أى لم يجر . منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل . من البركة بمعنى الكثرة من كل خير . وأصلها السماء والزيادة . أى : كثر خيره وإحسانه وتعاضمت وتزايدت بركات الله رب العالمين .

أو من البركة بمعنى الثبوت . يقال : برك البعير ، إذا أناخ فى موضعه فلوامه وثبت فيه . وكل شيء ثبت ودام فقد برك . أى : ثبت ودام خيره على خلقه .

أو المعنى : تعالى وتعظم وارتفع وتنزه عن كل نقص الله رب العالمين . ثم أمر الله - تعالى - عباده أن يكثروا من التضرع إليه بالدعاء الخالص فقال :

« اذْهَبُوا رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُتَشَدِّينَ (٥٥) وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) » .

التضرع : تفعل من الضراعة وهى الذلة والاستكانة . يقال : ضرع

فلان ضراعة : أى خشع وذل وخضع . ويقال : تضرع ، أى أظهر الضراعة والخضوع . وتضرعا حال من الضمير فى ادعوا .

الخفية : بضم الخاء وكسر ها - مصدر خفى كرض بمعنى اختفى أى : استتر وتوارى ولم يجهر بدعائه .

والمعنى : سلوا ربكم - أيها الناس - حوائجكم بتذلل واستكانة وإسرار وإستتار فإنه - سبحانه - يسمع الدعاء ، ويحبب المضطر ، ويكشف السوء . وهو القادر على إيصالها إليكم ، وغيره عن ذلك عاجز .

ولنما أمر الله عباده بالإكثار من الدعاء فى ضراعة وإسرار ، لأن الدعاء ماهر إلا اتجاء إلى الله بقلب سليم ، واستعانة به بإخلاص ويقين ، لى يدفع المكروه ، ويمنح الخير ، ويعين على نواب الدهر ، ولا شك أن الإنسان فى هذه الحالة يكون فى أسمى درجات الصفاء الروحى ، والنقاء النفسى ، ويكون كذلك مؤدياً لأشرف ألوان العبادة والخضوع لله الواحد القهار ، معترفاً لنفسه بالعجز والنقص . ولربه بالقدرة والكمال (١) .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن من آداب الدعاء الخضوع والإسرار واستدلوا على ذلك بأحاديث وآثار متعددة منها ما جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكننا إذا أشرفنا على واد هملنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا . فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم - أى أرفقوا بها وأقصروا من

(١) راجع كتابنا الدعاء ، معناه ، فضله ، آدابه . شروطه ، فوائده . . . من سلسلة مجمع البحوث الإسلامية الكتاب السادس والعشرون .

الصياح -- فإنكم لاتدعون أصم ولا غائبا . إنه معكم . إنه سميع قريب .
تبارك اسمه وتعالى جده ، (١) .

وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : إن كان
الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ، لقد فقه الفقه
الكثير وما يشعر به الناس . وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته
وعنده الزور -- أي انزوار - وما يشعرون به . ولقد أدركنا أقواما ما كان
على الأرض عمل يقدر أن يعلموه في السر فيكون علانية أبدا . ولقد كان
المسلمون يمجّدون في الدعا وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همسا بينهم
وبين ربهم . وذلك أن الله - تعالى - يقول : ادعوا ربكم تضرعا وخفية ،
وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا ، ضى فعله وهو ذكره ، فقال : ذكر رحمة
ربك عبده ذكر يا . إذ نادى ربه فدام خفيا ، (٢) .

وقال ابن المنير : وحسبك في تعين الإصرار في الدعاء اقترانه بالتضرع
في الآية ، فالإخلال به كالأخلال بالضراعة إلى الله بالدعاء . وإن دعاء
لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى . فكذلك دعاء لا خفية فيه ولا
وقار يصحبه . وترى كثيرا من أهل زمانك يعمدون على الصراخ والصياح
في الدعاء خصوصا في الجوامع حتى يعظم اللفظ ويشدد ، وتستك المسماع
وتستد ، ويهتز الداعي بالناس . ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين : رفع الصوت
في الدعاء وفي المسجد . وربما حصلت للعوام حينئذ رقة لا تحصل مع خفض
الصوت ، ورعاية سمع الوقار ، وسلوك السنة الثابتة بالآثار . وما هي إلا
رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال ليست خارجة عن صميم الفؤاد ،
لأنها لو كانت من أصل لكانت عند اتباع السنة في الدعاء . وفي خفض

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في كتاب الجهاد . باب ما يشكره من
رفع الصوت : وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء . ،

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٠ .

الصوت به أوفر وأوفى وأزكى فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثيرة من الخلق. اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، (١).

وقوله : «لأنه لا يجب للمعتدين، الاعتداء تجاوز الحد أى : لا يجب للمتجاوزين حدودهم فى كل شىء. ويدخل فيه الاعتداء فى الدعاء دخولا أوليا . ومن مظاهر الاعتداء فى الدعاء أن يترك هذين الأمرين وهما التضرع والاختفاء . كذلك من مظاهر الاعتداء فى الدعاء أن يتكلف فيه .

روى أبو داود فى سننه أن سعد أبى وقاص سمع ابنه يذعر ويقول : اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونجوا من هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها . فقال له يابنى : إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : «لأنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء ثم قرأ سعد هذه الآية ، ادعوا ربكم تضرعا وخفية ..» ، وإن بحسبك أن تقول : اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ، (٢).

ثم نهى الله عباده عن كل لون من ألوان المعاصى فقال : « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، أى : لا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاح الله إياها ، بأن خلقها على أحسن نظام ، فالجملة الكريمة نهى عن سائر أنواع الفساد كإفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان .

روى أبو الشيخ عن أبى بكر بن عياش أنه سئل عن قوله - تعالى - « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » ، فقال : أن الله بعث محمداً - صلى الله

(١) الانتصاف على الكشاف لابن المفيرج ج ٢ ص ١١٠ من تفسير الكشاف :

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الوتر باب الدعاء حديث رقم ١٤٨٠ طبعة

محمد فؤاد عبد الباقي .

عليه وسلم - إلى أهل الأرض وهم في فساد فأصلحهم الله به ، فن دعا إلى خلاف
ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - فهو من المفسدين في الأرض ، .

قال صاحب المنار : وقال - سبحانه - « ولا تفسدوا في الأرض بعد
إصلاحها ، لأن الإفساد بعد الإصلاح أشد قبحاً من الإفساد على الإفساد ، فإن
وجود الإصلاح أكبر حجة على المفسد إذا هو لم يحفظه ويجري على سننه .
فكيف إذا هو أفسده وأخرجه عن وضعه ؟ ولذا خص بالذكر وإلا فالإفساد
مذموم ومنهى عنه في كل حال ... » (١)

وقوله : « وادعوه خوفاً وطمعاً » .

أصل الخوف : انزعاج في الباطن يحصل من توقع أمر مكروه يقع
في المستقبل .

والطمع : توقع أمر محبوب يحصل في المستقبل .

والمعنى : وادعوه خائفين من عقابه لإياكم على مخالفتكم لأوامره ، طامعين
في رحمته وإحسانه وفي إجابته لدعائكم تفضلاً منه وكرماً .

قال الجمل : فإن قلت : قال في أول الآية « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية »
وقال هنا : « وادعوه خوفاً وطمعاً » وهذا عطف للشيء على نفسه فما فائدة
ذلك ؟ قلت : الفائدة أن المراد بقوله - تعالى - « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية »
بيان شرطين من شروط الدعاء ، وبقوله « وادعوه خوفاً وطمعاً » بيان
شرطين آخرين ، والمعنى : كونوا جامعين في أنفسكم بين الخوف والرجاء
في أعماركم ولا تطمعوا أنكم وفيمن حق الله في العبادة والدعاء وإن اجتهدتم
ثم فيهما ، (٢) .

وقوله « إن رحمة الله قريب من المحسنين » أي إن رحمته - تعالى -

(١) تفسير المنار ج ٨ ص ٤٦١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٥١ .

وإنعامه على عباده قريب من المتقنين لأعمالهم ، المخلصين فيها ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فمن أحسن عبادته نال عليها الثواب الجزيل ، ومن أحسن في أمور دنياه كان أهلاً للنجاح في مسعاه ، ومن أحسن في دعائه كان جديراً بالقبول والاجابة .

قال الشيخ القاسمي : وفي الآية الكريمة ترجيح للطمع على الخوف ، لأن المؤمن بين الرجاء والخوف ، ولكنه إذا رأى سعة رحمته - سبحانه - وسبقها ، غلب الرجاء عليه . وفيها تذكير على ما يتوصل به إلى الاجابة وهو الاحسان في القول والعمل .

قال مطر الوراق : استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين ، (١) .

هذا ، وكلمة " قريب " وقعت خبراً للرحمة ، ومن قواعد النحو أن يكون الخبر مطابقاً للمبتدأ في التذكير والتأنيث ، فكان مقتضى هذه القواعد أن يقال إن رحمة الله قريبة . وقد ذكر العلماء في تعليل ذلك بضعة عشر وجهاً ، منها أن تذكير " قريب " صفة لمحذوف أي أمر قريب ، أو لأن كلمة الرحمة مؤنثة تأنيثاً مجازياً ، فجاز في خبرها التذكير والتأنيث أو لأن الرحمة هنا بمعنى الثواب وهو مذكور فيكون تذكير قريب باعتبار ذلك وقيل غير ذلك مما لا مجال لذكره هنا .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه هو الخالق للسموات والأرض ، وأنه هو المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأن رحمته قريبه من المحسنين الذين يكثرون من التضرع لإيائه بخشوع وإخلاص .

بعد كل ذلك تحدث - سبحانه - عن بعض مظاهر رحمته التي تتجلى في إرسال الرياح ، وإنزال المطر ، وعن بعض مظاهر قدرته التي تتجلى في بعث

الموتى للحساب ، وفي هداية من يريد ددايته وإضلال من يريد ضلالاته فقال
- تعالى - :

« وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحُ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّى إِذَا
أَقْلَمْتَ سَحَابًا ثِقَالًا سَفَّاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ
مِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ ، كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ
إِلَّا نَكِيدًا ، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) » .

وقوله - تعالى - : « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته » ،
معطوف على ما سبق من قوله - تعالى - : « إن ربكم الله الذى خلق السموات
والأرض ... » ، لبيان مظاهر قدرته ورحمته . وقرأ حمزة والكسائي والريح
بالافراد :

و« بشرا » - بضم فسكون الشين - مخفف و« بشرا » - بضممتين - جمع
بشير كمنذر وذنير ، أى : مبشرات ينزل الغيث المستتبع لمنفعة الخلق .
وقرأ أهل المدينة والبصرة « بشرا » - بضم الفون والشين - جمع نشور
- كصبور وصبر - بمعنى ناشر من النشور ضد الطي ، وفعلول بمعنى فاعل
بطرده جمعه .

وهناك قراءات أخرى غير ذلك .

والمعنى وهو - سبحانه - الذى يرسل الرياح مبشرات عباده بقرب نزول
الغيث الذى به حياة الناس .

وقوله « بين يدي رحمته » أى بين يدي المطر الذى هو من أبرز مظاهر
رحمة الله بعباده .

قال تعالى : « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو

الولى الحميد .

وقال تعالى : « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات » .

قال الامام الرازي : وقوله « بين يدي رحمته » من « حسن أنواع المجاز » والسبب في ذلك أن اليمين يستعملها العرب في معنى التقديم على سبيل المجاز . يقال : إن الفتن تحصل بين يدي الساعة يريدون قبيلها ، كذلك ما حسن هذا المجاز أن يدي الانسان متقدمة ، فكل ما كان يتقدم شيئا يطلق عليه لفظ اليمين على سبيل المجاز لأجل هذه المشابهة ، فلما كانت الرياح تتقدم المطر ، لاجرم عبر عنه بهذا اللفظ ، (١) .

وقوله : « حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميث » حتى : غاية لقوله « يرسل » . وأقلت : أي حملت . وحقيقة أقله رجده قليلا ثم استعمل بمعنى حمله . لأن الحامل لشيء يستقل ما يحمله بزعم أن ما يحمله قليل .

ود سحابا ، أي : غيا ، سمي بذلك لانسحابه في الهواء ، وهو اسم جنس جمع يفرق بينه وبين واحدة بالتاء كتمر وتمرة ، وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه ويجمع .

ود ثقالا ، جمع ثقيلة من الثقل - كغيب - ضد الخفة . يقال : ثقل الشيء - كسكرم - ثقالا وثقالا فهو ثقيل وهي ثقيلة .

والمعنى : أن الله - تعالى - هو الذي يرسل الرياح مبشرات ينزل الغيث ، حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا من كثرة ما فيها من الماء ، سقناه - أي السحاب - إلى « بلد ميث » أي إلى أرض لا نبات فيها ولا مرعى ، فاهترزت وربت وأخرجت النبات والمرعى . فأطلق - سبحانه - الموت على الأرض

(١) تفسير لفخر الرازي ج ٤ ص ٢٤٢ طبعة المطبعة الشرقية سنة

التي لافبات فيها ، وأطلق الحياة على الأرض الزاخرة بالنبات والمرعى لأن حياتها بذلك .

قال - تعالى - : والله الذي يؤمل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميث ، فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور .

وقوله : : فأنزلنا به الماء ، أى : فأنزلنا في هذا البلد الميت الماء الذى تحمله السحاب . فالباء في د به ، للظرفية .

وقيل إن الضمير في د به ، للسحاب ، أى : فأنزلنا بالسحاب الماء وعليه فتكون الياء للسببية .

وقوله : : فأخرجنا به من كل الثمرات ، أى : فأخرجنا بهذا الماء من كل أنواع الثمرات المعتادة في كل بلد ، تخرج به على الوجه الذى أجرى الله العادة بها ودبرها .

فليس المراد أن كل بلد ميت تخرج منه جميع أنواع الثمار التى خلقها الله ، متى نزل به الماء ، وإنما المراد أن كل بلد تخرج منه الثمار التى تناسب تربته على حسب مشيئة الله وفضله وإحسانه ، إذ من المشاهد أن البلاد تختلف أرضها فيما تخرجه ، وهذا أدل على قدرة الله ، وواسع رحمته .

وقوله : : كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ، إشارة إلى إخراج الثمرات ، أو إلى إحياء البلد الميت .

أى : مثل ما أحيينا الأرض بعد موتها وجعلناها زاخرة بأنواع الثمرات بسبب نزول الماء عليها ، فنخرج الموتى من الأرض ونبعثهم أحياء في اليوم الآخر لنحاسبهم على أعمالهم ، فالتشبيه في مطلق الإخراج من العدم . وهذا رد على منكرى البعث بدليل ملزم ، لأن من قدر على إخراج النبات من الأرض بعد نزول الماء عليها ، قادر - أيضا - على إخراج الموتى من قبورهم .

وقوله : : لعلكم تذكرون ، تذييل قصد به الحث على التدبر والتفكير ، أى : لعلكم تذكرون وتعتبرون بما وصفنا لكم فيزول إنكاركم للبعث والحساب .

قال الشيخ القاسمي : من أحكام الآية كما قال الجشمي : أنها تدل على عظم نعمة الله علينا بالمطر ، وتدل على الحجاج في إحياء الموتى بإحياء الأرض بالنبات ، وتدل على أنه أراد من الجميع التذكر ، وتدل على أنه أجرى العادة بإخراج النبات بالماء . وإلا فهو قادر على إخراج ما من غير ماء فأجرى العادة على وجوه دبرها عليها على ما شاهدته ، لضرب من المصلحة ديننا ودنيا . (١)

ثم ضرب - سبحانه - مثلاً لاختلاف استعداد البشر للخير والشر فقال :

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ، .
أصل النكد : العسر القليل الذي لا يخرج إلا بعناء ومشقة . يقال : إنك
عيشه ينكد ، اشتد وعسر . ونكدت البر : قل ماؤها ، ومنه : رجل نكد ،
ونكد وإنك : شؤم عسر . وهم أنكد رمنا كيد .

وقال في اللسان : والنكد : قلة العطاء ، قال الشاعر :

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن أعطيت ، أعطيت نافها نكدا
أي : عطاء قليلا لا جدوى منه .

والمعنى : أن الأرض الكريمة التربة يخرج نباتها وأفيها حسنا غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره ، والذي خبث من الأرض كالسبخة منها لا يخرج نباته إلا قليلا عديم الفائدة .

فالأول مثل ضربه الله للمؤمن يقول : هو طيب وعمله طيب . والثاني مثل للكافر ، يقول : هو خبيث وعمله خبيث ، وفيهما بيان أن القرآن يثمر في القلوب التي تشبه الأرض الطيبة التربة ، ولا يثمر في القلوب التي تشبه الأرض الرديئة السبخة .

ونكدا منصوب على أنه حال أو على أنه نعت لمصدر محذوف والتقدير:
والذي خبث لا يخرج إلا خروجا فكدا .

قال صاحب الكشف : ، وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتذكير من
المكلفين ، ولأن لا يؤثر فيه شيء من ذلك . وعن مجاهد : آدم وذريته منهم
خيث وطيب . وعن قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به ،
كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبثت . والكافر بخلاف ذلك . وهذا تتمثيل
واقع على أثر ذكر المطر . وإنزله بالبلد الميت ، وإخراج الثمرات به على
طريق الاستطراد ، (١) .

وقريب من معنى الآية الكريمة ما رواه الشيخان عن أبي موسى قال : قال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل
الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها نقيية قبلت الماء فأنبثت الكلأ والعشب
الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا
وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت
كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعمل وعلم . ومثل من
لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ، (٢) .

وقوله : . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ، أصل التصريف : تبديل
حال بحال ومنه تصريف الرياح . والآيات : الدلائل الدالة على قدرة الله .
أى : مثل ذلك التصريف البديع والتنويع الحكيم نصرف الآيات الدالة
على علمنا وحكمتنا ورحمتنا بالإتيان بها على أنواع جليلة واضحه لقوم يشكرون
نعمنا ، باستعمالها فيما خلقت له ، فيستحقون مزيدا منها وإنابتنا عليها .

وعبر هنا بالشكر لأن هذه الآية موضوعها للاهتمام بالعلم والعمل والإرشاد ،

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ١٢٢ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل .

بينما عبر في الآية السابقة عليها بالتذكير لأدب ، وضوعها يتعلق بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله - تعالى - في إحياء الموتى .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا - من بين ما حدثتنا - عن عظمة القرآن الكريم وعن وجوب اتباعه ، وعن قصة آدم وما فيها من عبر وعظات ، وعما أحله الله وحرمه ، وعما يدور بين أهل النار من مجادلات واتهامات ، وعن العقوبة الطيبة التي أعدها الله للصالحين من عباده ، وعن المحاورات التي تدور بينهم وبين أهل النار ، ثم عن مظاهر قدرة الله ، وأدلة وحدانيته ...

وبعد كل ذلك تبدأ السورة جولة جديدة مع الأمم الخالية ، والقرى المهلكة التي جاء ذكرها في مطلعها .

« وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » .

فتحدثنا السورة الكريمة عن مصارع قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، ثم حديثا مستفيضاً عن قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل .

وقد تكلم الإمام الرازي عن فوائد بحى - قصص هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم في هذه السورة بعد أن تحدثت عن أدلة توحيده وربوبيته - سبحانه - فقال : اعلم أنه - تعالى - لما ذكر في تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة ، وبينات قاهرة ، وبراهين باهرة اتبعها بذكر قصص الأنبياء وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن لعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيانات ليس من خواص قوم النبي - صلى الله عليه وسلم - بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت ، فكان ذكر قصصهم ، وحكاية إصرارهم وعنادهم ، يفيد تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - وتخفيف ذلك على قلبه .

ثانيها : أنه - تعالى - يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن في الدنيا ، والخسارة في الآخرة ، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويسكر قلوب المبطلين .

وثالثها : التنبيه على أنه - تعالى - وإن كان يميل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان أمياً . وما طالع كتاباً ولا تلمذ على أستاذ . فإذا ذكر هذه القصص على هذا الوجه من غير تحريف ولا خطأ دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله - تعالى - ، (١) .

والآن فلنستمع بتدبر واعتبار إلى السورة الكريمة وهي تحدثنا عن قصة نوح مع قومه فتقول :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَبَلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي فَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْعَجَّيْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) » .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢ ص ٢٤٥ طبعة المطبعة الشريفة سنة ١٣٢٤ هـ

تلك هي قصة نوح مع قومه كما وردت في هذه السورة ، وقد وردت بصورة أكثر تفصيلاً في سورة هود ، والمؤمنون ، وفوح وغيرها .
وقوله : « لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه » ، جواب قسم محذوف ، أي : والله لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه والدليل على هذا القسم وجود لامة في بدء الجملة .
قال الآلوسی : « واطرد استعمال هذه اللام مع قد في الماضي — على ما قال الزمخشري — وقل الاكتفاء بها وحدها . والسر في ذلك أن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها التي هي جوابها ، فكانت مظنة لتوقع المخاطب حصول المقسم عليه ، لأن القسم دل على الاهتمام فناسب ذلك إدخال قد ، (١) .

وينتهي نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر نوح في القرآن في ثلاث وأربعين موضعاً .
وقوم الرجل أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد . وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازاً للمجاورة .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم نوحاً لينذره على طريق الرشاد .

قال ابن كثير : قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين مانوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيقشعوا بهم ، فلما ضال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور ، فلما تبادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودأ وصواعاً وبنوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله - تعالى - رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، (٢) .

(١) تفسير الآلوسی ج ٨ ص ١٤٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٣٢ .

وقوله ، فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، حكاية لما وجهه
روح لقومه من إرشادات ، أي : قال لهم بتلطف وأدب تلك الكلمة التي
وجهها كل رسول لمن أرسل إليهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، فإنه هو
المستحق للعبادة ، أما سواه فلا يملك لنفسه نفعا أو ضرا .

وكلمة « غيره » قرئت بالحرركات الثلاث ، بالرفع على أنها صفة لإله باعتبار
عمله الذي هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية . وقرأ المكسائي بالجر باعتبار
اللفظ ، وقرئ بالنصب على الاستثناء بمعنى ، ما لكم من إله إلا إياه .

ثم حكى القرآن أن نوحا قد حذر قومه من سوء عاقبة التكذيب ، وأظهر
لهم شفقتهم وخوفه عليهم فقال : « إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ،
أي : إني أخاف عليكم إذا ما سرتم في طريق الكفر والضلال وتركتم عبادة
الله وحده عذاب يوم عظيم . ووصف اليوم بالعظيم لبيان عظم ما يقع فيه
ولتكميل الإنذار .

قال صاحب الكشف : فإن قلت ما موقع الجملتين بعد قوله « اعبدوا الله » ،
قلت : الأولى - وهي ما لكم من إله غيره - بيان لوجه اختصاصه بالعبادة ،
والثانية وهي - إني أخاف ... الخ - بيان الداعى إلى عبادته لأنه هو
المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دون الله . واليوم العظيم : يوم القيامة ،
أو يوم نزول العذاب بهم وهو الطوفان ، (١) ،

بهذا الأسلوب اقنع المذهب دعا نوح قومه إلى وحدانية الله . فكيف كان
ردم عليه ؟

لقد ردوا عليه ردا سليما حكى القرآن في قوله : « قال الملأ من قومه إنا
نراك في ضلال مبين » .

الملأ : الأشراف والسادة من القوم . سموا بذلك لأنهم يملأون العيون

مهاية . وقيل : هم الرجال ليس فيهم نساء . والملا : أمم جمع لا واحد له من لفظه : كرهط .

والجمله الكريمة مستأنفة ، كأنه قيل فإذا قالوا له ؟ فقيل : قال الملا . . . الخ والرؤية هنا قلبية ومفعولاهما الضمير والظرف ، وقيل : بصرية فيكون الظرف في موضع الحال . أم : قال الأشراف من قوم نوح له عندما دعاهم إلى وحدانية الله : إنا نراك بأسرك لنا بعبادة الله وحده وترك آلهتنا في انحراف بين عن طريق الحق والرشاد .

يقال : ضل الطريق يضل وضل عنه ضللا وضلالة ، أى زل عنه فلم يهتد إليه ، وجعلوا الضلال ظرفا له ، فى ضلال مبين ، مبالغة فى وصفهم له بذلك وزادوا فى المبالغة بأن أكدوا ذلك بالجمله المصدرية بأن ولام التأكيد .

ورحم الله ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية . وهكذا حال الفجار ، إنما يرون الأبرار فى ضلالة ، كقوله - تعالى - « وإذ أروهم قالوا لمن هؤلاء لضالون (١) » .

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إلفك قديم (٢) » ، إلى غير ذلك من الآيات (٣) .

ويرد نوح على قومه بأسلوب عف مذهب ، فينتفى عن نفسه الضلالة ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومصدرها فيقول - كما حكى القرآن عنه - : « قال يا قوم ليس بى ضلالة ، أى : قال نوح لقومه مستميلا لقلوبهم : يا قوم ليس بى أدنى شيء مما يسمى بالضلال فضلا عن الضلال المبين الذى يريتموني به ، فقد نفى الضلال عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه ، لأن التناء

(١) سورة المطففين الآية ٢٢ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ١١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٢ .

فى - ضلالة - للمرة الواحدة منه ، ونفى الأدنى أبلغ من نفي الأعلى ، والمقام يقتضى ذلك ، لأنهم لما بالغوا فى رميه بالضلال المبين ، رد عليهم بما يبرهنه من أى لون من ألوانه . وفى تقديم الظرف (بى) تعريض بأنهم هم فى ضلال واضح .

ثم قفى على نفي الضلالة عنه بإثبات مقابلها لنفسه وهى الهداية والتبليغ عن الله - تعالى - فقال : (ولكنى رسول من رب العالمين . أبغلكم رسالات ربى ، وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) .

فأنت ترى أن نوحاً - عليه السلام - بعد أن نفى عن نفسه أى لون من ألوان الضلالة وصف نفسه بأربع صفات كريمة :

أولها : قوله : (ولكنى رسول من رب العالمين) أى : لست بمنجاة من الضلال الذى أنتم فيه فحسب ، ولكنى فضلاً عن ذلك رسول من رب العالمين إليكم لهدايتكم وإنقاذكم مما أنتم فيه من شرك وكفر .

قال الجمل : (وقد جاءت لكن هنا أحسن مجى . لأنها بين تقيضين ، لأن الإنسان لا يخلو عن أحد شيئين : ضلال أو هدى ، والرسالة لا تنجامع الضلال و (من رب العالمين) صفة لرسول ومن لا ابتداء الغاية (١) .

وثانيها : قوله : أبغلكم رسالات ربى (أى : أبغضكم ما أوحاه الله إلى من الأوامر والنواهى ، والمواعظ والزواجر ، والبشائر والنذائر ، والعبادات والمعاملات ،

قال الألومى : وجمع الرسالات مع أن رسالة كل نبي واحدة ، رطابة لاختلاف أوقاتها أو تنوع معانى ما أرسل - عليه السلام - به من العبادات والمعاملات - ، أو أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس

- عليه السلام - (١) والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير رسالته وتقرير أحكامها .

وثالثها : قوله : (وأنصح لكم) أى : أبلغكم جميع تكاليف الله وأمرى مافيه صلاحكم وخيركم فأرشدكم إليه وأخذكم نحوه .

وأنصح : مأخوذ من النصيح - وهو كما قال القرطبي - لإخلاص النية من شوائب الفساد ، يقال : نصحت له نصيحة ونصاحة - أى أرشدته إلى مافيه صلاحه - ويقال : رجل فاضح الجيب ، أى : نقي القلب . والناصح الخالص من العسل وغيره ، مثل الناصع . وكل شيء خلص فقد نصح (٢) .

والفرق بين تبليغ الرسالة وبين النصيح ، هو أن تبليغ الرسالة معناه أن يعرفهم جميع أوامر الله ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى كلفهم الله بها ، وأما النصيح فمعناه أن يرغبهم فى قبول تلك الأوامر والنواهي والعبادات ويحذروا من عذاب الله إن عصوه .

وأما الصفة الرابعة فهى قوله (وأعلم من الله ما لا تعلمون) أى : أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم عن إخلاص ، وأعلم فى الوقت نفسه من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا عن طريق الوحي أشياء لا علم لكم بها ، لأن الله قد خصنى بها .

أو المعنى : وأعلم من قدرة الله الباهرة ، وشدة بطشه على أعدائه ، ما لا تعلمونه فانا أحذركم عن علم ، وأذكركم عن بينة (فاتقوا الله وأطيعون) .

قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً نصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركه أحد من خلق الله فى هذه الصفات كما جاء فى صحيح مسلم أن

(١) تفسير الآلوسى ٨ ص ١٥٢

(٢) تفسير القرطبي ٧ ص ٢٢٤

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفى ما كانوا وأكثر جمعاً : أيها الناس ، إنكم مسئولون عني ، فما أقيم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ، ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد^(١) .

وبعد أن وصف نوح نفسه بتلك الصفات الأربع ، وبين لهم وظيفته أكمل بيان أخذ ينمرك عليهم استبعادهم أن يخصه الله بالنبوة فقال :

(أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحون) الحمزة في أول الجملة للاستفهام الإنكاري ، والواو بعدها للعطف على محذوف مقدر بعد الحمزة .

والمعنى : أكنذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر أي موعظة من ربكم وخالقكم على لسان رجل من جنسكم ، تموفون مولده ونشأته .

ولقد حكى القرآن عن قوم فوح أنهم عجبوا من أن يختار الله رسولا منهم ، قال - تعالى - :

(فقال الملأ الذين استكبروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لآنزل ملائكة ماسمينا بهذا في آياتنا الأولى)^(٢) .

وقوله (اينذركم) علة للمعجى . أي : وليحذركم العذاب والعقاب على الكفر والمعاصي .

وقوله (ولتتقوا) علة ثانية مرتبة على العلة التي قبلها ، أي : ولتوجد منكم التقوى ، وهي الخشية من الله بسبب الإنذار .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٢

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٢٤

وقوله : ولعلكم ترحمون ، علة ثالثة مترتبة على التي قبلها . أى : ولترحموا بسبب التقوى إن وجدت منكم .

قال بعض العلماء : وهذا : الترتيب فى غاية الحسن ، لأن المقصود من الإرسال الإنذار ، ومن الإنذار التقوى . ومن التقوى الفوز بالرحمة .

وفائدة حرف الترجى : ولعلكم ، التنبية على عزة المطلب ، وأن التقوى غير موجبة للرحمة ، بل هى منوطة بفضل الله ، وأن المتقى يذنبى ألا يعتمد على تقواه ولا يأمن عذاب الله ، (١) .

والى هنا نكون قد عرفنا أسلوب نوح فى دعوته كما جاء فى هذه السورة الكريمة ، فإذا كان موقف قومه ؟

لقد صرحت السورة الكريمة بأن موقفهم كان قبيحا ، ولذا عوقبوا بما يناسب جرمهم قال - تعالى - : فكذبوه ، أى : فكذب قوم نوح نبيهم ومرشدهم نوحا ، وأصروا على التكذيب مع أنه دعاهم إلى الهدى ليلا ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ومع أنه مكث فيهم ، ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فكانت نتيجة ذلك - كما حكى القرآن :

« فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، أى : فأنجيناهم من الغرق هو والذين آمنوا معه بأن حملناهم فى السفينة التى صنعها ، والفاء فى « فأنجيناه » للسببية .

قليل كان عدد الذين آمنوا معه أربعين رجلاً وأربعين امرأة . وقيل غير ذلك ، والقرآن قد صرح بأن المؤمنين به كانوا قلة ، فقال : « وما آمن معه إلا قليل » .

« وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ، عمين : جمع عم صفة مشبهة ، يقال : هو عم - كفرح - لأعمى البصيرة .

أى : وأغرقنا بالطوفان أولئك الذين كذبوا بآياتنا من قوم نوح لأنهم كافوا قوماً عصى البصائر عن الحق والإيمان . لا ننتفع فيهم المواعظ ولم يجد معهم التذكير .

وهذه سنة الله في خلقه أن جعل حسن العاقبة للمؤمنين ، وسوء العذاب للجاحدين .

ثم نحكى لنا السورة بعد ذلك قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، فية - قول :

« وَإِلَى عادِ أَخَاهُ هُودًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ، إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ، وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، فَاتَّظَرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) . »

تلك هي قصة هود - عليه السلام - مع قومه كما حكها سورة الأعراف .
وقد وردت - أيضاً - في سور أخرى ، منها : سورة هود ، والشعراء ،
والاحقاف ... الخ .

وينتهي نسب هود إلى نوح - عليهما السلام - كما قال بعض المؤرخين -
فهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن بن عاد بن عوص بن إرم بن سام
ابن نوح^(١) .

وقومه هم قبيلة عاد - نسبة إلى أبيهم الذي كان يسمى بهذا الاسم -
وكانت مساكنهم بالاحقاف باليمن - والاحقاف جمع حقف وهو الرمل
الكثير المائل .

وكانوا يعبدون الأصنام من دون الله ، فأرسل الله إليهم هوداً لهدايتهم .
ويقال بأن هوداً - عليه السلام - قد أرسله الله إلى عاد الأولى ، أما عاد الثانية
فهم قوم صالح ، وبينهما مائة سنة .

وقوله : وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره ، الخ معطوف على قوله - تعالى - : لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، والمعنى :
وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هوداً فقال لهم ما قاله كل نبي لقومه : يا قوم
اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

ووصفه بأنه أخاهم لأنه من قبيلتهم نسباً ، أو لأنه أخوهم في الإنسانية .
ثم حكى القرآن أن هوداً أنكر على قومه عبادتهم لغير الله ، وحضهم على
إفراده بالعبادة فقال : أفلأنتقون ، أي : أفلأنتقون عذاب الله فتبتعدوا
عن طريق الشرك والضلال لتنجوا من عقابه .

قال أبو حيان : وفي قوله : أفلأنتقون ، استعطاف وتخصيص على تحصيل

(١) قصص الأنبياء ص ٥٠ للشيخ عبد الوهاب النجار .

التقوى . ولما كان ماحل بقوم نوح من أمر الطوفان واقعة لم يظهر في العالم مثلاً قال لهم : « إن أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، وواقعة هود كانت مسبوقة بواقعة نوح وعهد الناس قريب بها فاكثفي هود بقوله لهم ، أفلا تتقون ، . والمعنى تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله وعبدوا غيره حل بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خبره في الدنيا ، فقوله ، أفلا تتقون ، إشارة إلى التخويف بتملك الواقعة المشهورة (١) ، .

و كما عا عظم على هؤلاء الطغاة أن يستنكر عليهم هود - عليه السلام - عبادتهم لغير الله ، فرددوا عليه رداً قبيحاً حكاه القرآن في قوله :

« قال الملأ الذين كفروا من قومه ، إنا لنراك في سفاهة ، أى : قال الأغنياء الذين كفروا من قوم هود له : إنا لنراك متمكناً في خفة العقل ، راسخاً فيها ، حيث هجرت دين قومك إلى دين آخر . وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز ، فقد أرادوا أنه متمكن فيها ، غير منك عنها .

وأصل السفه : الخفة والركة والتحرك والاضطراب . يقال : ثوب سفيف إذا كان رديء النسيج خفيفة ، أو كان بالبارقيفاً : تسففت الريح الشجر : مالت به . وزمام سفيف : كثير الاضطراب لمنازعة الناقة لإياه . وشاع السفه في خفة العقل وضعف الرأى .

ولم يكتفوا بوصفه بالسفه بل أضافوا إلى ذلك قولهم : « ولما انظنك من الكاذبين ، أى : ولما انظنك من المكاذبين في دعوى التبليغ عن الله تعالى .

وأكدوا ظنهم الاتم كما أكدوا اتهامهم له بالسفه مبالغته منهم في الإساءة إليه . ويرجح بعض العلماء أن الظن هنا على حقيقة ، لأنهم لو قالوا ولما انظنك أنك من الكاذبين ، لكانوا كاذبين على أنفسهم في ذلك ، لأنهم يعلمون منه الصدق وحسن السيرة .

ومن بلاغة القرآن وإضافه في أحكامه أنه قيّد القائلين لهود هذا القول الباطل بأنهم ، الملائ الذين كفروا من قومه ، ليخرج منهم الملائ - أى الأشراف الذين آمنوا من قومه .

وبعد هذا الرد القبيح منهم ، أخذ هود يدافع عن نفسه ويبين لهم وظيفته بأسلوب حكيم فقال :

« يا قوم ليس بي سفاهة ، أى : ليس بي أى نوع من أنواع السفاهة كما تزعمون ، ولكنى رسول من رب العالمين : أبلغكم رسالات ربي وأما لكم ناصح أمين ، .

فأنت ترى أن هودا في هذا الرد الحكيم على قومه ، قد نفى عن نفسه تهمة السفاهة كما نفى أخوه نوح من قبله عن نفسه تهمة الضلالة ، ثم بين لهم بعد ذلك وظيفته وطبيعة رسالته ، ثم أخبرهم بعد ذلك بأنه بمقتضى أخوته لهم ليس معقولا أن يكذب عليهم أو يخدعهم - فإن الرائد لا يكذب أهله - ، وإنما هو ناصح أمين يهديهم إلى ما يصلحهم ويبعدهم عما يسوؤهم :

قال صاحب الكشف : وفي إجابة الأنبياء - عليهم السلام - على من نسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابواهم به من الكلام الصادر عن الحلم والاعتدال ، وترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهم - في إجاباتهم هذه أدب حسن ، وخلق عظيم ، وحكاية الله - عز وجل - ذلك ، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يفضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم ، (١) .

ونلمس من خلال التعبير القرآني أن قوم هود قد تعجبوا من اختصاص هود بالرسالة كما تعجب قوم نوح من قبلهم من ذلك ، فأخذ هود - عليه السلام - في إزالة هذا العجب من نفوسهم ، فقال :

« أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم » أى : أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم تمرفون صدقه ونسبه وحسبه ، لأن ما عجبتم له ليس موقع عجب ، بل هو عين الحكمة فقد إقتضت رحمة الله أن يرسل لعباده من بينهم من يرشدكم إلى الطريق القويم و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ثم أخذ في تذكيرهم بواقعهم الذى يعيشون فيه لئلا يحملهم على شكر الله فتعال :

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » أى : اذكروا بتأدل واعتبار فضل الله عليكم ونعمه حيث جعلكم مستخلفين فى الأرض من بعد قوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان لكفرهم وبجودهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : و « إذ منسوب على المفعولية لقوله » اذكروا « أى : اذكروا هذا الوقت المشتعل على النعم الجسم . وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات للبالغة فى إيجاب ذكره ، ولأنه إذا استحضر الوقت كان هو حاضر ارتباطه صلياً . وهو مطلوب على مقدر كأنه قيل : لانهجوا وتدبروا فى أمركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » (١)

ثم ذكرهم بنعمة ثانية فقال : « وزادكم فى الخلق بسطة » أى : زادكم فى المخلوقات بسطة وسعة فى الملك والحضارة : أو زادكم بسطة فى قوة أيدانكم وضخامة أجسامكم ، ومن حق هذا الاستخلاف وتلك القوة ، أن تقابلا بالشكر لله رب العالمين .

وقد ذكر بعض المفسرين روايات تتعلق بضخامة أجسام قوم هود وقوتهم وهى روايات ضعيفة لا يعتد بها ، ولذا أصرنا عنها ، وكفى بنا أن القرآن الكريم

قد أشار إلى قوتهم وجبروتهم بدون تفصيل لذلك كما في قوله - تعالى - :
« وإذا بطشتم جبارين » وكما في قوله : « كأنهم أعجاز نخل خاوية » .

ثم كرر هود - عليه السلام - نذيرهم بنعم الله فقال : « فاذكروا
آلاء الله لعلكم تفاجون » . أي : فاذكروا نعم الله واشكروها له لعلكم
تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليهم وزيادتها لهم ، ولن تكفروا
كذلك إلا بعبادتك له وحده - عز وجل -

وآلاء الله : نعمه الكثيرة . والآلاء جمع إلى كحمل وأحمال . أو إلى ،
كقفل وأقفال . أو إلى ، كمعى وأمعاء

والى هنا يكون هود - عليه السلام - قد رد على قومه رداً مقنعاً
حكيماً ، كان المتوقع من ورائه أن يستجيبوا له ، وأن يقبلوا على دعائه ،
ولكنهم لم يسمعو تفكيرهم وانطباع بصيرتهم ، أخذتهم العزة بالإثم فصالوا
أنبيهم ورشدتهم .

« أجبثنا لعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأنتنا بما نعبدنا ان كنت
من الصادقين » أي : قالوا له على سبيل الإنكار والاستهزاء أجبثنا يا هود
لأجل أن نعبد الله وحده ، ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام
إن هذا ان يكون منا أبداً فأنتنا بما نعبدنا به من العذاب ان كنت من الصادقين
فيما تخبر به .

ونظر في هذا الرد من قوم هود فراء طافحا بانهور والتحدى والاستهزاء
واستهجال العذاب .

حتى لكان هودا - عليه السلام - يدعوهم الى منكر لا يطبقون سماعه
ولا يصبرون على الجدل فيه ١١

أليس هو يدعوهم الى وحدانية الله وإفراده بالعبادة وترك ما كان يعبد
آباؤهم ، وهذا في زعمهم أمر منكر لا يطبقون الصبر عليه .

وه كذا يستحوذ الشيطان على قلوب بعض الناس وتفه كيرهم فيصوّر لهم الحسنات في صورة سيئات والسيئات ، في صورة حسنات .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما معنى المجيء في قوله « أجتئنا » ، قلت فيه أوجه . أن يكون هود - عليه السلام - مكان معزل عن قومه يتحنث فيه كما كان يفعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحراء قبل المبعث ، فلما أوحى إليه جاء قومه بدعوم . وأن يريدوا به الاستهزاء ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله - تعالى - لا يرسل إلا الملائكة ، فمكأهم قلوبا : أجتئنا من السماء كما يجيء الملك . وأنهم لا يريدون حقيقة المجيء . ولكن التعريض بذلك والقصد كما يقال : ذهب يشتري ولا يراد حقيقة الذهاب ، كما هم قالوا أقصدتنا لنجد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك ، (١) .

وقولهم « فأننا بما آمنا إنا كنا من الصادقين » يدل على أنه كان يتوعدهم بالعذاب من الله . إذا استمروا على شركهم ، ويدل - أيضا - على تصميمهم على الكفر ، واحتقارهم لأمر هود - عليه السلام - واستعجالهم إياه بالعقوبة على سبيل التحدي ، لأنهم كانوا يتوهمون أن العقوبة لن تقع عليهم أبدا .

وإزاء هذا التحدي السافر من قوم هود له ولدعوته ولو عيّد الله لهم ، ما كان من هود - عليه السلام - إلا أن جابههم بالرد الحاسم الذي تجلّى فيه الشجاعة التامة ، والثقة الكاملة بأن الله سينصره عليهم ويفتقم له منهم :

« قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وعضب ، أي : قال هود لقومه بعد أن لجوا في طغيانهم : « - حق ووجب عليكم من قبل ربكم عذاب وسخط بسبب إصراركم على الكفر والعناد .

والرجس والرجز بمعنى ، وأصل معناه الاضطراب يقال : رجست السماء

أى : رعدت رعداً شديداً ، وهم فى مرجوسة من أمرهم أى : فى اختلاط والقباس . ثم شاع فى العذاب لاضطراب من حل به .
وعبر عن العذاب المتوقع وقوعه بأنه قد وقع ، مبالغة فى تحقيق الوقوع ، وأنه أمر لا مفر لهم منه .

وعطف الغضب على الرجس ، للإشارة إلى أن ماسينزل بهم من عذاب هو انتقام لايم كن دونه ، لأنه صادر من الله الذى غضب عليهم بسبب كفرهم ، وبعد أن أنذرهم هددهم بوقوع العذاب عليهم ، وببئهم على مجادلتهم لإياه بدون علم فقال : د أنجادلوني فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ؟

أى : أنجادلوني وتخاصموني فى شأن أشياء ماهى إلا أسماء ليس تحتها مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة مع أن معنى الإلهية فيها معدوم ومحال وجوده إذ المستحق للعبادة إنما هو الله الذى خلق كل شئ ، أما هذه الأصنام التى زعمتم أنها آلهة فهى لا تملك لنفسها نفعا ولاضرا .

فأنت ترى أن هوداً - عليه السلام - قد حول آلهتهم إلى مجرد أسماء لا تبلغ أن تكون شيئاً وراء الاسم الذى يطلق عليها ، وهذا أعمق فى الإنكار عليهم ، والاستهزاء بعقولهم .

وقوله ، ما أنزل الله بها من سلطان ، أى : ما أنزل الله بها من حجة أو دليل يؤيد زعمكم فى ألوهيتها أو فى كونها شفعاء لكم عند الله ، وإنما هى أصنام باطلة قلدتم آباءكم فى عبادتها بدون علم أو تفكير .

ثم هدد بالعاقبة المقررة المحتومة فقال : فانتظروا إلى معكم من المنتظرين أى : فانتظروا نزول العذاب الذى استعجلتموه وطلبتموه حين قلتم ، فأتنا بما تعدنا ، فإنى معكم من المنتظرين لما سيحل بكم بسبب شرككم وتكذيبكم .

ولم يطل انتظار هود عليهم ، فقد حل بهم العقاب الذى توعدهم به سريعاً ولذا قال -- تعالى -- ، فأنجينا والذين معه برحمة منا ، القاء فصيحة . أى :

فوقع ماوقع فأجينا هودا والذين اتبعوه في عقيدته برحمه عظيمه منا لا يقدر عليها غيرنا .

« وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، أى : استاصلناهم عن آخرهم بالريح العقيم التى ، ماتذر من شئ . أنت عليه إلا جماعته كالريم ، .

فقطع الدابر كناية عن الاستئصال والاهلاك للجميع يقال قطع الله دابره أى : أذهب أصله .

وقوله « وما كانوا مؤمنين ، عطف على « كذبوا » داخل معه حكم الصلة أى : أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرجعوا عن ذلك أصلا .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما فائدة نفي الإيمان عنهم فى قوله . . « وما كانوا مؤمنين » مع إثبات التكذيب بآيات الله ؟ قلت : هو تعرض بمن آمن منهم - كمرثد بن سعد - ومن نجامع هود - عليه السلام - كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ، ولم يكونوا مثل من آمن منهم ليؤذن أن الهلاك للمكذبين ونجى الله المؤمنين « (١) .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، وتحقق النذير فى قوم هود كما تحقق قبل ذلك فى قوم نوح .

ثم قصت علينا السورة بعد ذلك قصة صالح - عليه السلام - مع قومه فقالت :

« وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُّوها تَأْكُلْ فى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ١١٩

يَوْمِ الْيَمِّ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ شُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَمْنُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِكِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، اتَّعِلُونْ أَنْ صَالِحًا مَرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَمَقَرُّوا النَّاسِافَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) .

هذه قصة صالح مع قومه كما حكمتها سورة الأعراف ، وقد وردت هذه القصة في سور آخر كسور هود والشعراء والنمل والقمر وغيرها .

وصالح - كما قال الحافظ البغوي - هو ابن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد ابن حاذر بن ثمود : وينتهي نسبه إلى نوح - عليه السلام - .

وتمود اسم للقبيلة التي منها صالح سميت باسم جدّها ثمود ، وقيل سميت بذلك لقلة ماؤها لأن الثمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - ، والحجر مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وموقعه الآن - تقريباً - المنطقة التي بين الحجاز وشرق الأردن ، وما زال المسكان الذي كانوا يسكنونه يسمى بمداين صالح إلى اليوم ، وقد مر النبي - صلى الله عليه وسلم - على ديارهم وهو ذاهب إلى غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة

وقبيلة صالح من قبائل العرب ، وكانوا خلفاء القوم هود . عليه السلام .
بعد أن هلكوا فورثوا أرضهم ، وآتاهم الله نعماء وفيرة ، وكانوا يعبدون
الآصنام فأرسل الله إليهم نبيهم صالحاً مبشراً وناذيراً .

قال - تعالى - : « وإلى نوح وأخاه صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره قد جاءكم بينة من ربكم » .

أى : وأرسلنا إلى نوح وأخاه في النسب والموطن صالحاً - عليه السلام -
فقال لهم الكلمة التي دعا بها كل نبي قومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
سواه ، قد جاءكم دجزة ظاهرة الدلائل ، شاهدة ببينوتى وصدق فيما أبلغه
عن ربي .

وقوله « من ربكم » متعلق بمحذوف صفة لبينة ، أى هذه البينة كائنة من
ربكم وليست من صنعي فعليكم أن تصدقوني لأنى مبلغ عن الله - تعالى - .

ثم كشف لهم عن معجزته وحجته فقال : « هذه ناقة الله لكم آية ، أى :
هذه التي ترونها وأشير إليها ناقة الله ، والتي جعلها - سبحانه - علامة لكم
على صدقي » .

وأضاف الناقة إلى الله للتفضيل والتخصيص والتعظيم لشأنها . وقيل لأنه
- سبحانه - خلقها على خلاف سننه في خلق الإبل وصفاتها ، وقيل لأنها
لم يكن لها مالك .

وقد ذكر المفسرون عنها قصصاً لا نخلو من ضعف ، لذا اكتفينا بما ورد
في شأنها في القرآن الكريم .

ثم أرشدهم إلى ما يجب عليهم نحوها فقال : « فذروها تأكل في أرض الله
ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم » .

أى اتركوا الناقة حرة طليقة تأكل في أرض الله التي لا يملكها أحد سواه

ولا تعتدوا عليها بأى لون من ألوان الاعتداء ، لأنكم لو فعلتم ذلك أصابكم عذاب أليم .

والفاء فى قوله ، فذروها ، للتفريع على كونها آية من آيات الله ، فيجب إكرامها وعدم التعرض لها بسوء . و ، تأكل ، مجزوم فى جواب الأمر .

وأضيفت الأرض إلى الله - أيضا - قطعا لعذرهم فى التعرض لها فكأنه بقول لهم ، الأرض أرض الله والثاقة ناقته ، فذروها تأكل فى أرضها لأنها ليست لكم ، وليس ما فيها من عشب ونبات من صنعكم ، فأى عذر لكم فى التعرض لها ؟

وفى فهمهم عن أن يمسوها بسوء تنبيه بالأدنى على الأعلى ، لأنه إذا كان قد نهى عن مسها بسوء إكرامها فهمهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من السكك والماء من باب أولى . فالجملة الكريمة وعيد شديد لمن يمسها بسوء .

وقوله ، فياخذكم عذاب عظيم ، الفعل المضارع منصوب فى جواب النهى . وبعد أن بين لهم صالح - عليه السلام - وظيفته ، وكشف لهم عن معجزته ، وأنذرهم سوء العقوبة إذا ما خالفوا أمره ، أخذ فى تكبيرهم بنعم الله عليهم . وبمصادر الماضين قبلهم .

فقال - كما حكى القرآن عنه - : ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، .

أى : واذكروا بتدبر واتعاظ نعم الله عليكم حيث جعلكم خلفاء لقبيلة عاد فى الحضارة والعمران والقوة والبأس ، بعد أن أهلكهم الله بسبب نياتهم وشرهم .

وقوله ، وبوأكم فى الأرض ، أى : أنزلكم فيها وجعلها مباءة ومساكن لكم . يقال : بوأه منزلا ، أى : أنزله وهينأه له ويمكن له فيه .

والمراد بالأرض : أرض الحجر التي كانوا يسكنونها وهي بين الحجاز والشام ، تتخذون من سهولها قصورا وتمتحنون الجبال بيوتا ، .

السهول : الأراضي السهلة المنبسطة . والجبال : الأماكن المتحجرة المرتفعة .
أى أنزلكم في أرض الحجر ، ويسر لكم أن تتخذوا من سهولها قصورا جميلة ، ودورا عالية ، ومن جبالها بيوتا تسكنونها بعد نحتكم لإياها .
يقال : نحتته ينحته - كيضر به وينصره ويعله - أى : براه وسواه .

قيل إنهم كانوا يسكنون الجبال في الشتاء لما في البيوت المنحوتة من القوة التي لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ولما فيها من الدفء . أما في غير الشتاء فكأنوا يسكنون السهول لأجل الزراعة والعمل ومن التعبير القرآني فليح أثر النعمة والتمكين في الأرض لقوم صالح ، وفدرك طبيعة الموقع الذي كانوا يعيشون فيه ، فهو سهل وجبل ، يتخذون في السهل القصور ، وينحتون في الجبال البيوت ، فهم في حضارة عمرانية واضحة المعالم ، ولذا نجد صالح عليه السلام - يكرر عليهم التذكير بشكر النعم فيقول :

« فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

أى : فاذكروا بتدبر واتعاظ نعم الله عليكم ، واشكروه على هذه النعم الجزيلة : وخصوه وحده بالعبادة ، ولا تتمددوا في الفساد حال إفسادكم في الأرض .

والمقصود النهي عما كانوا عليه من التصادى في الفساد . مأخوذ من العبث وهو أشد الفساد . يقال : عثى - كرضى - عثوا إذ أفسد أشد الإفساد .

وإلى هنا تكون السورة السكرية قد ذكرت لنا جانبا من النصائح التي وجهها صالح لقومه فإذا كان موقفهم منه .

لقد كان موقفهم لا يقل في القبح والتطاول والعناد عن موقف قوم نوح وقوم هود ، وهالك ما حكاه القرآن عنهم :

• قال الملا الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منه :
أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، ؟

أى : قال المترفون المتكبرون من قوم صالح المؤمنين المستضعفين
الذين هدام الله إلى الحق : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه إليكم ليعباد
وحده لا شريك له ؟

وهو سؤال قصد المترفون منه تهديد المؤمنين والاستهزاء بهم ، لأنهم
يعلمون أن المؤمنين يعرفون أن صالحا مرسل من ربه .

ولذا وجدنا المؤمنين لا يردون عليهم بما يقتضيه ظاهر السؤال بأن يقولوا
لهم : نعم أنه مرسل من ربه ، وإنما ردوا عليهم بقولهم : إنا بما أرسل
مؤمنون ، مسارعة منهم إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وإظهار الإيثار
الذى استقر في قلوبهم ، وتنبئها على أن أمر إرسال صالح - عليه السلام -
الظهور والوضوح بحيث لا ينبغي لما قل أن يسأل عنه ، وإنما الشيء الجدد
بالسؤال عنه هو الإيمان بما جاء به هذا الرسول الكريم ، والامتثال لما يقتضيه
العقل السليم . وهو رد من المؤمنين المستضعفين يدل على شجاعتهم في الج
بالحق وعلى قوة إيمانهم ، وسلامة يقينهم .

وقوله : لمن آمن منهم ، يدل من الذين استضعفوا ، بإعادة الجار با
كل من كل ، والضمير في منهم ، يعود على قوم صالح .

وهنا يعلن المستكبرون عن موقفهم في عناد ، وصلاف وجحود ، واست
إلى القرآن وهو يحكى ذلك فيقول : • قال الذين استكبروا إنا بالذي آما
به كفرون ، .

أى : قال المستكبرون ردا على المؤمنين الفقراء : إنا بما آمتهم به كافرو
ولم يقولوا إنا بما أرسل به كفرون ، لإظهار الخلفتهم لإياهم ، وردا على مقالا
• إنا بما أرسل به مؤمنون ، .

قال صاحب الانتصاف : ولو طابقوا بين الكلامين لمكان مقتضى المطابقة أن يقولوا ، بما أرسل به كافرون ولكنهم أبو ذلك حذرا بما في ظاهره من إثباتهم لرسالته ، وهم يجهلون ، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهمك ، كما قال فرعون : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، فأنبت إرساله تمكنا ، وليس المقام هنا مقام التهمك ، فإن الغرض لإخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله ، فرد كل فريق على الآخر بما يناسبه ، (١)

ثم أتبع المستكبرون قوطم القبيح بفعل أقيح يتجلى في قوله - تعالى - عنهم : « فعقروا الناقة ، أى : نحروها وأصل العقير : قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل في النحر ، لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره .

أى : عقروا الناقة التى جعلها الله حجة لنبيه صالح - عليه السلام - والتى قال لهم صالح فى شأنها : لا تمسوها بسوء فإياخذكم عذاب أليم ، .

وأسند العقير إلى جميعهم لأنه كان برضاهم ، وإن لم يباشره إلا بعضهم ويقال للقبيلة الكبيرة أنتم فعلتم كذا مع أن الفاعل واحد منهم ، لكونه بين أظهرهم .

وقوله : « وعتوا عن أمر ربهم ، أى : استكبروا عن امتثال أوامره واجتناب نواهيه . من العتو وهو الذب ، أى : الارتفاع عن الطاعة والتكبر عن الحق والغلو فى الباطل . يقال : عتا يعتو عتيا ، إذا تجاوز الحد فى الاستكبار . فهو عات وعتى .

وقد إختار القرآن كلمة « عتوا » لإبراز ما كانوا عليه من تجبر وتبجح وغرور خلال إقترافهم للمعاصى والجرائم التى من أبرزها عقير الناقة ، فهم قد فعلوا ما فعلوا عن تعمد وإصرار على ارتكاب المنكر .

(١) الانتصاف على الكشاف - ٨ ص ١٢٣ لابن المنبر .

ثم لم يكتفوا بكل هذا ، بل قالوا لنبيهم في سفاهة وتطاول : « يا صالح
أنتنا ، بما تعدنا إن كنت من المرسلين » .

نادوه باسمه تهوينا لشأنه ، وتعربضا بما يظنون من عجزه ؛ وقالوا له على
سبيل تعجل العذاب الذي توعدهم به إذا استمروا في طغيانهم أئمتنا بما توعدتنا
به إن كنت صادقا في رسالتك .

ولقد كان رد القدر على تبجحهم وعتوهم واستكبارهم سريعا ؛ قال - تعالى -
« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » :

الرجفة : الزلزلة الشديدة . يقال : رجفت الأرض ترجف رجفا ، إذا
اضطربت وزلزلت ؛ ومنه الرجفان للاضطراب الشديد .

وجاثمين : من الجثوم وهو للناس والطير بمنزلة البروك للابل ، يقال جثم
الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم إذا وقع على صدره أو لزم مكانه فلم
يبرحه .

والمعنى : فأخذت أولئك المستكبرين الرجفة ، أى : الزلزلة الشديدة
فأهلكتهم ، فأصبحوا في بلادهم أو مساكنهم باركين على الركب ، ساقطين
على وجوههم ، هامدين لا يتحركون . وما ظلمهم الله ولا كن كانوا أنفسهم
يظلمون .

ويتركهم القرآن على هينهم جاثمين ، ليتحدث عن نبيهم صالح الذي كذبوه
فيقول : « فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم
ولكن لا تحبون الناصحين » .

أى : فأعرض عنهم نبيهم صالح ، ونفض يديه منهم ، وتركهم للمصير
الذي جلبوه على أنفسهم ، وأخذ يقول متحسرا على ما فاتهم من الإيمان :
يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي كامله غير منقوصة ، ونصحت لكم بالترغيب

تارة وبالترهيب أخرى ، وإمكن كان شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم .

هذا وقد وردت أحاديث تصرح بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد مر على ديار ثمود المعروفة الآن بمداين صالح وهو ذاهب إلى تبوك سفنة تسع من الهجرة ، فأمر أصحابه أن يدخلوها خاشعين وجلين كراهة أن يصيبهم ما أصاب أهلها ، ونهاهم عن أن يشربوا من مائها .

روى الامام أحمد عن ابن عمر قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم - بالناس عام تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فمحنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم فأهراقوا القدور ، وعلفوا العجيين الإبل ثم ارتحل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوها على القوم الذين عذبوا وقال : إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوها عليهم ^(١)

وروى الشيخان عن ابن عمر قال : لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم - بالحجر قال : لا تدخلوها على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوها عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوزوا الوادي ^(٢) .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صفائف المكذبين ، وحلت العقوبة بمن كانوا يتمجلونها ويستثمرون بها .

ثم حككت لنا السورة بعد ذلك جانباً عما دار بين لوط وقومه فقالت :

(١) مسند الامام أحمد ج ٢ ص ١٢٧ طبعة الحلبي .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي : باب نزول النبي - ص - الحجر الحديث رقم ٢٨٤ محمد فؤاد عبد الباقي : وأخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق

« وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَّبِعُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) » .

قال ابن كثير : لوط هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخى إبراهيم ، وكان قد آمن مع إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله - تعالى - ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا من غيرهم ، وهو لإتيان الذكور دون الاناث ، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم ، حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهى قرية بوادى الأردن - عليهم لعائن الله ^(١) .

وقوله - تعالى - « وَلَوْطًا » منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق أى : « وأرسلنا لوطا » ، إذ قال لقومه ، ظرف لأرسلنا ، وجوز أن يكون « لوطا » منصوبا بإذ كر محذوفا فيكون من عطف القصة على القصة ، و « إذ » بدل من لوط بدل اشتغال بقاء على أنها لا تلزم الظرفية .

وقوله : « أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ » .

أى : أنفعلون تلك الفعل التى بلغت نهايتها القبح والفحش ، والتى ما فعلها أحد قبلكم فى زمن من الأزمان فأنتم أول من ابتدئها فعليكم وزرها ووزر

من عملها إلى يوم القيامة والاستفهام ، لانكار والتوبيخ قال عمر بن دينار :
« ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . »

وقال الوليد بن عبيد الملك : « لولا أن الله قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً ، والباء في ديبها ، كما قال الرعشري - للتعديّة ،
من قولك سبقته بالكرة إذا ضربتها قبله ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم -
« سبقك بها عكاشة » ، و « من » في قوله « من أحد » تأكيد للنفي وعمومه
المستغرق لكل البشر .

والجمله - كما قال أبو السعود - مستأنفة مسوقة لتأكيد التأكيد وتشديد
التوبيخ والتقريع ، فإن مباشرة القبح قبيح واختراعه أقبح ، فأنكر عليهم
أولا لإتيان الفاحشة ، ثم وبخه بأنهم أول من عملها .

ثم أضاف لوط إلى إنكاره على قومه إنكار آخر وتوبيخاً أشنع فقال :
« لأنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء . »

أى : لأنكم أيها القسوم الممسوخون في طبائعكم حيث تأتون الرجال
الذين خلقهم الله ليأتوا النساء ، ولا حامل لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة
الخبیثة القدرة .

والإتيان : كناية عن الاستمتاع والجماع . من أتى المرأة إذا غشيها .
وفي إيراد لفظ الرجال ، دون الغلمان والمردان ونحوهما ، مبالغه في
التوبيخ والتقريع .

قال صاحب الكشف : و « شهوة » مفعول له ، أى للاشتهاء ولا حامل
لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر . ولاذم أعظم منه ، لأنه وصف
لهم بالبهيمية ، وأنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة كطالب النسل ونحوه .
أو حال ، بمعنى مشتبهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السباحة ، (١)

وقرله ، من دون النساء ، حال من الرجال أو من الواو في تأتون ، أى :
تأتون الرجال حالة كونكم تاركين النساء اللاتي هن موضع الاشتباه عند
ذوى الطباع السليمة ، والأخلاق المستقيمة .

قال الجمل : وإنما ذمهم وعيرهم ويهضم بهذا الفعل الخبيث ، لأن الله -
تعالى - خلق الإنسان وركب فيه شهوة الفكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا ،
وجعل النساء محلا للشهوة وموضعا للنسل . فإذا تركن الإنسان وعدل عنهن
إلى غيرهن من الرجال فقد أسرف وجاوز واعتدى ، لأنه وضع الشيء في غير
محلّه وموضعه الذي خلق له ، لأن أدهار الرجال ليست محلا للولادة التي هي
مقصود بتلك الشهوة للإنسان ، (١)

بقوله : بل أنتم قوم مسرفون ، إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن
الأسباب التي جعلتهم يرتكبون هذه القبائح ، وهي أنهم قوم عادتهم الاسراف
وتجاوز الحدود في كل شيء .

أى : أنتم أيها القوم لستم من يأتى الفاحشة مرة ثم يهجرها ويتوب إلى الله
بل أنتم قوم مسرفون فيها وفي سائر أعمالكم ، لانفقون عند حد الاعتدال
في عمل من الأعمال .

وقد حكى القرآن أن لوطا - عليه السلام - قال لهم في سورة العنكبوت :
« إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ، وتأتون في ناديتكم المنكر ، » .

وقال لهم في سورة الشعراء : « بل أنتم قوم عادون ، أى : متجاوزين
لحدود الفطرة وحدود الشريعة .

وقال لهم في سورة النمل : « بل أنتم قوم تجهلون ، وهو يشمل الجهل الذي
هو ضد العلم ، والجهل الذي هو بمعنى السفه والطيش .

وبمجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل ، وانحطاط الخلق ، ولم يثار الغي والمدوان على الرشاد والتدبر .

واقعد حكى القرآن جوابهم القبيح على نصائح نبيهم لهم ، فقال : وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم . .

أى : وما كان جواب الطغاة المستكبرين على نصائح نبيهم لوط - عليه السلام - إلا أن قال بعضهم لبعض أخرجوا لوطا ومن معه من المؤمنين من قريبتكم سدوم التى استوطنتموها وعشتم بها .

وقوله : . . إلا أن قالوا . . ، استثناء مفرغ من أعم الأشياء ، أى : ما كان جوابهم شيئا من الأشياء سوى قول بعضهم لبعض أخرجوهم . . .

لماذا هذا الإخراج ؟ بين القرآن أسبابه كما نفوهت به المستهتمة الخبيثة ، وانفقت عليه قلوبهم المنكوسة فقال : . . لأنهم إناس يتطهرون ، بهذه الجملة التعليلية .

أى : إن لوطا وأتباعه أناس يقنزهون عن إتيان الرجال ، وعن كل عمل من أعمالنا لا يرونه مناسبا لهم . يقال : تطهر الرجل ، أى : تنزه عن الآثام والقبائح .

وما أعجب العقول عندما تنتكس ، والأخلاق عندما ترتكس ، لإنهاء تستنكف أن يبقى معها الطهور المتعفف عن الفحش ، وتعمل على إخراجها ، ليبقى لها الملوؤن الممسوخون . وإنه لمنطق يتفق مع المنحرفين الذين انحطت طباعهم ، وانقلبت موازينهم ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا ورحم الله صاحب الكشف فقد قال : وقولهم : . . لأنهم إناس يتطهرون ، سخرية بهم وبطهرهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصالحاء إذا وعظهم : أبعادوا عنا هذا المتكشف وأريحونا من هذا المتزهد ، (١) .

ثم حكى السورة عاقبة القرىقين فقالت : « فأنجيئناه وأهله ، أى : أنجيئنا لوطاً ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين »

قالوا : ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال - تعالى - « فآخر جنا من كان فيها من المؤمنين » . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، . وقوله « إلا امرأته » ، استثناء من أهله ، أى : فأنجيئناه وأهله إلا امرأته فإننا لم ننجها لحبها وعدم إيمانها -

قال ابن كثير : إنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، ثم ألثمهم عليه وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفائه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط - عليه السلام - ليسرى بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد ، ومنهم من يقول بل اتبعهم ، فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم ، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال هاهنا : « إلا امرأته » آتت من الغابرين ، أى : « الباقيين فى العذاب » (١)

والغابر : الباقي . يقال : غير الشئ - يغير غبورا ، أى : بقى . وقد يستعمل فيما مضى - أيضا - فيكون من الأضداد ، ومنه قول الأعشى : فى الزمن الغابر . أى : الماضى .

وقوله : « وأمطرنا عليهم مطراً ، أى : وأرسلنا على قوم لوط نوعاً من المطر عجيباً أمره ، وقد بينه الله فى آية أخرى بقوله « فجعلنا عليها سافها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » (٢) .

أى : جازيناهم بالعقوبة التى تناسب شناعة جرمهم فإنهم لما قلبوا الأوضاع فأتوا الرجال دون النساء ، أهلكناهم بالعقوبة التى قلبت عليهم قريتهم فجعلت أعلاها أسفها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل أى من طين متجمد .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢) سورة الحجر الآية ٧٤ .

ثم ختمت القصة بالدعوة إلى التعقل والتدبر والاعتبار فقال - تعالى - :
 « فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » :

أى : فانظر أيها العاقل نظرة تدبر واتعاط في مآل أولئك المكافرين
 المقترفين لأشنع الفواحش ، واحذر أن تعمل أعمالهم حتى لا يصيبك ما أصابهم
 وسر في الطريق المستقيم لتتال السعادة في الدنيا والآخرة .

هذا . وقد وردت أحاديث تصرح بقتل من يعمل عمل قوم لوط فقد روى
 الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس .

قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من وجدتموه يعمل عمل
 قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به ، .

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقي من شاطئ ويتبع بالحجارة
 كما فعل بقوم لوط .

وذهب بعض العلماء إلى أنه يرجم ، سواء أ كان محصنا أو غير محصن (١) .

ثم قصت علينا سورة الاعراف بعد ذلك قصة شعيب مع قومه ، فقالت :

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
 إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ
 وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ،
 ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْمَدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ
 تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ،
 وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) راجع تفسير القاسمى > ٧ ص ٢٨٠٧ وما بعدها . وتفسير الألوسى

> ٧ ص ١٧٢ وما بعدها .

الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ
وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)»

وقوله : : وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره ، أى : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا . ومدين اسم للقبيلة التى تنسب
إلى مدين بن إبراهيم -- عليه السلام -- وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى
معان بين حدود الحجاز والشام ، وهم أصحاب الأيكة - والأيكة : منطقة مليئة
بالشجر كانت تجاوره لقرية معان ، وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله
شعيبا إليهم جميعا .

وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم فهو أخوهم فى
النسب وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا ذكر شعيب قال : : ذلك خطيب
الأنبياء لحسن مراجعته أقومه ، وقوة حجته .

وكان قومه أهل كفر وبخس للذكى والميزان فدعاهم إلى توحيد الله
- تعالى - ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق .

وعن السدى وعكرمة : أن شعيبا أرسل إلى أمتين : أهل مدين الذين
أهلكوا بالصيحة ، وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ،
وأنه لم يبعث نبى مرتين إلا شعيب - عليه السلام - .

ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنها أمة واحدة ، فأهل مدين هم
أصحاب الأيكة أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة - أى السحابة - ،
وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر .

وبعد أن دعاهم إلى وحدانية الله شأن جميع الرسل فى بدء دعوتهم قال لهم
« قد جاءكم بينة من ربكم ، أى . قد جاءكم معجزة شاهدة بصحة نبوتى
توجب عليكم الإيمان بى والأخذ بما أمركم به والانتفاء عما أنهاكم عنه .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما كانت معجزته ؟ قلت : قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله : « قد جاء تسكع بينة من ربكم » ، ولأنه لا بد لدعى النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه وإلا لم تصح دعواه ، وكان متنبهاً لانبيا ، غير أن معجزته لم تذكر فى القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم - فيه (١)

ثم أخذ فى نهيهم عن أبرز المنكرات التى كانت متفشية فيهم فقال - كما حكى القرآن عنه - :

« فأوفوا الكيل والميزان ، الكيل والميزان مصدران أريد بهما ما يكال وما يوزن به ، كالعيش بمعنى ما يعاش به . أو المكيل والموزون .

أى : فأنموا الكيل والميزان للناس بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة .

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، أى : ولا تنقصوهم حقوقهم بتطفيف الكيل ونقص الوزن فيما يجرى بينكم وبينهم من معاملات .

يقال : بخسه حقه يخسه إذا نقصه إياه . وظلمه فيه ، وتبخسوا ، تعدى إلى مفعولين أولهما الناس والثانى أشياءهم .

وفائدة التصريح بالنهى عن النقص بعد الأمر بالإيفاء ، تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده .

قال الألوسى : وقد يراد بالأشياء الحقوق مطلقاً فإنهم كانوا مكاسبين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه . وقد جاء عن ابن عباس أنهم كانوا قوماً طغاة بغاة يجلسون على الطريق فيبخسون الناس أموالهم ... قيل ويدخل فى ذلك بخس الرجل حقه من حسن المعاملة والتوقير اللائق به وبيان فضله على ما هو

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ١٢٧ .

عليه للسائل عنه . وكثير من ينتسب إلى أهل العلم اليوم مبتلون بهذا البخس ، وليتهم قنعوا به بل جموا حشفا وسوء كيلة ، فإن الله ولما إليه راجعون^(١) ثم نهام عن الافساد بوجه عام فقال : « ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، أى : لا تفسدوا في الأرض بما تركبون فيها من ظلم وبغى ، وكفر وعصيان ، بعد أن أصلح أمرها وأمر أهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون الذين يعدلون في معاملاتهم ويلتزمون الحق في كل تهرافتهم .

ثم ختمت الآية بتلك الجملة المكرمة التي استجاش بها شعيب مشاعرا للإيمان في نفوس قومه حيث قال لهم : « ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » .

أى : ذلكم الذى أمركم به وأنهاكم عنه خير لكم فى الحال والمآل فبادروا إلى الاستجابة لى إن كنتم مصدقين قولى ، ومنتفعين بالهدايات التى جئت بها إليكم من ربكم .

فاسم الإشارة ذلكم ، يعود إلى ما ذكر من الأمر بالوفاء فى الكيل والميزان والنهى عن بخس الناس أشياءهم وعن الافساد فى الأرض .

ثم انتقل شعيب إلى نهيمهم عن رذائل أخرى كانوا متلبسين بها فقال : « ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ، توعدون : من التوعد بمعنى التخويف والتهديد . أى : ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق المسلوكة تهددون من آمن بى بالقتل ، وتخيفونه بأنواع الأذى ، وتلصقون بى وأنا فيبكم التهم التى أنا برى منها ، بأن تقولوا لمن يريد الإيمان برسائى : إن شعيبا كذاب وإنه يريد أن يبتنكم عن دينكم .

وقوله : « وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا ، أى : وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به ، وتطلبون لطريقه العوج بالقاء الشبه أو بوصفها بما ينقصها ، مع أنها هى الطريق المستقيم الذى هو أبعد ما يكون عن شائبه الاعوجاج .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : صراط الحق واحد ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، فكيف قيل : بكل صراط ؟ قلت : صراط الحق واحد ، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة ، فكانوا إذا رأوا أحداً يشرع فى شيء منها أو عدوه وصدوه فإن قلت : لإلام يرجع الضمير فى « آمن به » ؟ قلت : إلى كل صراط . والتقدير : توعدون من آمن به وتصدون عنه . فوضع الظاهر الذى هو سبيل الله موضع الضمير زيادة فى تقييح أمرهم ، ودلالة على عظم ما يصدون عنه (١) .

وقوله : توعدون . وتصدون ، وتبغون هذه الجمل أحوال ، أى : لا تقعدوا مواعدين وصادين ، وباغين ، ولم يذكر الموعد به لتذهب النفس فيه كل مذهب ثم ذكرهم شعيب بنعم الله عليهم فقال : « واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ، أى : اذكروا ذلك الزمن الذى كنتم فيه قليل العدد فكثركم الله بأن جعلكم موفورى العدد ، وكنتم فى قلة من الأموال فأفاضها الله بين أيديكم ، فمن الواجب عليكم أن تشكروه على هذه النعم ، وأن تفردوه بالعبادة والطاعة ثم اتبع هذا التذكير بالنعم بالتحذير من عواقب الفساد فقال : « وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » . أى : انظروا فطر تأمل واعتبار كيف كانت عاقبة المفسدين من الأمم الحالية ، والقرون الماضية ، كقوم لوط وقوم صالح ، فسترون أنهم قد دمروا تدميراً بسبب إفسادهم فى الأرض ، ونكذبهم وإرسلهم . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين ، لأن سيركم على طريقهم سيؤدى بكم إلى الدمار .

ثم نصحهم بأن يأخذوا أنفسهم بشئ من العدل وسعة الصدر ، وأن يتركوا اتباعه أحراراً فى عقيدتهم حتى يحكم الله بين الفريقين ، فقال : « وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به ، وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

أى : إن كان بعضكم قد آمن بما أرسلنى الله به إليكم من التوحيد وحسن الأخلاق ، وبعضكم لم يؤمن بما أرسلت به بل أصر على شركه وعناده ، فتربصوا وانتظروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بحكمه العادل ، الذى يتجلى فى نصره المؤمنين ، وإهلاك الظالمين ، وهو - سبحانه - خير الحاكمين .

قال صاحب الكشف : وهذا وعيد للكافرين بافتقار الله منهم ، كقوله : « فتربصوا إنا معكم متربصون ، أوهو عظة للمؤمنين وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم . » ويجوز أن يكون خطابا للفرقيين . أى : ليصبر المؤمنون على أذى الكفار ، وليصبر الكفار على ما يسوؤهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب (١) .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حكمت لنا جانبا من الحجج الناصحة ، والنصائح الحكيمة ، والتوجيهات الرشيدة التى وجهها شعيب - خطيب الأنبياء - إلى قومه .

وارجع البصر - أيها القارىء الكريم - فى هذه النصائح ترى شعيبا - عليه السلام - يأمر قومه بوحدة الله لأنها أساس العقيدة وركن الدين الأعظم ، ثم يتبع ذلك بمعالجة الجرائم التى كانت متفشية فيهم ، فبأمرهم بإيفائهم الكيل والميزان ، وينهاهم عن بخس الناس أشياءهم وعن الإفساد فى الأرض ، وعن القعود فى الطرقات لتخويف الناس وتهديدهم ، وعن محاولة صرفهم عن طريق الحق ، بإلقاء الشبهات ، وإشاعة الأباطيل ... مستعملا فى وعظه التذكير بنعم الله تارة . وبنقمه من المكذبين تارة أخرى .

ولقد كان من المنتظر أن يتقبل قوم شعيب هذه المواعظ تقبلاً حسناً ، وأن يصدقوه فيما يبأه عن ربه ، ولكن المستكبرين منهم عموا وصموا عن الحق ، واستمع إلى القرآن وهو يحكى موقفهم فيقول :

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَمَسَّوَدَنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبُّنَا افْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا خَالِسُونَ (٩٠) فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا مِنَ الْخَالِسِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آتَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) » .

أى : قال الأشراف المستكبرون من قوم شعيب له رداً على مواعظه لهم : والله انخرجتك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا بغضا لكم ، ودفعنا لفتنتكم المترتبة على مساكننا وجاورتنا ، أو لنعودن وترجعن إلى ملتنا وما نؤمن به من تقاليد ورثناها عن آبائنا ومن المستحيل علينا تركها . غلبك يا شعيب أنت ومن معك أن تختاروا لأنفسكم أحد أمرين : الإخراج من قريتنا أو العودة إلى ملتنا .

« كَذَا قَالَ الْمُتَرَفُونَ الْمُرُورُونَ لَشُعَيْبٍ وَأَتْبَاعِهِ بِاسْتِعْلَامِهِمْ وَغُلَظَةِ قُوَّةِ غَضَبِهِ »

وجملة ، قال الملائكة : مستأنفه استئنافاً بيانياً ، كأنه قيل : فإذا كان رد قوم شعيب على نصائحه لهم ؟ فكان الجواب : قال الملائكة : ... إلخ .

وقد أكدوا قولهم بالجملة القسمية للبلاغة في إفهامه أنهم مصممون على تنفيذ ما يريدونه منه ومن أتباعه .

ونسبوا الإخراج إليه أولاً وإلى أتباعه ثانياً ، للتغيبه على أصالته في ذلك ، وأن الذين معه إنما هم تبع له ، فإذا ما خرج هو كان خروج غيره أسهل .

وجملة : ، أو لتعودن في ملتنا ، معطوفة على جملة : لنخرجنك ... ، وهي - أي جملة : أو لتعودن في ملتنا ، المقصود الأ عظم عندهم ، فهو لاء المستكبرون بهمهم في المقام الأول أن يعودن من فارق ملتهم وديانتهن لإيها ثانية .

والتعبير بقولهم ، أو لتعودن في ملتنا ، يقتضى أن شعيباً ومن معه كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها ، وهذا محال بالنسبة لشعيب - عليه السلام - فإن الأنبياء معصومون - حتى قبل النبوة - عن ارتكاب الكبائر فضلاً عن الشرك .

وقد أجيب عن ذلك بأن المستكبرين قد قالوا ما قالوا من باب التغليب ، لأنهم لما رأوا أن أتباعه كانوا من قبل ذلك على ملتهم ثم فارقوهم واتبعوا شعيباً ، قالوا لهم : إما أن تخرجوا مع نبيكم الذي اتبعتموه وإما أن تعودن إلى ملتنا التي سبق أن كنتم فيها ، فأدركوا شعيباً معهم في الأمر بالعودة إلى ملتهم من باب تغليبهم عليه هنا ، هذا هو الجواب الذي ارتضاه كثير من العلماء وعلى رأسهم صاحب الكشف ، فقد قال : فإن قلت : كيف خاطبوا شعيباً عليه السلام - بالعود في الكفر في قولهم : ، أو لتعودن في ملتنا ، وكيف أجابهم بقوله : ، إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها ، والآنبياء - عليهم السلام - لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير ، فضلاً عن الكبائر ، فضلاً عن الكفر ؟ قلت : قالوا : ، لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، فمطفوا على ضميره الذين دخلوا

، الايمان منهم بعد كفرهم قالوا: لتعودن فغلب الجماعة على الواحد ، فجعلوهم ائدين جميعا ، لإجراء الكلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى شعيب - عليه السلام - جوابه فقال : (إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، هو يريد عودة قومه ، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئا من ذلك جراه لكلامه على حكم التغليب) (١) .

هذا هو الجواب الذي اختاره الزمخشري وتبعه فيه بعض العلماء ، وهناك جوبة أخرى ذكرها المفسرون ومنها :

١ - أن هذا القول جار على ظنهم أنه كان في ملتهم ، لسكوته قبل البعثة بن الانكار عليهم .

٢ - أنه صدر عن رؤسائهم تلبيسا على الناس وإيهاما لهم بأنه كان على بينهم وما صدر عن شعيب - عليه السلام - كان على طريق المشاكلة .

٣ - أن قولهم « أو لتعودون في ملتنا » بمعنى : أو لتصيرن ، إذ كثيرا يرد « عاد » بمعنى « صار » ، فبعمل عمل كان . ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك ، وهو الانتقال من حال سابقة إلى حال مؤتلفة ، كأنهم قالوا : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن كفارا مثلنا .

قال الامام الرازي : تقول العرب : قد عاد إلى فلان مكروهه ، يريدون : صار إلى منه المكروه ابتداء .

وقال صاحب الانصاف : إنه يسلم استعمال « العود » بمعنى الرجوع إلى مر سابق ، ويحاجب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله - تعالى - « الله ولى الذين شوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت فرجونهم من النور إلى الظلمات » . والاخراج يستدعي دخولا سابقا فيما وقع الاخراج منه . ونحن نعلم أن المؤمن الناضج في الايمان لم يدخل قط في ظلمة

الكفر ، ولا كان فيها ، وكذلك الكافر الأصلي ، لم يدخل قط في نور الإيمان ولا كان فيه ، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أراد ، فعبّر عن تمكّن المؤمن من الكفر ثم عدوله إلى الإيمان ، إخباراً بالاختراع من الظلمات إلى النور توفيقاً من الله له ، ولطفاً به ، وبالعكس في حق الكافر وفائدة اختياره في هذه المواضع ، لتحقيق التمكن والاختيار ؛ لأقامة حجة الله على عباده ،^(١) هذه بعض الأجوبة التي أجاب بها العلماء على قول قوم شعيب « أولتعودن في ملتنا ، ولعل أرجحها هو الرأي الذي اختاره صاحب الكشف ولبعده عن التكلّف ، واتساقه مع رد شعيب عليهم . فقد قال لهم :

« أولو كنا كارهين » . أي : أنجبونا على العودة إلى ملتكم حتى ولو كنا كارهين لها ، لاعتقادنا أنها باطلة وقبيحة ومنافية للحقول السليمة والأخلاق المستقيمة . لا . لن نعود إليها بأي حال من الأحوال . فالهمزة لانكار الوقوع ونفيه ، والتعجيب من أحوالهم الغريبة حيث جهلوا أن الدخول في العقائد اختياري محض ولا ينفذ فيه الإكراه أو الإكراه .

ثم صارهم برفضه التام لما يتوصونه من العودة إلى ملتهم فقال : « قد افتربنا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها » . أي : قد اختلفنا على الله - تعالى - أشنع أنواع الكذب إن عدنا في ملتكم الباطلة بعد إذ نجانا الله بهديتنا إلى الدين الحق ونزيهنا عن الإشراك به - سبحانه - .

قال صاحب المنار : وهذا كلام مستأنف لبيان أهم الأمرين بالرفض والكرهية ، وهو إنشاء في صورة الخير ، فيما أن يكون تأكيداً قسمياً لرفض دعوة الملا . إياهم إلى العودة في ملتهم ، كما يقول القائل : برئت من الذمة إن فعلت كذا ، فيكون مقابلة لقسمهم بقسم أعرق منه في التوكيد وإما أن يكون تمجيهاً خرج لأعلى مقتضى الظاهر ، وأكد بقدر وبالفعل الماضي ، والمعنى

ما أعظم افتراءنا على الله - تعالى - إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها
وعدانا إلى صراطه المستقيم ... (١)

ثم كرر هذا الرفض بأبلغ وجه فقال : وما يكون لنا أن نعود فيها
إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء . علما ، أي ما يصح لنا ولا يتأتى
منا أن نعود في ملتكم الباطلة في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات
إلا في حال أو في وقت مشبهة الله المتصرف في جميع الشئون عودتنا إليها ، فهو
وحده القادر على ذلك ولا يقدر عليه غيره لا أنتم ولا نحن ، لأننا موقنون بأن
ملتكم باطلة وملتنا هي الحق والموقن لا يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره وإنما
ذلك بيد مقلب القلوب ، الذي وسع علمه كل شيء .

وهذا اللون من الأدب العالي ، حكاه القرآن عن الأنبياء - عليهم الصلاة
والسلام - في مخاطبتهم ، فأنت ترى أن شعيبا - عليه السلام - مع ثقته
المطلقة في أنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر أبدا ، مع ذلك هو يفوض
الأمر إلى الله تادبأ معه ، فلا يجزم بمشيبته هو ، بل يترك الأمر لله ، فقد يكون في
علمه سبحانه ما يخفى على البشر ، بما تقتضيه حكمته وإرادته .

قال صاحب الانصاف : وموقع قوله وسع ربنا كل شيء علما ، الاعتراف
بالقصور عن علم العاقبة ، والاطلاع على الأمور الغائبة ، فإن العود إلى الكفر
جائز في قدرة الله أن يقع من العبد : ولو وقع فبقدره الله ومشيبته المغيبة عن
خلقه . فالحذر قائم ، والحرف لازم ، ونظيره قول إبراهيم - عليه السلام -
ولا أخاف ما يشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما
أفلا تتذكرون : لما رد الأمر إلى المشيئة وهي مغيبة ، مجد الله - تعالى -
بالانفراد بعلم الغائبات ، (٢) .

ثم يترك شعيب - عليه السلام - قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتوجه

(١) تفسير المنار - ٩ ص ٥ .

(٢) الانصاف على الكشاف لابن المنير ج ٢ ص ١٣٠ .

إلى الله بالاعتماد والدعاء فيقول : « على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

أى : على الله وحده وكلنا أمرنا ، فهو الذى يكفينا أمر تهديدكم ووعيدكم ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ربنا احكم بيننا وبين قومنا الذين ظلمونا بالحق وأنت خير الحاكمين ، لخلو حكمك عن الجور والحيث ، فقوله : « على الله توكلنا » ، إظهار للعجز عن جانب شعيب ، وأنه فى مواجهته لأولئك المستكبرين لا يعتمد إلا على الله وحده ، ولا يأوى إلا إلى ركنه المكين ، وحصنه الحصين . والجملة الكريمة تفيده الحصر لتقديم المعمول فيها .

وقوله « ربنا افتح بيننا . . . » ، لإعراض عن مجادلهم وهما وضعتهم بعد أن تبين له عنادهم وسقمهم . وإقبال على الله - تعالى - بالتضرع والدعاء . والفتح : أصله إزالة لأغلاق عن الشيء ، واستعمل فى الحكيم ، لما فيه من إزالة الاشكال فى الأمر . ومنه قيل للحاكم فأنج وفتح لفتح أغلاق الحق ، وقيل للحكومة : الفتاحة - بضم الفاء وكسر ها - .

أخرج البيهقي عن ابن عباس قال : ما كنت أدرى قوله - تعالى - « ربنا افتح . . . » حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها وقد جرى بينهما وبينه كلام : تعالى أفتحك ، تريد أقاضيك وأحاكك . .

وقوله . بالحق . بهذا القيد لإظهارا للنصفة والعدالة .

والخلاصة أنك إذا تأملت فى رد شعيب - عليه السلام - على ما قاله المستكبرون من قومه ، تراه يمثل أسمى ألوان الحكمة وحسن البيان ، فهو يرد على وعيدهم ونهديهم بالرفض التام لما يرغبون ، والبغض السافر لما يريدونه منه ، ثم بكل الأمور كلها إلى الله ، مظهرا الاعتماد عليه وحده ، ثم يتجه لإيـمه - سبحانه - بالدعاء ملتصقا منه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق الذى مضى به سنته فى التنازع بين المرسلين والكافرين ، وبين سائر المحقين والمبطلين .

وهذا نلمح أن المالاً من قوم شعيب قد ينسوا من استئالة شعيب وأتباعه إلى ملتهم ، فأخذوا يحذرون الناس من السير في طريقه ، ويحكي القرآن ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول : « وقال المال الذين كفروا من قومه ، لئن اتبعتم شعيباً إنكم لإحاسرون .

أى : قال الأشراف الكافرون من قوم شعيب لغيرهم : « لئن اتبعتم شعيباً إنكم لإحاسرون ، لشرفكم ومجدكم ، بإيثار ملته على ملة آبائكم وأجدادكم . وخامسون لثروتكم وربحكم المادى . لأن اتباعكم له سيحول بينكم وبين التطفيف فى الكيل والميزان وهو مدار غناكم واتساع أموالكم .

وقولهم هذا يقصدون به تنفير الناس من دعوة شعيب ، ونذيمتهم عن الايمان به ، وإغرائهم بالبقاء على عقائدهم الباطلة ، وتقاليدهم البالية لئى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، فهم لم يكتفوا بضلالهم فى أنفسهم ، بل عملوا على إضلال غيرهم . وقولهم هذا معطوف على قوله - تعالى - فيما سبق « قال المال الذين استكبروا من قومه ، . وليس رداً على شعيب ، لأنه لو كان كذلك لجاء مفصلاً بدون عطاف ، وقد أكدوا قولهم بعدة مؤكدات منها اللام الموطئة للقسم ، والجملة الاسمية المصدرية بيان . . . وذلك لئى يحددوا السامعين بأنهم ما يريدون إلا خيـرهم وعدم خسرانهم .

وحذف متعلق الخسران ليعم كل أنواعه الدينية والدنيوية .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : أين جواب القسم الذى وعظاته اللام فى قوله : « لئن اتبعتم . . . وجواب الشرط ؟ قلت : قوله : إنكم لإحاسرون ، ساد مسد الجوابين ، (١) .

وبعد هذه المحاورات والمجادلات التى دارت بين شعيب وقومه ، جاءت

الخاتمة التي حكاها القرآن في قوله : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » أي : فأخذتهم الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم هامدين صرعى لأحراركم بهم .

قال ابن كثير ماملخصه : أخبر - سبحانه - هنا بأنهم أخذتهم الرجفة ، كما أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالجلال . ، كما أخبر عنهم في سورة هود بأنهم أخذتهم الصيحة ، والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما نهكوا به في قولهم « يا شعيب أصلاتك تأمرك ... » ، فجاءت الصيحة فأسكتتهم . وقال في سورة الشعراء : « فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة » ، وماذا إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة « فأسقط علينا كسفا من السماء . . » ، فأخبر - سبحانه - أنهم أصابهم عذاب يوم الظلة ، وقد اجتمع عليهم ذلك كله ، أصابهم عذاب يوم الظلة . وهي سحابة أظلمت فيها شر من نار ولهب ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخذت الأجسام ، (١) .

ثم يعقب القرآن على مصرعهم بالرد على قولتهم : إن من ينفع شعيبا خاسر ، فيقرر على سبيل التهكم أن الخسران لم يكن من نصيب من انبغ شعيبا ، وإنما الخسران كان من نصيب الذين خالفوه وكذبوه ، فيقول : « الذين كذبوا شعيبا كان لم يخسروا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » .

أي : الذين كذبوا شعيبا وتطاولوا عليه وهددوه وأتباعه بالخراج من قريتهم ، كأنهم عندما حاقت بهم العقوبة لم يقيموا في ديارهم فاعمى البال ، يظلمهم العيش الرغيد ، والغنى الظاهر .

يقال : غنى بالمكان يعني ، أقام به وعاش فيه في نعمة ورغد .

والجمل السكرية استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم : « لنخرجنك يا شعيب

والذين آمنوا معك من قريبتنا، فكأن سائلاً، قال : فكيف كان مصيرهم ؟ فكان الجواب : الذين هددوا شعيباً ومن معه وأنذروهم بالآخراج كانت عاقبتهم أن هلكوا وحرموا من قريتهم حتى لا يكأنهم لم يقيموا بها ، ولم يعيشوا فيها مطلقاً ، لأنه متى انقضى الشيء صار كأنه لم يكن .

والأسم الموصول ، الذين ، مبتدأ ، وخبره جملة « كان لم يقيموا فيها » .

ثم أعاد القرآن الموصول وصلته لزيادة التقرير ، والإيذان بأن ما ذكر في حيز الصلاة هو الذي استوجب العقوبتين فقال : الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين .

أى : الذين كذبوا شعيباً وكفروا بدعوته كانوا هم الخاسرين ديناً ودنياً . وليس الذين اتبعوه كاذباً أو تلك المهلكون .

وبهذا القدر أكتفى القرآن عن التصريح بإنجائه هنا ، وقد صرح بإنجائه في سورة هود فقال : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه » .

قال صاحب الكشاف : وفي هذا الاستئناف والابتداء ، وهذا التكرير ، مبالغة في رد مقالة الملائشيعاء ، وتسفيه رأيهم ، واستهزاء بنصحتهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم .

وأخيراً تطوى السورة الكريمة صفحتهم مشبعة بإياهم بالتبكيك والاهمال من رسولهم وأخيهم في النسب فتقول : فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين .

الآسى : الحزن . وحقيقته اتباع الفئات بالغم . يقال : أسيت عليه - أسأ ، أى : حزفت عليه .

والمعنى فأعرض عنهم شعيب بعد أن أصابهم ما أصابهم من النعمة والعذاب وقال مقررًا لإياهم يا قوم : « لقد أبلغتكم رسالات ربي ، التي أرسلني بها إليكم من العقائد والأحكام والمواعظ ونصحت لكم ، بما فيه من إصلاحكم

وهذا يتكلم ، فكيف أحزن على قوم كافرين ، بذلك جهدى في سبيل هدايتكم ونجاتهم ، ولكنهم كرهوا النصيح ، واستجبر العصى على الهدى .
لا ، لن آسى عليهم . وإن أحزن من أجل هلاكهم ، لأنهم لا يستحقون ذلك .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن جانب من قصص نوح وهود ، وصالح ، لوط ، وشعيب مع أقوامهم . بعد أن بدأت بقصة آدم وإبليس وشراها بعد قليل تحدثنا حديثا مستفيضا عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل .

ويلاحظ أن سورة الأعراف قد اتبعت في حديثها عن هؤلاء الرسل الكرام التسلسل التاريخي ، وذلك لأهداف من أهمها .

١ - إبراز وحدة العقيدة في دعوة الأنبياء جميعا ، فأنت رأيت أن كل رسول أتى قومه ليقول لهم : " يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، يقولها ثم يسوق لهم بأسلوبه الخاص أنصع الدلائل ، وأقوى الحجج ، وخيراها من مختلف وجوه الارشاد ، لكي يقنعهم بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه .

٢ - تصوير وحدة طبيعة الإيمان ووحدة طبيعته الكفر في نفوس الناس على مدار التاريخ ، فالمؤمنون يلتفون حول رسولهم يصدقون قوله ، ويتأسون به في كل أحواله ويدافعون عن عقيدتهم بقوة وشجاعة ، والكافرون يستكبرون أن يرسل الله رسولا من البشر ، ويأبون بدافع الحق والعناد والتطاول الاستجابة لرجل منهم ، ويلقون التهم جزافا لكي يصرفوا الناس عنه .

وهكذا نرى أن نفوس المؤمنين تتشابه في إخلاصها وثباتها وصفاتها وحسن تقبلها للخير . بينما نفوس الكافرين تتشابه أيضا في ظلامها وقسوتها وفجورها وسوء تقبلها للهداية .

٣ - بيان العاقبة الطيبة التي انتهى إليها المؤمنون بسبب إيمانهم وصبرهم

وعلمهم الطيب ، والعاقة السيئة التي حاقت بالكافرين المستكبرين ، بسبب إعراضهم عن الحق ، واستهزائهم بأصحابه ، فكلما أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وبعد هذا الحديث الزاخر بالعظات والتعبر عن بعض الأنبياء مع أقوامهم تمضى السورة الكريمة فى سرد هداياتها فتسوق للناس ألوانا من سنن الله التى لا تتغير ولا تبدل ، لعل قلوبهم ترق ، ونفوسهم تنذكر ، وعقولهم تنعق .

وكان السورة الكريمة تقول للناس : لقد سقت لكم الكثير من أخبار الماضين . وقصصت عليكم ما فيه الذكر لكل قلب سليم من أخبار بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وأرى بكم كيف كانت عاقبة الأخيار ، وكيف كانت عاقبة الأشرار ، فاجتهدوا فى طاعة الله ، وسيروا فى طريق الأخيار فليسعدوا كما سعدوا . واجتنبوا سبيل الأشرار حتى لا يصيبكم ما أصابهم ، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه يعمل ولا يعمل ، وأن يبتلى الناس بالسرء والضراء فليعلم يضرعون ، وأن يفتح أبواب خيراته وبركاته لمن آمن به واتقاه ، وأبواب عقوباته لمن كفر به وعصاه .

واستمع إلى السورة الكريمة وهى تصور هذه المعانى وغيرها بأسلوبها الحكيم فتقول .

« وما أرسلنا فى قرية من نبيٍّ إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون (٩٤) ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عافوا وقالوا قد مَسَّ آبائنا الضراء والسرء فأخذناهم بفتنة وهم لا يشعرون (٩٥) ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون (٩٦) أفأمن

أَهْلُ الْقَرْيَةِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَّاكُمْ بِدُونِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقَرْيَةُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) .

هذه هي الآيات التي جاءت في السورة الكريمة بعد حديثها المتنوع عن بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وقبل حديثها المستفيض - الذي سنراه بعد قليل - عن قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل .

وقد بدئت بقوله - تعالى - « وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ، والبأساء : الشدة والمشدقة كالحرب والجدب وشدة الفقر . والضراء : ما يضر الإنسان في بدنه أو معيشته كالمرض والمصائب .

والمعنى : ذلك الذي قصصناه عليك يا محمد شأن الرسل السابقين مع أقوامهم الهالكين وقد جرت سنتنا أننا ما أرسلنا في قرية من نبي كذبه أهلها إلا أخذناهم وأنزلنا بهم قبل إهلاكنا لهم ألوانا من الشدائد والمصائب لعلهم ينقادون لأمر الله ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويكثر من التضرع إليه والاستجابة لهديه .

فالآية الكريمة لإشارة إجمالية إلى بيان أحوال سائر الأمم ، أثر بيان أحوال الأمم التي سبق الحديث عنها وهي أمة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم السلام - .

والمقصود منها التحذير والتخويف لكفار قريش وغيرهم . لينزجروا عن الضلال والعناد ، ويستجيبيوا لله ولرسوله .

ولإنما ذكر القرية لأنها مجتمع القوم الذين بعث إليهم ، ويدخل تحت هذا اللفظ المدينة لأنها مجتمع الأقوام .

وقوله : من بني ، فيه حذف وإضمار والتقدير : من بني كذبه قومه أو أهل القرية لأن قوله : إلا أخذنا أهلها ، لا يترتب على الأرسال ، وإنما يترتب على التكذيب والعصيان . وه من ، لتأكيد النفي .

والاستثناء في قوله : إلا أخذنا أهلها ، مفرغ من أعم الأحوال ، وأخذناه في موضع نصب على الحال من فاعل ، أرسلنا ، أي : وما أرسلنا في قرية من القرى المهلكة بسبب ذنوبها نبيا من الأنبياء في حال من الأحوال إلا حال كوننا آخذين أهلها بالبأساء والضراء . قبل إنزال العقوبة المستحقة لهم .

وجملة : لعلمهم يضرعون ، تعليلية . أي : فعلنا ما فعلنا لكي يتضرعوا ويتدللوا ويتوبوا من ذنوبهم .

فما يأخذ الله به الغافلين من الشدائد والمحن ليس من أجل التسلية والتشفي - تعالى الله عن ذلك - وإنما من أجل أن ترق القلوب الجامدة ، وتمنظ المشاعر الخاملة ، ويتجه البشر الضعاف إلى خالقهم ، يتضرعون إليه ويستغفرونه ، عما فرط منهم من خطايا .

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان ابتلائه للناس فقال : ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ، المراد بالسيئة ما يسوء ويحزن كالشدائد والأمراض . وبالحسنة السمة والصحة وأنواع الخيرات .

أي : ثم بعد أن ابتلينا هؤلاء الغافلين بالبأساء والضراء رفعنا ذلك عنهم ، وابتليناهم بضده ، بأن أعطيناهم بدل المصائب نوما ، فإذا الرخاء ينزل بهم مكان

الشدة ، واليسر مكان الحرج ، والعافية بدل الضر ، والذرية بدل العقم .
والكثرة بدل القلة ، والأمن محل الخوف .

قال الآلوسی : وقوله « ثم بدلنا ، معطوف على « أخذنا » داخل في حكمه ،
وهو - أي بدلنا - متضمن معنى أعطى الناصب للمفعولين وهما هنا الضمير
المحذوف والحسنة أي : أعطيناهم الحسنة في مكان السيئة ومعنى كونها في مكانها
أنها بدل منها .

ويرى بعض العلماء أن لفظ « مكان » مفعول به لبدلنا وليس ظرفا ، والمعنى
بدلنا مكان الحال السيئة الحال الحسنة ، فالحسنة هي المأخوذة الحاصلة في مكان
السيئة المتروكة (١) .

وقوله « حتى عفوا » أي : كثروا وقموا في أنفسهم وأمرأهم . يقال : عفا
الذبات ، وعفا الضحم إذا كثر وتكاثف . وأعفيته . أي : تركته يعفو
ويكثر ، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - « وأعفوا للحى ، أي :
وفروها وكثروها .

فإذا كان موقفهم من ابتلاء الله إياهم بالشدائد تارة وبالنعيم أخرى ؟ لقد
كان موقفهم يدل على فساد فطرتهن ، وانحطاط نفوسهن ، وعدم انعاظهن بما تجرى
به الأقدار . وبما بين أيديهم من سرور وضرر تحمل كل عاقل على التفكير والاعتبار .

استمع إلى القرآن وهو يصور موقفهم فيقول : « وقالوا قد مس آباءنا
الضرر والسراء » .

أي : أنهم حينما رأوا ألوان الخيرات بين أيديهم بعد أن كانوا في بأساء
وضرر ، لم يعتبروا ولم يشكروا الله على نعمه ، بل قالوا ببقاء وجهل . قد مس
آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر ، وتناوبهم ما ينفع وما يضر ، ونحن مثلهم

بينما ما أصابهم ، وقد أخذنا دورنا من الضراء كما أخذوا ، وجاء دورنا في راء فلنفتنمها في إرواء شهواتنا . وإشباع متعنا ، فتلك عادة الزمان في أبنائه ' داعى لأن فنظر إلى السراء والضراء على أنهما نوع من الابتلاء والاختبار .

وهذا شأن الغافلين الجاهلين في كل زمان ومكان ، إنهم لا يعتبرون بأى من ألوان العبر ، ولا يستشعرون في أنفسهم تحرجا من شىء يعملونه .

وإن قولهم هذا ليوحى بحالة نفسية خاصة ، حالة عدم المبالاة والاستهتار بى حالة أكثر ما تكون مشاهدة في أهل الرخاء والجاه . فهم يسرفون بذرون بدون تحرج ، ويرتكبون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان بدون اثرات ، وتغشاهم العبر من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيانهم وعن شمائلهم ، مع كل ذلك لا يعتبرون ولا يتعظون .

هذا شأنهم ، أما المؤمنون فإنهم ليسوا كذلك ، وإنما هم كما وصفهم رسول - صلى الله عليه وسلم - في قوله : « عجباً لأمر المؤمن : إن أمره كله بر ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته ضراء شدة فذكر فكان خيرا له . إن أصابته ضراء صيرة فكان خيرا له . »

ولم يترك القدر أولئك الغافلين بدون قصاص ، وإنما فاجأهم بالعقوبة التى سببهم ، قال - تعالى - « فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ، أى : فكان نية بطرهم وأشرهم وغفلتهم أن أخذناهم بالعذاب فجأة ، من غير شعور منهم لك ، ولا خطور شىء من المكار بهيأتهم ، لأنهم كانوا - لغباتهم - نون أنهم سيمعيشون حياتهم في نعم الحياة ورغدها بدون محاسبة لهم على الهلهم القبيحة ، وأقوالهم الذميمة .

فالجلة الكريمة تشير إلى أن أخذهم بالعقوبة كان ألما شديدا ، لأنهم فرجثوا مفاجأة بدون مقدمات . وجملة « وهم لا يشعرون » حال من المفعول به في أخذناهم ، مؤكدة لمعنى البغتة .

ثم بين - سبحانه - أن سنته قد جرت بفتح أبواب خيرااته المحسنين ،
ويازال نعمه على المكذبين الضالين فقال : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا
لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » .

البركات : جمع بركة : وهي ثبوت الخير الإلهي في الشيء ، وسمى بذلك
لثبوت الخير فيه كما ثبت الماء في البركة .

قال الراغب : « ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس ، وعلى
وجه لا يحصى ولا يحصر ، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو
مبارك وفيه بركة » (١) .

والمعنى : ولو أن أهل تلك القرى المهاجرة آمنوا بما جاء به الرسل . واتقوا
ما حرمه الله عليهم ، لا تبتغواهم بالخير من كل وجه . ولوسعنا عليهم الرزق سعة
عظيمة ، ولعاشوا حياتهم عيشة رغدة لا يشوبها كدر ، ولا يخالطها خوف .
وفي قوله : « ففتحنا » استعارة تبعية ، لأنه شبه تيسير البركات وتوسعتها
عليهم بفتح الأبواب في سهولة التناول .

وقيل المراد بالبركات السماوية الماطر ، وبالبركات الأرضية النبات والثمار
وجميع ما فيها من خيرات .

وقوله « ولكن كذبوا » فأخذناهم بما كانوا يكسبون ، بيان لموقفهم الجحودي ،
أي : « ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا الرسل الذين جاءوا لهدايتهم
فكانت نتيجة تكذيبهم وتناديهم في الضلال أن عاقبتهم بالعقوبة التي تناسب
جرمهم واكتسابهم للمعاصي ، فذلك هي سنتنا التي لا نتخلف ، نفتح للمؤمنين
المتقين أبواب الخيرات ، وننتقم من المكذبين الضالين بفنون العقوبات » .

وقد يقال : « إننا ننظر فترى كثيرا من الكافرين والعصاة مفتوحا عليهم
في الرزق والقوة والنفوذ وألوان الخير ، ونرى كثيرا من المؤمنين مضيقا

اليهم في الرزق وفي غيره من وجوه النعم ، فأين هذا من سنة الله التي حكمتها
لاية للكريمة ؟

والجواب على ذلك أن الكافرين والعصاة قد يبسط لهم في الأرزاق وفي
وإن الخيرات بسطا كبيراً ، ولكن هذا على سبيل الاستدراج كما في قوله
- تعالى - « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا
رحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » .

وعما لا شك فيه أن الابتلاء بالنعمة الذي مر ذكره في الآية السابقة ، ثم
لنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا . . . ، لا يقل خطراً عن الابتلاء بالشدة .
قد ابتلى الله كثيراً من الناس بالوأن النعم فأشروا وبطروا ولم يشكروه عليها
أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وشتان بين نعم تساق لإنسان على سبيل الاستدراج في الشرور والآثام
تكون فقرة على صاحبها لأنه يعاقب عقاباً شديداً بسبب سوء استعمالها ، وبين
نعم التي وعد الله بها من يؤمنون ويتقون . إنها نعم مصونة عن الحق والسلب
الخوف ، لأن أصحابها شكروا الله عليها . واستعملوها فيما خلقت له ، فكانت
نتيجة أن زادهم الله غنى على غناهم ، وأن منحهم الأمان والاطمئنان وذلك
بذل الله يؤتيه من يشاء .

ثم يتجه القرآن إلى الغافلين ، ليوقظ فيهم مشاعر الخوف من بأس الله
عقابه فيقول : أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . .
البيات : قصد العدو ليلاً . يقال : يبت القوم العدو بياتاً ، إذا أوقعوا به
بلا ، وهو حال بمعنى بائتين .

والاستفهام للإنكار والتعجب من أمر ليس من شأنه أن يقع من العاقل .
المراد بأهل القرى : أهل مكة وغديرهم من القرى التي بعث إليها الرسول
صلى الله عليه وسلم .

وقيل المراد بهم الأمة المحمدية من عصر النور الأعظم إلى يوم القيامة

لتعتبر بما نزل بغيرها كما يرشد إليه قوله - تعالى - بعد ذلك : أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها . . .

وقيل المراد بهم من ذكر حالهم فيها تقدم من القرى المهلكة بسبب ذنوبها - قال الجمل : والفاء للعطف على ما أخذناهم بغتة ، وما بينهما وهو قوله : ولو أن أهل القرى . . إلى هنا ، اعتراض بين المدطوف والمعطوف عليه جرى به المسارعة إلى بيان أن الأخذ المذكور إنما هو بما كسبت أيديهم . والمعنى : أبعد ذلك الأخذ أن أهل القرى أن يأتيتهم بأسنا بياتا وهم نائمون (١) ؟

فآية الكريمة تحذر الناس من الغفلة عن ساعة الله ، وتحثهم على التيقظ والاعتبار : وقوله : أو أن أهل القرى ، إنكار بعد إنكار للمبالغة في التوبيخ والتشديد أن يأتيتهم بأسنا ضحى وهم ينامون ، أى : أن يأتيتهم عقابنا في ضحوة النهار وانسباط الشمس ، وهم لاهون لاعبون من فرط الغفلة .

فقد خوفهم - سبحانه - ينزل العذاب بهم في الوقت الذي يكونون فيه في غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل ، وحال الضحى بالنهار لأنه الوقت الذي يغلب على المرء التشاغل فيه بالذات .

وقوله : أفأمنوا مكر الله ، تكرير لمجموع الإنكارين السابقين . جمعا بين التفريق قصدا إلى زيادة التحذير والإنذار .

والمكر في الأصل الخداع ، ويطلق على السر يقال : مكر الليل أى : ستر بظلمته ما هو فيه ، وإذا نسب إليه - سبحانه - فالمراد به استدرأجه للعبد العاصي حتى يهلكه في غفلته تشبيها لذلك بالخداع .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم رجع فعطف بالفاء قوله : أفأمنوا مكر الله ؟

قلت : هو تكرير لقوله : أفأمن أهل القرى ، ومكر الله : استعارة لاخذ

مبد من حيث لا يشمر ولا استدراج ، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوه السكين والبيات والغيلة . وعن ربيع بن خثعم أن ابنته قالت له : ما لي أراك لا تنام والناس ينامون ؟ فقال : ابنتاه إن أباك يخاف البيات . أراد قوله : أن يأنبهم بأسنا بياتنا (١) .

والمعنى : أقاموا مكر الله وتديره الخفي الذي لا يعلمه البشر فغفلوا عن قدرتنا على إنزال العذاب بهم بياتاً أو ضحوة ؟ لئن كانوا كذلك فهم بلا ريب عن الصراط لنا كبون ، وعن سنن الله في خلقه غافلون ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، أى : إلا القوم الذين خسروا أنفسهم وعقولهم ، ولم يستفيدوا شيئاً من أنواع العبر والعظات التي بثها الله في أنحاء هذا الكون . هذا ، ويرى الإمام الشافعي وأتباعه أن الأمن من مكر الله كبيرة من الكبائر ، لأنه استرسال في المعاصي اتسكالا على عفو الله .

وقال الحنفية إن الأمن من مكر الله كفر كاليأس ، لقوله - تعالى - : إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وقوله : فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

ثم بين - سبحانه - أن من الواجب على الأحياء الذين يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين المهلكين ، الذين أهلكتهم ذنوبهم ، وجنت عليهم غقاتهم ، وعوقبوا على استهتارهم وغرورهم . . . من الواجب على هؤلاء الأحياء أن يعتبروا ويتعظوا ويحسنوا القول والعمل حتى ينجو من العقوبات .

قال - تعالى - : أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم .

الاستفهام للانكار والتوبيخ . ويهد : أى يقين ، يقال : هداه السبيل أو الشئ ، وهداه إليه ، إذا دله عليه وبينه له .

أى : أو لم يتبين طؤلاء الذين يعيشون على تلك الأرض التي ورثوها بعد أهلها المهلكين ، أننا في قدرتنا أن نزل بهم العذاب بسبب ذنوبهم كما أنزلناه بأولئك المهلكين .

والمراد بالذين يرثون الأرض من بعد أهلها ، أهل مكة ومن حولها الذين أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - لهدايتهم . وقيل المراد بهم الأحياء في كل زمان ومكان الذين يخلفون من سبقهم من الأمم .

قال الجمل : وفاعل يهد ، فيه وجوه أظهرها : أنه المصدر المؤول من أن وما في حيزها والمفعول محذوف . والتقدير : أو لم يهد أى يبين ويوضح للوارثين مآلهم وعاقبة أمرهم لإصابتنا إياهم بذنوبهم لو شقنا ذلك . . . (١) .

وقوله : ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ، جملة مستأنفة لإثبات حصول الطبع على قلوبهم .

أى : ونحن نطبع على قلوبهم ونختم عليها ، بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان ، فهم لذلك لا يسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر واتعاط . والذى يتأمل في الآيات السابقة يراها تحذر الناس بأصاليب متنوعة حكيمة من الغفلة عن العظات والعبر ، وتحضهم على التخلص من الأمن الكاذب ، والشهوات المردية . والمتع الزائلة .

وما يريد القرآن بهذا أن يعيش الناس فلقين ، يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم في لحظة من ليل أو نهار .

كلا ، ما يريد منهم ذلك لأن القلق الدائم من المستقبل ، يشل طاقة البشر ، وقد ينتهى بهم إلى اليأس من العمل والإنتاج وتنمية الحياة .

ولأنما الذى يريده القرآن منهم أن يتعظوا بآيات الله في كونه ، وأن يكونوا دائماً على صلة طيبة به ، وأن يتغنوا فيما آتاهم الله من فضله الدار الآخرة دون

أن ينسوا نصيبهم من الدنيا، ولا يفتروا بطراوة العيش ، ورخاء الحياة، وقوة الجاه ، كى لا يبقوهم ذلك إلى الفساد والطغيان ، والاستهتار والانحلال .

وإذا كان القرآن في هذه الآية قد حذرو وأنذر ، فلأنه يعالج كل أمة وجماعة بالطب الذى يناسبها ويلانمها ، فهو يعطيها جرعات من الأمن والثقة والطمأنينة حين يرسخ الإيمان في قلوب أنبائها ، وحين يراقبون خالقهم في سرهم وعلمهم ، ويشكرونه على نعمه ، وهو يعطيها جرعات من التحذير والتخويف ، حين تستولى الشهوات على النفوس ، وحين تصبح الدنيا يمتعها ولذاتها المطلب الأكبر عند الناس .

هذا وبعد أن انتهت السورة الكريمة من الحديث عما جرى لبعض الأنبياء مع أقوامهم ، ومن بيان سنن الله في خلقه ، وبعد أن حذرت وأنذرت ، انتهت بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتطلع على النتيجة الأخيرة لا ابتلاء تلك القرى ، وما تكشف عنه من حقائق تتعلق بطبيعة الكفر وطبيعة الإيمان فقالت : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها .

أى : تلك القرى التى طال الأمد على تاريخها ، وجعل قرمك أيها الرسول الكريم أحوالها . وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم شعيب ، نقص عليك ما فيه العظات والعبر من أخبارها . ليكون في ذلك تسلية لك وتثبيتاً لفؤادك ، وتأيداً لصدقك في دعوتك .

قال الزمخشري : قوله - تعالى - : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، كقوله : « هذا بعلي شيخاً » في أنه مبتدأ وخبر وحال . ويجوز أن يكون القرى صفة لتلك ونقص خبراً ، وأن يكون « القرى نقص » خبراً بمدخبر . فإن قلت : ما معنى « تلك القرى » حتى يكون كلاماً مفيداً ؟ قلت : هو مفيد ولكن بشرط التقييد بالحال كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قولك : هو الرجل الكريم . فإن قلت : ما معنى الاخبار عن القرى بنقص عليك من

أنبائها ؟ قلت : معناه أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أخبارها ولها أنباء أخرى لم نقصها عليك ، (١) .

ولما قص الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - أنباء أهل هذه القرى ، لأنهم اغتروا بطول الأمال مع كثرة النعم ، فتوهموا أنهم على الحق ، فذكرها الله لمن أرسل إليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليحترسوا عن مثل تلك الأعمال ، وليعتبروا بما أصاب الغافلين الطاغين من قبلهم .

ثم بين - سبحانه - أنه قد أعذر إليهم بأن وضع لهم الحق بالحجج على أسنة الرسل فقال : « ولقد جاءتهم رسالهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » أي : ولقد جاء إلى أهل تلك القرى رسالهم بالدلائل الدالة على صدقهم ، فما كانوا ليؤمنوا بصدقهم المعجزات من رسالهم بما كانوا قد كذبوا به قبل رؤيتها منهم ، لأنهم لجحودهم وعنادهم نجرت قلوبهم ، واستوت عندهم الخالتان : حالة بحى الرسل بالمعجزات وحالة عدم مجيئهم بها .

وقيل إن المعنى : ما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ورددناهم إلى دار التكليف ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل إهلاكهم ، ونظيره قوله - تعالى - « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » .

وقوله : « كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » أي : « مثل ذلك الطبع الشديد المحكم الذى يطبع الله به على قلوب أهل تلك القرى المهلكة ، يطبع الله على قلوب أولئك الكافرين الذين جاءوا من بعدهم بسبب إيقارهم الضلالة على الهداية .

ثم كشف القرآن عن طبيعتهم فقال : « وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » .

أي : ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء بعهودهم فى الإيمان والتقوى ،

بل الحال والشأن أننا علمنا أن أكثرهم فاسقين ، أى خارجين عن طاعتنا ،
تاركين لأوامرنا ، منتهكين لحرماتنا .

وبعضهم يجعل الضمير فى « أكثرهم » لأهل القرى المهلكة ، وأنهم كانوا
إذا عاهدوا الله بعدم نقضه ولم يوفوا به . والأول أرجح .

والمراد بالعهد ما عاهدهم الله عليه من الإيمان والتقوى والعمل الصالح .
ومن فى قوله « من عهد » مزية للاستغراق وتأکید النفي .

ولأنما حكم على الأقلية منهم بنقض العهد ، لأن الأقلية منهم قد آذوا
ووفوا بما عاهدوا الله عليه من الإيمان والعمل الصالح .

وهذا لون من الاحتراس الذى امتاز به القرآن فى عرضه للحقائق ، فهو
لا يلقى التهم جزافاً ، وإنما يعطى كل ذى حق حقه ، فإن كان الأكثرون قد استحقوا
الذم اكفرهم ونقضهم لمهودهم ، فإن هناك قلة آمنت فاستحققت الممدح والثناء .

قال الألوسى : وهـ إن ، مخففة من الثقيلة وضمير الشأن محذوف ، ولا عمل
لها فيه لأنها ملغاة على المشهور . وذهب الكرقيون إلى أن « إن » هنا نافية
واللام فى « لفاسقين » بمعنى إلا ، أى : ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين « (١) » .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة التى جاءت فى أعقاب الحديث عن أهل
القرى المهلكة ، قد بينت لنا السنن الإلهية فى سعادة الأمم وشقاها ، وكشفت
لنا عن حكمته - سبحانه - فى ابتلائه لعباده بالسراء تارة وبالضراء أخرى ،
وحضت الناس على المراقبة لله وشكره على نعمائه ، وحذرهم من الغفلة
والإمان من مكره - سبحانه - فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .
ثم انتهت فى النهاية بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فأطلعته على الطبائع الغالبة فى البشر حتى لا يضيق ذرعاً بأحوال من
أرسل إليهم .

ثم عادت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن قصة أخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فحدثنا عن قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل بعد حديثها قبل ذلك عن شعيب الذي كان معاصراً لموسى - عليهما السلام - .

فأنت ترى أن السورة الكريمة قد التزمت الترتيب التاريخي في حديثها عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

ولقد قلنا من قبل إن الأسلوب البارز في هذه السورة الكريمة وهي تدعو للناس إلى وحدانية الله يتجلى في تذكيرهم بنعم الله التي لا تحصى ، وتخويفهم عن طريق سرد أحوال الأمم الماضية ، بسبب مخالفتها لرسالة ، وعموها عن أمر ربها ، ولعل هذا هو السر في أنها ساقط لنا قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أهمهم الذين أهلكوا بسبب كفرهم ولم تذكر لنا - مثلاً - قصة إبراهيم مع قومه مع أن لوطاً - عليه السلام - كان معاصراً له ، وذلك لأن قوم إبراهيم لم يهلكوا ، ولم يلتبس هو من ربه ذلك ، بل اعتزلهم وما يعبدون من دون الله .

فالسورة الكريمة قد التزمت في مجموعها الحديث عن مصارع المكذبين ليكوفوا عبرة لكل عاقل ، وذكرى لكل عيّد منيب .

ومن هنا فهمي لاختلافنا عن قصة موسى من أولها كما جاء في سورة القصص مثلاً وإما هي تبدأ حديثها عنها بالفرض الذي جاءت من أجله وهو التخويف من عواقب التكذيب فتقول : « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائته فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

وهكذا تصرح السورة الكريمة في أول آية من قصة موسى بالهدف الذي سيقت من أجله وهو النظر والتدبر في عاقبة المفسدين .

ثم بعد ذلك تحدثنا حديثاً مستفيضاً زاحراً بالعبر والعظات عما دار بين موسى وفرعون من محاورات ومجادلات انتهت بخرق فرعون وقومه ثم

عما دار بين موسى وبين بني إسرائيل من مجادلات تدل على أصالتهم في الكذب والافساد والفسوق عن امر الله.

والآن فلنستمع إلى السورة المكرمة وهم تحكى لنا قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل في نحو سبعين آية نبدؤا بقوله - تعالى - :

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ مَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ نَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّاحِرُ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأِذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا تَوْكَّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسَحَرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغَلَبُوا هَٰنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ

الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ
أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا
أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَا قُطْمَنٌ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ
ثُمَّ لَا صِلَابَ لَكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥)
وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا
صَبْرًا وَتُوفِنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) .

هذا هو الدرس الأول من قصة موسى مع فرعون وفيه نرى مدار بين
موسى وفرعون من محاورات ، ومدار بين موسى والسحرة من مناقشات
ومساجلات انتهت بإيمان السحرة وهم يضرعون إلى الله بلسان صادق ، وقلب
سلم فيقولون - كما حكى القرآن عنهم - : ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا
مسلمين ، . ولنبدأ في تفسير آيات هذا الدرس من أولها فنقول :

قوله - تعالى - : ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ،
معطوف على ما قبله من قصص الأنبياء الذين تحدث عنهم السورة الكريمة .
وهو موسى - عليه السلام - هو ابن عمران من نسل لاوي بن يعقوب .
ويرى بعض المؤرخين أن ولادة موسى كانت في حوالي القرن الثالث عشر قبل
الميلاد ، وإن بعثته كانت في عهد منفتحاح بن رمسيس الثاني .

وفرعون : لقب للملوك مصر القدماء ، كلقب قيصر الملوك الروم ، وكسرى
لملوك الفرس ، والمعنى : ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل الذين سبق الحديث
عنهم - وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - بعثنا من بعدهم موسى
بآياتنا التي تدل على صدقه فيما يبلغه عن ربه إلى فرعون وملئه ، وهم أشراف
قومه ، ووجهاء دولته .

قال بعض العلماء : « ولم يقل - سبحانه - إلى فرعون وقومه ، لأن
الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستبعبدين لبني إسرائيل ، ويبدم امرهم ،

وليس لسائر المصريين من الأمر شيء ، ولأنهم كانوا مستعبدين - أيضا
ولكن الظالم على بنى إسرائيل الغرباء كان أشد (١) .

وقوله : بآياتنا ، متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعول بعثنا ، أو صفة
لمصديه . أى : بعثناه - عليه السلام - ملتبساً بها . أو بعثناه بعثاً
ملتبساً بها .

والمراد بها الآيات التسع وهى العصا ، واليد البيضاء ، والسفون ، ونقص
الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

ثم بين - سبحانه - فى الآية الأولى من هذه القصة كيف تلقى فرعون
وهلهة دعوة موسى وآياته فقال : ، فظلموا بها ، أى : فكفروا بهذه الآيات
تكبراً وجحوداً ، فكان عليهم وزر ذلك ، وقد عدى الظلم هنا بالبلاء مع أنه
يتمدى بنفسه لتضمنه معنى الكفر ، إذ هما من واحد قال - تعالى -
لئن الشرك لظلم عظيم .

ويجوز أن تكون الباء للسببية والمفعول محذوف ، أى : ظلموا أنفسهم
بسببها بأن عرضوها للعقاب المهيئ . أو ظلموا الناس بصددهم عن الإيمان
بهذه الآيات ، واستمروا على ذلك إلى أن حق عليهم العذاب الأليم ،

ثم ختمت الآية بالأمر بالتدبر فى أحوال هؤلاء الظالمين وفيما حل بهم من
سوء المصير فقال - تعالى - فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، أى : فانظر
أيها الرسول الكريم - أو أيها العاقل - كيف كانت عاقبة فرعون وهلمته
الذين أفسدوا فى الأرض ، لقد أخذهم الله بذنوبهم فأغرقهم فى اليم ، وموسى
وقومه ينظرون اليهم ، وتلك عاقبة كل من طغى وآثر الحياة الدنيا .

ووضع - سبحانه - المفسدين موضع ضميرهم للإيداع بأن الظلم مستلزم
للافساد .

وذكر كيف ، خبر لكان مقدم عليها لاقتضاءاته الصدارة . وعاقبة ،

إسمها ، وهذه الجملة الاستفهامية في محل نصب على إسقاط حرف الجر ، إذ
التقدير : فانظر بعين عقلك إلى كيفية ما فعلناه بهم .

وهكذا نرى السورة الكريمة تريننا في أول آية من هذه القصة الغرض الذي
سيقت من أجله وهو التدبر في عواقب المكذابين ، والتحذير من المعصير
الذي ساروا إليه ، ونهى الناس في كل زمان ومكان عن السير على منوالهم .
والسورة الكريمة عندما تريننا ذلك في مطلع هذه القصة تكون متناسقة كل
التناسق مع أسلوبها الذي إختارته في دعوة الناس إلى وحدانية الله وإلى مكارم
الأخلاق ، وهو أسلوب التذكير بالنعمة ، والتحذير من عواقب الظلم والظلمين
- كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في التمهيد بين يدي السورة -

ثم بعد هذا التنبيه الاجمالي إلى مآل المفسدين ، أخذت السورة نحكي لنا
ما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون بصورة مفصلة فقالت :
« وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ، أي : قال موسى - عليه
السلام - لفرعون في أدب وإعزاز إني رسول من رب العالمين ، أرسلني
إليك لأدعوك لعبادته والخضوع له .

ثم بين له أنه بمقتضى هذه الرسالة لا يقول إلا كلمة الحق فقال : « حقيق
على الا أقول على الله إلا الحق ، أي : جدير بالأقول على الله إلا القول الحق
و « حقيق ، : صفة رسول ، أو خبر لمبتدأ محذوف أي : انا حقيق .
أو خبر بعد خبر . و « على ، بمعنى الباء .

وقرأ بني « حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق ، وقرأ عبد الله ابن مسعود
« حقيق ألا أقول ،

وقرأ نافع « حقيق على ان لا أقول على الله إلا الحق ، أي : واجب وحق
على ان لا اخبر عنه - تعالى - إلا بما هو حق وصدق .

ثم قال : « قد جئتكم ببينة من ربكم ، أي : قد جئتكم بحجة قاطعة من الله
أعطانيها دليلا على صدقي فيما جئتكم به . وفي قوله « من ربكم إشعار بأن
ما جاء به من حجج وبراهين لم يكن من صنعه . وإنما هو من عند رب
العالمين ، الذي بيده ملكوت كل شيء .

« فأرسل معي بنى إسرائيل ، أى : قد جئتمكم ببينة عظيمة الشأن في الدلالة على صدقي ، فأطلق بنى إسرائيل من أمرك واعتقهم من رافك وقهرك ، ودعهم يخرجون أحراراً من تحت سلطانك ليذهبوا معي إلى دار سوى دارك .

وإلى هنا يكون موسى - عليه السلام - قد بين فرعون طبيعة رسالته وطالبه برفع الظلم عن المظلومين فإذا كان رد فرعون .

يحكى القرآن رده فيقول : « قال إن كنت جئت بآية ، أى : بمعجزة تشهد بصدقك من عند من أرسلك كما تدعى ، فأت بها ، أى : فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك » إن كنت من الصادقين ، فيدعوك أنك من الملتزمين لقول الحق .

وعبر بأن المفيدة للشك في تحقيق مضمون الجملة الشرطية ، للإبذان بأنه ليس معتقداً في صدق موسى - عليه السلام .

وهنا يحكى لنا القرآن ما أسرع بفعله موسى للرد على فرعون فقال : « فأتني عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، : أى فأتني موسى عصاه التي كانت بيده أمام فرعون فإذا هي ثعبان مبين ، أى : ظاهر بين لاخفاء في كونه ثعباناً حقيقياً يسمى في خفة وصرعة كأنه جان .

والثعبان الذكر العظيم من الحيات ، وقيل : لأنه الحية مطلقاً : وقد ذكر بعض المفسرين روايات عن ضخامة هذا الثعبان وأحواله ، إلا أننا أضربنا عنها صفحاً لضعفها .

ثم حكى القرآن معجزة أخرى لموسى تشهد بصدقه فقال : « ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ، النزع : إخراج الشيء من مكانه . أى : وأخرج موسى يده من درعه بعد أن أدخلها فيه أر من طوق فيصه ، أو من إبطه فإذا هي بيضاء بياضاً عجيباً خارقة للعادة من غير أن يكون بها علة من مرض أو غيره . قيل : لأنه كان لها شعاع يغلب ضوء الشمس :

قال الآلوسى : قوله ، فإذا هي بيضاء للنظارين ، أى : بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادة يجتمع عليه النظر . . وقيل المعنى : بيضاء لأجل النظر لا أنها بيضاء فى أصل خلقتها ، لأنه - عليه السلام - كان آدم - أى أسمر - شديدا لآدمه فقد أخرج البخارى عن عبد الله بن عمر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط ، وعنى - صلى الله عليه - وسلم - بالزط جنسا من السودان والهنود (١) .

وبذلك يكون موسى قد أتى بالبينة التى تدعو فرعون وملائه إلى الإيمان به فهل آمنوا ؟ كلا إنهم ما آمنوا بل استمروا فى ضلالهم ، وحكى لنا القرآن أن حاشية فرعون السيئة ، وأصحاب الجاه والغنى فى دولته غاظمهم ما جاء به موسى ، يدل على ذلك قوله - تعالى - ، قال الملائة من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم .

أى : قال الأشراف من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، أى : راسخ فى علم السحر ، ماهر فيه . . ولم يكتفوا بهذا القول الباطل ، بل أخذوا يشيرون الناس على موسى ، وبهولون لهم الأمر ليقفوا فى وجهه فقالوا ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره .

أى : يريد هذا الساحر أن يسلب منكم ملائكتكم ، وأن يصبح هو ملائكة مصر ، فإذا تأمرون ، لاتقاء هذا الخطر الدائم ؟ وبماذا تشيرون فى أمره ؟ فهو من الأمر بمعنى المشاورة . يقال : أمرته فأمرنى . أى : شاورته فأشار على .

قال صاحب الكشف : فإن قلت قد عزى هذا الكلام إلى فرعون فى سورة الشعراء حيث قال : ، قال للملائة حوله - أى قال فرعون للملائة حوله - إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فإذا تأمرون ؟ وهنا عزى إلى الملائة فكيف الجمع ، قلت : قد قاله هو وقالوه هم فحكى قوله هناك

وقولهم ههنا . أو قاله ابتداء . فلما قلته منه الملائة فقالوه لأعقابهم . أو قالوه عنه للناس عن طريق التبليغ كما يفعل الملوك ، يرى الواحد منهم الرأى فيكلم به من يليه من الخاصة ، ثم تبلغه الخاصة العامة . . وقولهم : : فإذا تأمرون ، من أمرته فأمرنى بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأى : وقيل : : فإذا تأمرون ، من كلام فرعون ، قاله الملائة لما قالوا له : إن هذا ساحر عليم يريد أن يخرجكم ، كأنه قيل : فإذا تأمرون ؟ فأجابوه : أرجه وإخاه . . (١) .

ثم حكى القرآن ما أشار به الملائة من قوم فرعون فقال : قالوا أرجه وإخاه وأرسل في المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم . .

أرجه : أصله أرجته . وقد قرئ به - حذفت الهمزة وسكنت الهاء ، شبيها للضمير المنفصل بالضمير المتصل . والإرجاء التأخير . يقال : أرجيت هذا الأمر وأرجأته ، إذا أخرته . ومنه : ترجى من تشاء منهم . .

والمدائن : أى : البلاد جمع مدينة ، وهى من مدن بالمكان - كنصر - إذا أقام به ، ود حاشرين ، أى : جامعين ، يقال : حشر الناس - من باب نصر وضرب - يحشرون حشرا إذا جمهم ، ومنه : يوم الحشر والمحشر .

والمعنى : قال الملائة من قوم فرعون حين استشارهم فى أمر موسى : أخر أمره وأمر أخيه - ولا تتمجل بالقضاء فى شأنهما ، وأرسل فى مدائن ملكك رجالا أو جماعات من الشرطة يحمسون إليك أسيرة المهرة ، لئكى يقفوا فى وجه هذا الساحر العليم ، ويكشفوا عن سحره ويبدلوه بسحر مثله أو أشده ، وكان السحر فى عهد فرعون من الأعمال الغالبة التى يحسنها كثير من أهل ملكته .

وقال بعضهم : الأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر ، وهو أنهم بقوته ، فقالوا له : أخره ليتبين حاله للناس .

وقال الجشمي : تدل الآية على معجزة عظيمة لموسى ، وتدل على جهل فرعون وقومه ، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لا يدركه إلا الله وتدل على أن من عادة البشر أن من رأى أمراً عظيماً أن يعارضه ، فلذلك دعا فرعون بالسحرة ... وتدل على أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال ، لذلك قالوا : يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فيدل على أن من أقوى الدواعي إلى ترك الدين ، المحافظة على الرئاسة والمال والجاه كما هي عادة الناس في هذا الزمن ، (١) .

وقوله ، في المدائن ، متعلق بأرسل ، و ، حاشرين ، نعمت لمخدوف أى : رجالاً حاشرين . ومفعوله مخدوف . أى : حاشرين السحرة بدليل ما بعده . ولا يذكر السياق القرآنى بعد ذلك أنهم أرسلوا إلى السحرة ، ولا أنهم جمعهم ، وإنما يترك ذلك للعقل يفهمه حيث لا داعى لذكر هذه التفاصيل . ويتجه القرآن إلى الحديث عما دار بين السحرة وبين فرعون بعد أن جمعوا من مدائن الصعيد بمصر حيث كان مقرهم هناك فيقول :

« وجاء السحرة فرعون قالوا : إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم لمن المقربين ، » .

أى : وأقبل السحرة مربعا على فرعون بعد أن أرسل إليهم فقالوا له بلغة المحترف الذى مقصده الأول مما يعمل له الأجر والعطاء : إن لنا لأجراً عظيماً إن كانت لنا الغلبة على هذا الساحر العظيم ؟ فهم يستوثقون أولاً من جزالة الأجر وضخامته . وهنا يجيبهم فرعون بقوله : نعم لكم أجر مادي جزيل إذا انتصرتم عليه ، وفضلاً عن ذلك فأنتم تكونون بهذا الانتصار من الظافرين بقربي وجواري ، فهو يغريهم بالأجر المادي ويعدهم بالقرب المعنوي من قلبه تشجيعاً لهم على الإجابة ، وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف

والمهارة والتضليل ، وإنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة الغالبة التي لا يستطيع الوقوف في وجهها الساحرون ولا المتجبرون وغيرهم .

هذا ، وقد اختلف المفسرون في عدد هؤلاء السحرة فقبل ، كانوا إثنين وسبعين ساحراً ، وقيل كانوا أكثر من ذلك بكثير .

وبعد أن إطمأن السحرة على الأجر ، وتطلعت نفوسهم اليه ، يحكى لنا القرآن أنهم توجهوا إلى موسى يقولون له بلغه الوائق من قوته ، المتحدى لخصمه : « يا موسى إما أن تلقى وإما أن ننكرن نحن الملقين » .

أى : أنت يا موسى بخير بين أن تلقى عصاك أولاً ؛ وبين أن تلقى نحن أولاً وأنت تفعل ما تشاء بعدنا ، وكأنهم يقولون له : وفي كلتا الحالتين فنحن على ثقة من الفوز والنصر فأرح نفسك وإستسلم لنا مقدما .

ويرى الزمخشري أن تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاضعوا في الجدل ، والمتصارعين قبل أن يتأخذوا في الصراع ^(١)

ولقد حكى لنا القرآن في سورة طه أن موسى نصحهم بعدم الدخول معه في معركة هم الخاسرون فيها قطعاً فقال : « قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيستحكم بهذاب وقد خاب من إفترى » ^(٢)

أما هنا فيحكى لنا القرآن أن موسى — عليه السلام — قد طلب منهم أن يلقوا أولاً مستهيناً بتجديدهم له ، غير مبالي بهم ولا بمن جمعهم ، لأنه قد اعتمد على خالفه . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٤٠ .

(٢) الآية ٦١ من سورة طه .

أى : قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون أوترا ، فلما ألقوا ما كان معهم من الجبال والعصى ، سحروا أعين الناس ، أى : خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج مع أنه لم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ، ولذا لم يقل : - سبحانه - سحروا الناس .

وقوله : واسترهبهم ، أى : خوفهم وأزعجهم بما فعلوا من السحر . وجاءوا بسحر عظيم ، أى : فى باب السحر ، أو فى عين من رآه ، فإنه ألقى كل واحد منهم عصاه ، فصارت كأنها نعامين .

والتعبير بقوله - سبحانه - واسترهبهم ، تعبیر مصور بليغ ، فهو يوحى بأنهم أستجاشوا وجدان الناس قسرا ، وساقوهم سوقا بوسائل مصطنعة مفتعلة لا تستند إلى واقع سليم .

وروى أنهم ألقوا جبالا غلاظا وخشبيا طولا ، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا .

وروى أنهم لو نوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يؤم الحركة . قيل . جعلوا فيها الزئبق .

وقال بعض العلماء : قيل لإنها كانت عصيا مجوفة قد ملئت زئبقا ، وقد حفرها قبل ذلك تحت المواضع أسرابا ملؤها نارا ، فلما طرحت عليها العصى المجوفة المملوءة بالزئبق حركها ، لأن شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير ، فأخبر الله أن ذلك كان ، وما على غير حقيقته . . . فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية ، (١)

ويعنى القرآن فبين لنا أن هذا السحر العظيم الذى استرهب الناس وسحر أعينهم ، قد تنهوى فى لحظة ، وانطوى فى ومضة ، وزالت آثاره بعد أن قذفه موسى بسلاح الحق الذى سلحه به ربه ، أستمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك

فيقول : « وأوحينا إلى موسى أن ألقى عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون .
فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين » .

اللقف : التناول بسرعة . يقال : لقف الشيء . يلقفه لقفها ولقفانا ، أخذه بسرعة
والإفك : الكذب . يقال أفك أفك ، وأفك يأفك ، وأفك إفكاً وأفكاً - كضرب
وعلم - إذا كذب ، وأصله من الأفك - بفتح أوله - وهو بمعنى صرف الشيء
عن وجهه الذي يجب أن يكون عليه . واطلاق على الكذب إفك - بكسر
الهمزة - لكونه مصروفاً عن وجه الحق ، ثم صار حقيقة فيه .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى - بعد أن أوجس خيفة مما رآه من أمر
السحرة - أن ألقى عصاك ولا تخف إنك أنت الأعلى ، فآلقاها فإذا هي تبتلع وتلتقم
بسرعة ما يكذبون ويموهون به أولئك السحرة « فوقع الحق » أي : ظهر
وتبين وثبت الحق الذي عليه موسى - وفسد وبطل ما كانوا يعملون من
الحيل والتخيل وذهب تأثيره . وترتب على ذلك أن أصابت الهزيمة المشكرة
فرعون وملائه وسجراته في ذلك المجمع العظيم ، الذي حشر الناس له في يوم
عيدهم وزينتهم ، وانقلب الجميع إلى بيوتهم صاغرين أذلاء ، بعد أن أنزل بهم
موسى الخذلان والخيبة .

وإن قوله « أن ألقى » يجوز أن تكون مفعلة لتقدم ما فيه معنى القول
دون حروفه وهو الإيحاء ، ويجوز أن تكون مصدرية فتكون هي وما بعدها
مفعول الإيحاء .

والفاء في قوله « فإذا هي تلقف » فصيحة أي : فآلقاها فصارت حية فإذا
هي تلقف ما يأفكون .

وإنما حذف هذا المقدر لإيذان بمسارعة موسى إلى الإلقاء ، وبغاية سرعة
الانقلاب ، كأن إبتلاها لما يأفكون قد حصل متصلاً بالأمر بالإلقاء .

و ، ما ، في قوله « ما يأفكون » موصولة والعائد محذوف أي : الذي
يأفكونه ، أو مصدرية وهي مع الفعل بمعنى المفعول أي : فإذا هي تلقف المأفوك .

وفي التعبير بقوله - سبحانه - « فوقع الحق ، نجسيم لهذا الحق الذي كان عليه موسى ، وثقيبت واستقرار له ، حتى لمكانه شيء ذو ثقل نزل على شيء آخر خفيف الوزن فأزاله ومجاه من الوجرد .

وهذه الآيات الكريمة تصور لنا كيف أن الباطل قد يسحريون الناس بهريقه لفترة من الوقت ، وقد يسترهب قلوبهم لساعة من الزمان ، حتى لينخيل إلى الكثيرين الغافلين أنه غالب وجارف ولكن ما أن يواجهه الحق الهادي ، الثابت المستقر بقاءه لا تغالب حتى يزهد ويذول . وينطفيء كشمعة الهيشيم ، وإذا بأتباع هذا الباطل يصيبهم الذل والصغار ، وهم يرون صروحهم تنهار ، وآمالهم تتداعى ، أمام نور الحق المبين ، وإذا بتحميدهم الصريح ، ونظامهم الأحق يتحول إلى استسلام مهين ، وذل مشين .

ثم يحكي لنا القرآن بعد ذلك موقف السحرة بعد أن رأوا باعينهم أن ما فعله موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر : « وألقى السحرة ساجدين ، أي : خروا سجدا . كأنما - كما قال الزمخشري - قد القاهم ملق لشدة خروارهم أو لم يتألكوا أنفسهم مما رأوا فكانهم ألقوا

والمراد أن ظهور بطلان سحرتهم ، وإدراكهم بأن موسى على الحق ، قد حملهم على السجود لله - تعالى - وأن نور الحق قد بهرهم وجعلهم يسارعون إلى الإيمان حتى لكان أحدا قد دفعهم إليه دفعا ، وألقاهم إليه إلقاء .

وقوله « قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ، أي : قل السحرة بعد أن تبين لهم الحق وخروا ساجدين لله ، آمنا بملك أمر العالمين ومدبر شئونهم ، والمتصرف فيهم ، وجملة رب موسى وهارون ، بدل من الجملة التي قبلها ، أو صفة لرب العالمين ، أو عطف بيان . وفائدة ذلك نفى توهم من يتوهم أن رب العالمين قد يطلق على غير الله - تعالى - كقول فرعون « أنا ربكم الأعلى ، .

، وهكذا نرى أثر الحق عندما تخاطب بشاشته القلوب الواعية ، لقد آمن

السحرة وصرحوا بذلك أمام فرعون وشيعته ، لأنهم أدركوا عن يقين قطعى أن ما جاء به موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر ، والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة حين تتكشف له ، ومن هنا فقد تحول السحرة من التحدى السافر إلى التسليم المطلق أمام صولة الحق الذى لا يمحده إلا مكابر حقود .

ولم يكن فرعون وملاه لم يرقهم ما شاهدوا من إيمان السحرة ، ولم يدركوا لانطماس بصيرتهم فعل الإيمان فى القلوب ، فأخذ يتوعدهم بالموت الأليم ويحكى القرآن ذلك فيقول : : قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ، أى : قال فرعون منكرأ على السحرة لإيمانهم ، آمنتم برب موسى وهارون قبل أن آمركم أبابذلك؟ فهو لغروره وجهله ظن أن الإيمان بالحق بعد أن تبين يحتاج إلى استدان .

ثم اضاف إلى ذلك إتهامهم بأن إيمانهم لم يكن عن إحلاص ليصرف الناس عنهم فقال : : إن هذا لمكر مكر تموة فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ، أى : إن ما صنعموه من الإيمان برب موسى وهارون ليس عن إقتناع منكم بذلك ، بل هو حيلة احتلتموها انتم وموسى قبل أن يلقى كل منكم بسحره ، لكي تخرجوا من مصر أهلها الشرعيين ، وتخلص لكم ولبنى إسرائيل .

وغرضه من هذا القول إفهام قبط مصر أن إيمان السحرة كان عن تواطىء مع موسى ، وأنهم يهدفون من وراء ذلك إلى إخراجهم من أوطانهم ، فعليهم أى القبط - أن يستمسكوا بدينهم وأن يعلنوا عداوتهم لموسى وللسحرة لبنى إسرائيل .

ولاشك أن هذا لون من الكذب الخبيث أراد من وراءه فرعون صد الناس عن الإيمان بموسى - عليه السلام - .

ثم أتبع هذا الإتهام الباطل بالوعيد الشديد فقال : : فسوف تعلمون ، أى : فسوف تعلمون عاقبة ما فعلتم . ثم فعل هذا الوعيد بقوله : : لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لا صلبنكم أجمعين ، .

أى : أقدم لأقطن من كل شق منكم عضواً مغايراً الآخر ، كاليد من الجانب الأيمن ، والرجل من الجانب الأيسر ، ثم لأصلبنكم أجمعين تفضيلاً لكم ، وتنكيلاً لامثالكم . ومع أن فرعون قد نعد هؤلاء المؤمنين بالعذاب والتشويه والتنكيل والموت القاسى البطيئ المرهوب ، فإننا نراهم يقابلون كل ذلك بالصبر الجميل ، والإيمان العميق ، والاستمانة ببطش فرعون وجبروته فيقولون له بكل ثبات وأطمئنان : « إنا إلى ربنا منقلبون ، قال صاحب الكشف : فيه أوجه : أن يريدوا : إنا لأنبأ بالموت لا نقلا بنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلصنا منك ومن لقاءك . أو فنقلب إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شدة القطع والصلب . أو إنا جميعاً يعنون أنفسهم وفرعون فنقلب إلى الله فيحكم بيننا . أو إنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه ^(١) . »

ثم قالوا له على سبيل الاستهزاء والتوبيخ : وما تنقم منا إلا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا ، أى : وما تذكره منا وتعيب إلا الإيمان بالله ، مع أن ما تذكره منا وتعيبه علينا هو أعظم محاسننا ، لأنه خير الأعمال ، وأعظم المناقب ، فلا نعدل عنه طلباً لمرضاة الله .

يقال : نقم عليه أمره ، ونقمت منه نقما - من باب ضرب - عبه وكرهته أشد الكراهة .

قال الجمل : وقوله : « إلا أن آمننا ، يجوز أن يكون فى محل نصب مفعولاً به ، أى : ما تعيب علينا إلا إيماننا . ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله . أى : ما : ما تنال منا وتعذبنا الشئ من الأشياء إلا لإيماننا . وعلى كل من القولين فهو لاستثناء مفرغ ^(٢) . »

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ١٤١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٧٩ .

ثم ختموا مناقشتهم لفرعون بالانصراف عنه والاتجاه إلى الله - تعالى - فقالوا : « ربنا افرغ علينا صبراً ، وتوفنا مسلمين ، أى : ياربنا افض علينا صبراً واسعاً انثبت على دينك ، وتوفنا إليك حالة كوننا مسلمين لك مدعين لأمرك ونهيك ، مسلمين لقضائك .

وبذلك يكون السحرة قد ضربوا للناس في كل زمان ومكان أروع الأمثال في التضحية من أجل العقيدة ، وفي الوقوف أمام الطغيان بثبات وعزة ، وفي الصبر على المسكاره والآلام ، وفي المصارعة إلى الدخول في الطريق الحق بعد ان تبين لهم ، وفي التمسك بالله عن كل مغريات الحياة .

قال قتادة : « كافوا في أول النهار كفاراً سحرة . وفي آخره شهداء برة ، فرضى الله عنهم وحشرنا في زميرتهم .

وبعد هذا الحديث الذي ساقته السورة عما دار بين موسى وفرعون ، وبين موسى والسحرة ، والذي انتهى بإيمان السحرة برب العالمين بعد ذلك بدأت السورة تحكي لنا ما قاله الملأ من قوم فرعون بعد هزيمتهم المذكرة ، وما قاله موسى - عليه السلام - لقومه بعد ان بلغهم وعيد فرعون وتهديده لهم ، وما رد به قومه عليه بما يدل على سفاهتهم فقالت :

« وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ ؟ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَلَسَتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) »

قوله - تعالى - وقال الملا من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلحتك ، .

أى : قال الزعماء والوجهاء من قوم فرعون له ، بعد أن أصابهم الهزيمة والخذلان في معركة الطغيان والإيمان ، قالوا له على سبيل التوبيخ والإثارة : أتترك موسى وقومه أحراراً آمنين في أرضك ، ليفسدوا فيها بإدخال الناس في دينهم ، أو جعلهم تحت سلطانهم ورياستهم .

روى أنهم قالوا له ذلك بعد أن رأوا عدداً كبيراً من الناس ، قد دخل في الإيمان متبعاً السحرة الذين قالوا « آمنا برب العالمين » .

وقوله ، ويذرك وآلحتك ، معناه : أتتركهم أنت يعبدون رب موسى وهارون ، ويتركون عبادتك وعبادة آلحتك ، فيظهر للناس عجزك وعجزها ، فتكون الطامة الكبرى التي بها يفسد ملكك .

قال السدى : إن فرعون كان قد صنع لقومه أصناماً صفاراً وأمرهم بعبادتها ، وسمى نفسه الرب الأعلى .

وقال الحسن إنه كان يعبد الكواكب ويعتقد أنها المربية للمالئ السفلى كله ، وهو رب النوع الانساني .

وقد قرئ ، ويذرك ، بالنصب والرفع . أما النصب فعلى أنه معطوف على « ليفسدوا » ، وأما الرفع فعلى أنه عطف على « أتذر » ، أو على الاستئناف ، أو على أنه حال بحذف المبتدأ أى : وهو يذرك .

والمأمل في هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن الملا من قوم فرعون ، براه بفتح بأشد ألوان التآمر والتجريس . فهم يخوفونه فقدان الهيبة والسلطان تحطيم الأوهام التى يستخدمها السلطان ، لذا نراه يرد عليهم بمنطق الطغاة المستكبرين فيقول : « سنقتل أبناءهم ، ونستحي نساءهم ولنا فوقهم قاهرون » .

أى : لا تخافوا ولا ترقعوا أيها الملا فإن قوم موسى أهون من ذلك ،

وسنزل بهم ما كنا نفعله معهم من قبل وهو تقتيل الأبناء ، وترك الفساد
أحياء ، ولنا فوقهم غالبون كما كنا ماغير شيء من حالنا ، فهم الضعفاء ونحن
الأقوياء ، وهم الأذلة ونحن الأعزة .

فأنت ترى أن ماقاله الملأ من قوم فرعون هو منطق حاشية الدوء في كل
عهود الطغيان فهم يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله لإفساد في الأرض ، لأنها
ستأني على بنيانهم من القواعد . ولأنهاهي الدعوة إلى وحدانية الله التي ستحرر الناس
من ظلمهم وجبروتهم ، وتفتح العيون على النور الذي يخشاه أولئك الفاسقون .

وترى أن ماقاله فرعون هو منطق الطغاة المستكبرين دائماً . فهم يلجأون
إلى فوقهم المادية ليحمروا بها آثامهم ، وشهواتهم ، وسلطانهم القائم على الظلم ،
والبطش ، والمنافع الشخصية .

ويبلغ موسى وقومه هذا التهديد والوعيد من فرعون وملئه فماذا قال
موسى - عليه السلام - ؟ لقد حكى القرآن عنه أنه لم يحفل بهذا التهديد بل أوصى
قومه بالصبر ، ولوح لهم بالنصر . إستمع إلى القرآن وهو يحكى قول موسى
- عليه السلام - فيقول :

« قال موسى لقومه إستعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من
يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

أى : قال موسى لقومه على سبيل التشجيع والتسليية حين ضجروا وارتعبوا
من تهديدات فرعون وملئه : يا قوم إستعينوا بالله في كل أموركم . واصبروا
على البلاء ، فهذه الأرض ليست ملكا لفرعون وملئه ، وإنما هي ملك لله رب
العالمين ، وهو - سبحانه - يورثها لمن يشاء من عباده ، وقد جرت سنته
- سبحانه - أن يجعل العاقبة الطيبة لمن يخشاه ولا يخشى أحدا سواه .

بهذا الأسلوب المؤثر البليغ ، وبهذه الوصايا الحكيمة ، وصى موسى قومه
بنى إسرائيل فاذا كان ردم عليه ؟ لقد كان ردم يدل على سفاهتهم ، فقد قالوا

له: أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، أى : قال بنو إسرائيل لموسى رداً على نصيحته لهم : لقد أصابنا الأذى من فرعون قبل أن تأتينا يا موسى برسالة ، فقد قتل منا ذلك الجبار الكثير من أبنائنا وأنزل بنا ألواناً من الظلم والاضطهاد وأصابنا الأذى بعد أن جئتنا برسالة كما ترى من سوء أحوالنا . واشتغالنا بالأشغال الحقيرة المهيضة ، فنحن لم نستند من رسالتك شيئاً ، فإلى متى نسمع منك تلك النصائح التى لا جدوى من ورائها ؟

ومع هذا الرد السفيف من قوم موسى عليه ، نراه يرد عليهم بما يليق به فيقول : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، فرعون الذى فعل بكم ما فعل من أنواع الظلم ، وتوعدكم بما توعد من صنوف الاضطهاد .

، ويستخلفكم فى الأرض ، أى يحولكم خلفاء فيها من بعد هلاكه هو وشيعته . » فينظر كيف تعملون ، أى : فىرى — سبحانه — السكان منكم من العمل ، حسنة وقبيحة ، ليجازيكم على حسب أعمالكم ، فإن استخلفكم فى الأرض من بعد هلاك أعدائكم ليس مهاجرة لكم ، وإنما هو استخلاف للاختبار والامتحان . فإن أحسنتم زادكم الله من فضله ، وإن أسأتم كان مصيركم كصير أعدائكم .

وفى التعبير « بعضى ، الذى يدل على الرجاء ، أدب عظيم من موسى مع ربه - عز وجل - : وتعليم للناس من بعده أن يلتزموا هذا الأدب السامى مع خالقهم ، وفيه كذلك منع لهم من الانكسار وترك العمل ، لأنه لو جزم لهم فى الوعد فقد يتركون السعى والجهاد إعتياداً على ذلك .

وقيل : إن موسى ساق لهم ما واعدهم به فى صيغة الرجاء لئلا يكذبوه ، لضعف نفوسهم بسبب ما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه ، واستعظامهم لما سلكه وقوته ، فكأنهم يرون أن ما قاله لهم موسى مستبعد الحصول ، لذا ساقه لهم فى صورة الرجاء .

ثم تمضى السورة الكريمة بعد ذلك فنجدتنا فى بضع آيات عن العذاب

الذى أخذ الله به آل فرعون بسبب ظلمهم وطفغيانهم، وكيف أن الله - تعالى - قد حقق لموسى رجاءه، وكيف أن أولئك الظالمين لم يمتنع منهم العذاب الذى نزل بهم من لآزتكاب المنكرات والآثام ..

« وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ، وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّجَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَذْكُرُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْأَنَّا نَبُوءَةٌ مِنْ آيَةِ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ، آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنْا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُودِ إِذَا هُمْ يَفْكَثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) » .

تدبر معنا أيها القارىء الكريم تلك الآيات الكريمة التى نحكى كل ذلك وغيره بأسلوبها البليغ المؤثر .
قال القرطبي : قوله - تعالى - : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ »

يعنى الجذب ، وهذا معروف فى اللغة ، يقال : أصابتهم سنة ، أى : جذب .
وتقديره : جذب سنة ، وفى الحديث « اللهم إجمعنا عليهم سنين كسنى يوسف » .
والسنة هنا : يعنى الجذب لا بمعنى الحول . ومئة أمنت القوم ، أى أجذبوا
وقحطوا (١)

وقال الألوسى : هذا شروع فى تفصيل مبادئ الهلاك الموعود به ، وإيدان
بأنهم لم يمهلوا حتى تحولوا من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذاب
الإستئصال (٢)

والمعنى : ولقد أخذنا آل فرعون أى : لإختبرناهم وامتحانهم بالجذب
والقحط ، وضيق المديشة ، ولإنتقاص الثمرات لعلمهم يشوبون إلى رشدهم ؛
ويتذكرون ضعفهم أمام قوة خالقهم ، ويرجعون عما هم فيه من الكفر
والعصيان ، فإن الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب ، وتصفى النفوس ، وترغب
فى الضراعة الى الله ، وتدعوا إلى اليقظة والتفكير ومحاسبة النفس على الخطايا .
إلتقاء للبلايا .

وصدرت الآية الكريمة بالقسم ، لإظهار الاعتناء بضمونها .

والمراد بآل فرعون قومه واتباعه ، فهم مؤخذون بظلمه وطاغيانه ، لأن
قوته المالية والخدمية منهم ، وقد خلقهم الله أحراراً ، وأكرمهم بالعقل
والفطرة التى تنكره الظلم والطغيان بالفرصة فكان حقاً عليهم ألا يقبلوا
لإستعباده لهم وجعلهم آلة لطاغيانه ، لاسيما بعد بعثة موسى — عليه السلام —
ووصول دعوته إليهم ، ورؤيتهم لما أبداه الله به من الآيات (٣) .

(١) تفسير القرطبى ٢ ص ٢٩٢

(٢) تفسير الألوسى ٨ ص ١٣٨

(٣) تفسير المنار ٩ ص ٨٦

وإضافة الآل إليه وهو لا يضاف إلا إلى الأشراف ، لما فيه من الشرف
الذي يورى الظاهر ، وإن كان في نفس الأمر خسيسا .

ثم بين - سبحانه - أن آل فرعون لم يعتبروا بهذا الأخذ والامتنان ،
ولما ازدادوا تمردا وكفرا فقال : « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه » .

أي : فإذا جاءهم ما يستحسنونه من الخصب والسعة والرخاء ، قالوا بغير ور
وصلف : ما جاء هذا الخير إلا من أجلنا لأننا أهل له ، ونحن مستحقوه بكفنا
واجتهادنا وإمتيازنا على غيرنا فاسين فضل الله عليهم ، ولطفه بهم ، غافلين عن
شكره على نعمائه .

، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، أي : وإن اتفق أن
أصابهم سيئة أي : حالة تسوءهم كجذب أو قحط أو مصيبة في الأبدان أو
الأرزاق ، تشاءموا بموسى ومن معه من أتباعه ، وقالوا : ما أصابنا ما أصابنا
إلا بشؤمهم ونحسهم ، ولو لم يكونوا معنا لما أصبنا .

وأصل « يطيروا » ، يتطيروا فأدغمت التاء في الطاء لمقاربتها لها . والتطير
التشاؤم والأصل في إحلاق التطير على التشاؤم : أن العرب كانت تزجر الطير
فتتشام بالبارح وهو ما طار إلى الجهة اليسرى ، وتيامن بالسائح وهو ما طار
إلى الجهة اليمنى . ومنه سموا الشؤم طيرا وطارأ ، والتشاؤم تطيرا . وقد يطلق
الضائر على الحظ والنصيب خيرا كان أو شرا ، ولكنه غالب في الشر .

ولنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق - وهي إذا - أسكتة
وقوعها وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات ، لأن العناية الإلهية اقتضت سبق
الرحمة وعموم النعمة قبل حصول الأعمال . ونكر السيئة وذكرها بأداة
الشك - وهي إن - لندورها وعدم تعلق الإرادة بإحداثها إلا بالنسب ،
فإن النعمة بمقتضى تلك العناية إنما تستحق بسبب الأعمال السيئة .

وقوله - تعالى - « ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون » ،
استئناف مسوق للرد على خرافاتهم وأباطيلهم . وصدر بلفظ « ألا » ، الذي
يفيد التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمون هذا الخبر .

أى : إنما سبب شؤمهم هو أعمالهم السيئة المكتوبة لهم عند الله ، فهي التي ساقط لإيهم ما يسوؤهم وليس لموسى ولا لمن معه أى تدخل فى ذلك . وإن كان أكثرهم يحجلون هذه الحقيقة ، فيقولون ما يقولون مما تمليه عليهم أهواؤهم وجبالانهم .

وفى إسناد عدم العلم إلى أكثرهم ، إشعار بأن قلة منهم تعلم ذلك ، ولكنها لا تعمل بمقتضى علمها .

هذا ، وقد أفادت الآية الكريمة أن القوم لم يتأثروا لا بالرخاء ولا بالشدائد . الرخاء العظيم ، والخصب الواسع زادم غروراً ويطراء ، والشدائد والمحن جعلتهم يفسبون أسبابها إلى غيرهم دون أن يتوبوا إلى الله من ذنوبهم . مع أن الشدائد -- كما يقول صاحب الكشف -- تجعل الناس دأضرع خدوداً وألين أعطافاً ، وأرق أفئدة ، .

ثم تحكى السورة الكريمة أن آل فرعون قد لجروا فى طغيانهم يعمهون فقالت : « وقالوا مهما تأقتنا به من آية لم نسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين » .

أى : قال الملاء من بنى إسرائيل لموسى بعد أن رأوا من حججه الدالة على صدقه : إنك يا موسى إن تجئنا بكل نوع من أنواع الآيات التى تستدل بها على حقيقة دعوتك لأجل أن تسحرنا بها ، أى تصرفنا بها عما نحن فيه ، فما نحن لك بمصدقين ، ولا لرسالتك بمتبعين .

ومنظقم هذا يدل على منتهى العناد والجحود ، فهم قد صاروا فى حالة نفسية لا يجدى معها دليل ولا ينفع فيها إقناع ، لأنهم قد أعلنوا الإصرار على التكذيب حتى ولو أنام فيهم بألف دليل ودليل ، وهكذا شأن الجبارين الذين قست قلوبهم ، ومسخت نفوسهم وأظلمت مشاعرهم ، حين يدمغهم الحق ، ويطاردهم الدليل الساطع بنوره الواضح ، لأنهم تأخذهم العزة بالإثم فيأبون أى لون من ألوان التفسير والتدبر .

قال الجمل : « ومهما » اسم شرط جازم -- يدل على العموم -- ، « و » من

آية ، بيان له ، والضميران في د به ، ود بها ، راجعان لمهما الأول مراعاة للفظها لإيهامه ، والثاني مراعاة لمعناها (١) .

وسموا ما جاء به مومى - عليه السلام - آية من باب المجازاة له والاستمراء بها حيث زعموا أنها نوع من السحر كما ينبغي عنه قولهم : لتسحرنا بها .
ثم حكى السورة السكرية ما حل بهؤلاء الفجرة من عقوبات جزاء عتوم وعنادهم فقالت : « فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا دوماً مجرمين .

أى : فأرسلنا على هؤلاء الجاحدين عقوبة لهم الطوفان .
قال الألوسى : أى : ما طاف بهم ، وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر وسيل ، فهو اسم جنس من الطواف .. وقد اشتهر في طوفان الماء ، وجاء تفسيره هنا بذلك في عدة روايات عن ابن عباس . وجاء عن عطاء ومجاهد تفسيره بالموت ، وفسره بعضهم بالطاعون وكانوا أول من عذبوا به (٢) .

وأرسلنا عليهم « الجراد » ، فأكل زروعهم وثمارهم وأعشابهم ، حتى ترك أرضهم سوداء قاحلة .

وأرسلنا عليهم « القمل » وهو ضرب معروف من الحشرات المؤذية ، وقيل هو السوس الذى أكل حبوبهم وما اشتملت عليه بيوتهم .
وأرسلنا عليهم « الضفادع » فصعدت من الأنهار والخلجان والمنايع فقطت الأرض وضايقتهم في معاشهم ومنامهم .

وأرسلنا عليهم « الدم » ، فصارت مياه الأنهار مختلطة به ، فأتى السمك فيها ، ونيل المراد بالدم الراف الذى كان يسيل من أنوفهم .

فذلك هو النقم التى أنزلها الله - تعالى - على هؤلاء المجرمين ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، وتكذيبهم لنبيهم - عليه السلام - .

وقوله : « آيات » ، حال من العقوبات الخمس المتقدمة .

وقوله : « مفضلات ، أى : مميزات واضحات لإبشك عاقل فى كونها آيات إلهية لا مدخل فيها للسحر كما يزعمون .

وقيل « مفضلات ، أى : مميزا بعضها عن بعض ، منفصلة بالزمان لامتحان أحوالهم . وكان بين كل اثنين منها شهر ، وكان امتداد كل واحدة منها شهرا ، كما أخرج ذلك ابن المنذر عن ابن عباس (١) :

ثم وضحت الآية فى نهايتها موقفيهم من هذا الابتلاء وتلك العقوبات فقالت : « فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، أى فاستكبروا عن الايمان بموسى -- عليه السلام -- وعما جاء به من معجزات ، وكانوا قوما طبيعتهم الاجرام ودينتهم الكفر والفسوق .

ثم بين - سبحانه - حالهم عند نزول العقاب بهم فقال : « ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى اسرائيل ، .

أى وحين وقع على فرعون ومشأله العذاب المذكور فى الآية السابقة ، والمتمثل فى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، حين وقع عليهم ذلك أخذوا يقولون لموسى بتذلل واستعطاف عقب كل عقوبة من تلك العقوبات : يا موسى ادع لنا ربك واسأله بحق ما عهد عندك من أمر إرسالك إلينا لنقذفنا من الهلاك أن يكشف عنا هذا العذاب ، ونحن نقسم لك بأنك إن كشفت عنه لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل .

قال صاحب الكشف : بما عهد عندك ، ما مصدرية ، والمعنى بعهده عندك وهو النبوة . والباء إما أن تتعلق بقوله : (ادع لنا ربك) على وجهين : أحدهما : أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة . أو ادع الله لنا متوسلا إليه بعهده عندك . وإما أن يكون قسما مجابا ، بلؤمنن ، أى . أقسمنا بعهده الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك (٢) .

ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودي فقال : فلما كشفنا عنهم الإجز
إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينسكتون ، أى : فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد
مرة إلى الوقت الذى أجل لهم وهو وقت إغراقهم فى اليم ، إذا هم ينسكتون أى :
ينقضون عهدهم الذى التزموه ، ويحنتون فى قسمهم فى كل مرة .

وينسكتون : من النسكت . وأصله فك طاقات الصوف المغزول ليغزل ثانياً ،
ثم استعير لنقض العهد بعد إبرامه .

قال الألوسى . وجواب « لمسا » فعل منذر يؤذن به إذا الفجائية لا الجملة
المقتربة بها ، أى : فلما كشفنا عنهم ذلك فاجأوا بالنسكت من غير توقف ،^(١) .

هذا ، وقد ساق بعض المفسرين آثاراً متعددة فى كيفية نزول هذا العذاب
بهم . ومن هذه الآثار ما رواه أبو جعفر بن جرير - بسنده - عن سعيد بن
جبير قال :

لمسا أبى موسى - عليه السلام - فرعون قال له : أرسل معى بنى إسرائيل ،
فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون
عذاباً . فقالوا لموسى : ادع لنا ربك أن يكشف عنا هذا المطر فنؤمن لك ونرسل
معك بنى إسرائيل . فدعاه ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل . فأنبت
لهم فى تلك السنة شيئاً لم ينبت قبل ذلك من الزروع والثمار والكلاء . فقالوا :
هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلاء ، فلم رأوا
ثمره فى الكلاء عرفوا أنه لا يبقى الزرع فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك أن
يكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعاه فكشف عنهم
الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فداسوا وأحرقوا فى البيوت
قالوا : قد أحرقنا . فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذى يخرج منه ،
كان الرجل يخرج عشرة أجرنة إلى الوحى فلم يرد منها إلا ثلاثة أفضزة

(١) تفسير الألوسى ج ٩ ص ٢٦ .

— والجريب والقفيز مكيالان للحبوب ، والجريب أربعة إقفزة — فقالوا يا موسى أدع لنا ربك أن يكشف عنا القمل فتؤمن لك ونرسل بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينما هو جالس أعنا فرعون إذ سمع نقيق الضفدع فقال لفرعون : ما تأتي أنت وقومك من هذا فقال : وما عسى أن يكون كيد هذا ، فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه فقالوا لموسى أدع لنا ربك أن يكشف عنا هذه الضفادع فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ، وأرسل الله عليهم الدم فكانوا استغفوا من الأنهار والآبار ، وما كان في أوعيتهم وجدوه دما عبيطا ، فشكوا إلى فرعون ، فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم نأيس لنا شراب ، فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا : من أيز سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما عبيطا ؟ فأتوا وقالوا : يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، (١) .

قال ابن كثير : وقد روي نحو هذا عن ابن عباس والسدي وقاتدة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بهذا .

ثم حكى السورة السكرية نهايتهم الآلية ، بسبب نقضهم لعهودهم ومراثيقهم في كل مرة ، وبسبب تكذيبهم لآيات الله . وعصيانهم لنبيه موسى — عليه السلام — فقالت : فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ، بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، أى : فانتقمنا منهم عند بلوع الأجل المضروب لإهلاكهم . بأغرقناهم في اليم — أى البحر — ، وذلك بسبب تكذيبهم لآياتنا الواضحة وحجبنا الساطعة ، وكانوا عنها غافلين بحيث لا يتدبرونها ، ولا يتفكروا فيها تحمله من عظام وعبر .

والقرآن هنا يسوق حادث إغراق فرعون وملئه بصورة مجملة ، فلا يفصل خطواته كما فصلها في مواطن أخرى ، وذلك لأن المقام هنا هو مقام لاخذ الحاسم بمد الإهمال الطويل ، فلا داعى إذن إلى طول العرض والتفصيل . إن الجسم السريع هنا أوقع في النفس ، وأرهب للحس ، وأزجر للقلب ، وأدعى إلى العظة والاعتبار ، ولأن سورة الأعراف - كما سبق أن بينا - يغلب عليها هذا الأسلوب الذى يزلزل قلوب الطغاة ، ويغرس في النفوس الرهبة والخوف وهى تقص على الناس ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى مضى وصار تاريخا يعلمونه ويتحدثون عنه ، وهو ما حل بالأمم السابقة التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها .

ثم وهى تحكى لهم ما أعد المستكبرين من عذاب أخروى بسبب عصيانهم واتهاكمهم لحرمت الله .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله وكرمه على بنى إسرائيل بعد أن بين نهاية فرعون وآله فقال : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها » .

أى : وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون فى مصر من فرعون وملته بالاستعباد وقتل الأبناء ، وسوء العذاب ، أعطيناكم من طريق الاستخلاف - قبل أن يزيغوا ويضلوا - مشارق أرض الشام ومغاربها التى باركنا فيها بالخصوبة وسعة الأرزاق ، وبكونها مساكن الأنبياء والصالحين ليكون ذلك امتحانا لهم ، واختبارا لنفوسهم .

وجمع - سبحانه - بين صيغتي الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف ونجده ، والمراد بهم بنو إسرائيل ، وذكرنا بعنوان القوم ، إظهارا لكمال اللطف بهم ، وعظيم الإحسان إليهم ، حيث رفعوا من حضيض المذلة إلى أوج العزة .

وقوله : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، أى :
وقد تمت كلمة الله الحسنى ومضت عليهم تامة كاملة ، حيث رزقهم - سبحانه -
النصر على أعدائهم ، والتمكين فى الأرض بسبب صبرهم على ظلم فرعون
وملئه .

قال الزمخشري : وحسبك به حائا على الصبر ، ودالا على أن من قابل
البلاء بالجزع وكله الله إليه . ومن قابله بالصبر ، وافتظار النصر ، ضمن الله
له الفرج .

وعن الحسن : عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله - تعالى - ثم تلا
هذه الآية ، وأورثنا القوم الذين كانوا ، ومعنى « خف ، طاش جزعا
وقلة صبر ، ولم يرزق رزانه أولى الصبر ^(١) » .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه
من بناء القصور والشاهقة المنازل القوية ، وما كانوا يرفعونه من البساتين ،
والصروح المشيدة ، كصرح هامان وغيره .

و « يهرشون ، بكسر الراء وضمها - أى يرفعون من العرش وهو الشيء
المسقف المرفوع .

قال الجمل : وقوله « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، فى إعرابه
أوجه ، أحدها : أن يكون فرعون اسم كان يصنع خبر مقدم ، والجملة
النكوبية صلة والعمائد محذوف . والتقدير : ودمرنا الذى كان فرعون يصنعه .
الثانى : أن اسم كان ضمير عائد على ما الموصولة ، يصنع مسند لفرعون .
والجملة خبر عن كان ، والعمائد محذوف ، والتقدير : ودمرنا الذى كان هو
يصنعه فرعون . الثالث : أن تكون كان زائدة وما مصدرية والتقدير ودمرنا
ما يصنع فرعون أى : صنعه . . . ^(٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٤٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٨٥ .

وهكذا انتهى السورة الكريمة هذا الدرس بذكر ما أصاب الظالمين والفادريين من دمار وخراب ، وما أصاب المستضعفين الصابرين من خير واستخلاف في الأرض .

ثم بدأت السورة بعد ذلك مباشرة حديثاً طويلاً عن هؤلاء المستضعفين من بني إسرائيل بيّنت فيه ألواناً من جحودهم لنعم الله ، ونسيانهم لما كانوا فيه من ذل واستعباد ، وتفضيلهم عبادة الأصنام على عبادة الخلق - عز وجل - وغير ذلك من أنواع كفرهم ومعاصيهم ، واستمع إلى القرآن وهو يحكى لونا من رذائلهم فيقول :

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنْ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا مَكَّمُوا فِيهِ وَبِاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُوءُ وُجُوهَكُمْ يَسُوءُ الْعَذَابِ ، يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) » .

إن هذه الآيات تحكى قصة عجيبة لبني إسرائيل ملخصها : أنهم بعد أن خرجوا من مصر بقيادة موسى - عليه السلام - تبعهم فرعون وجنوده ليخيدوهم إليها ، إلا أن الله - تعالى - انتقم لهم من فرعون وجنوده فأغرقهم أمام أعينهم وسار بنو إسرائيل نحو المشرق متجهين إلى الأرض المقدسة بعد أن عبروا البحر ، ولكنهم ما إن جاوزوا البحر الذي غرق فيه عدوهم والذي مازالت رماله الرطبة عالقة بنعالهم ، حتى وقعت أبصارهم على قوم يعبدون الأصنام ، فماذا كان من بني إسرائيل ؟

كان منهم أن عاودتهم طبيعتهم الوثنية ، فطلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - الذى جاء لهدايتهم وإنقاذهم مما هم فيه من ظلم أن يصنع لهم آلهة من جنس الآلهة التى يعبدها أولئك القوم .

وهنا غضب عليهم موسى غضباً شديداً . ووصفهم بأنهم قوم يحملون الحق ، وبين لهم فساد ما عليه المشركون ، وذكرهم بما حباهم الله - تعالى - به من نعم جزيلة ، ووجب عليهم لإفراده بالخضوع والعبادة والطاعة والشكر .

وقوله - تعالى - « وجاوزنا ببني إسرائيل البحر » بيان للجنة العظيمة التى منحهم الله إياها ، وهى عبورهم البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فأصبح طريقاً يابساً يسرون فيه بأمان وأطمئنان حتى عبروه إلى الناحية الأخرى ، يصحبهم لطف الله ، وتخدمهم عنايته ورعايته .

وجاوز بمعنى أصل الفعل الذى هو جاز ، أى : قطعنا بهم البحر . يقال : جاز الوادى وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره .

والمراد بالبحر : بحر القلزم وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر .

وقوله تعالى (فأتوا على القوم يعكفون على أصنام لهم) بيان لما شاهدوه من أحوال بعض المشركين عقب عبورهم البحر ونجاتهم من عدوهم ، فإذا كانت نتيجة هذه المشاهدة ؟ لقد كان المتوقع منهم أن يحتقروا ما شاهدوه ، وأن ينفروا مما أبصروه ، لأن العهد لم يطل بهم . منذ أن كانوا يسمون سوء العذاب فى ظل عبادة الأصنام عند فرعون وقومه ، ولأن نجاتهم مما كانوا فيه من ذل وهوان ، قد تمت على يد نبيهم الذى دعاهم إلى توحيد الله - تعالى - . لئلى ينزبهم من فضله .

ولكن طبيعة بنى إسرائيل المعوجة لم تغارهم ، فهاهم أولاء ما إن وقعت

أبصارهم على قوم يعكفون ويدأومون على عبادة أصنام لهم^(١)، حتى انجذبوا إليها وطلبوا من نبيهم الذى جاء لهدايتهم، أن يجعل لهم وثناً كغيرهم لكي يعبدوه من جديد . لقد حكى القرآن عنهم أنهم عندما شاهدوا هذا المنظر، ما لبثوا أن قالوا لنبيهم (يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) . قالوا ذلك لأن الإيمان لم يستقر في قلوبهم، ولأن ما ألفوه من عبادة الأصنام أيام استعباد فرعون لهم، ما زال متمكناً من نفوسهم، ومسيطرأ على عقولهم، وهكذا عدوى الأمراض تصيب النفوس كما تصيب الأبدان، وهكذا طبيعة بنى إسرائيل ما تكاد تهتدى حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط؛ وما تكاد تسير في طريق الاستقامة حتى ترتكس وتنتكس .

وفي قولهم لنبيهم (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) بصيغة الأمر؛ أكبر دليل على غياب عقولهم، وسوء أدبهم؛ لأنهم لو استأذنوه - مثلاً - في اتخاذ صنم يعبدونه كغيرهم لكان شأنهم أقل غرابة؛ ولكن الذى حصل منهم أنهم طلبوا منه - وهو نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله تعالى؛ والمنقذ لهم من عدوهم الوثنى الجبار - أن يقوم هو بنفسه بصناعة صنم لكي يعبدوه كغيرهم !!

قال القرطبي: ونظيره قول جهال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمى ذات أنواط - لأنهم كانوا ينوطون بها سلاحهم أى يعلقونه - وكان الكفار يعظمون هذه الشجرة في كل سنة يوماً، قال الأعراب: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله - صلى الله

(١) اختلف المفسرون في شأن القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم عند مرور بنى إسرائيل بهم، فقيل هم من عرب لحم . وقيل هم من لحم وجذام . وقيل كانوا من السكتانيين الذين أمر موسى - قومه بقتالهم، وقيل لأنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر .

عليه وسلم - د الله أكبر . قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى د اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، لتر كبن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة (١) حتى لانهم لو دخلوا حجر ضرب لدخلتموه ، وكان هذا في مخرجه إلى حنين ، (٢) .

واقعد غضب موسى - عليه السلام - من طلبهم هذا - وهو الغضوب بطبيعته لربه ودينه - فرد عليهم ردأ قوياً فيه توبيخ لهم وتعجب من قولهم بعد أن رأوا من المعجزات ما رأوا فقال : (إنكم قوم تجهلون) أى : إنكم بانيي إسرائيل بطلبكم هذا برهنتم على أنكم قوم قد ملأ الجمل قلوبكم ، وغطى على عقولكم ، فصرتم لا تفرقون بين ما عليه هؤلاء من ضلال مبين ، وبين ما يستحقه الألوهية ما يستحقه الألوهية من صفات وتعظيم ولم يقيد ما يعملونه ليفيد أنه جهل كامل شامل يتناول فقد العلم ، وسفه النفس ، وفساد العقل ، وسوء التقدير .

وبعد أن كشف لهم سوء حالهم ، وفرط جهالاتهم ، بين لهم فساد ما طلبوه في ذاته ، وخب عاقبة من أرادوا تقليد هم ، فقال لهم بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل (إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .

متبر : من التبذير بمعنى الإهلاك أو التفسير والتعطيم يقال : تبره يتبره وقبره أى أهلكه ودمره .

أى : إن هؤلاء الذين تبغون تقليد هم في عبادة الأوثان ، محكوم على ما هم فيه بالدمار ، ومقتضى على ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال لأن دين التوحيد سيظهر في هذه الديار ، وستصير العبادة لله الواحد القهار .

وهذا الرد يكون موسى - عليه السلام - قد كشف لقومه عن سوء ما يطلبون ، وصرح لهم بأن مصير ما يخفونه إلى الهلاك والتدمير .

(١) القذة : ريش السهم . قال ابن الأنثري : يضرب مثلاً للشيثيين يستوبان ولا يتفاوتان .

(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٧٣ .

قال الإمام الرازي : (والمراد من يطلان عملهم أنه لا يعهد عليهم من عبادة ذلك العجل نفع ولا دفع ضرر، وتحقيق القول في هذا الباب أن المقصود من العبادة أن تصير المواظبة على تلك الأعمال سبباً لاستحكام ذكر الله تعالى في القلب حتى تصير الروح سعيدة بحصول تلك المعرفة فيها ، فإذا اشتغل الإنسان بعبادة غير الله تعلق قلبه بغيره ، ويصير ذلك التعلق سبباً لأعراض القلب عن ذكره تعالى . وإذا ثبت هذا التحقيق ظهر أن الاشتغال بعبادة غير الله متبر وباطل وضائع . وسعى في تحصيل ضد هذا الشيء وتقيضه . لأننا بينا أن المقصود من العبادة ، رسوخ معرفة الله - تعالى - في القلب والاشتغال بعبادة غير الله يزيل معرفته عن القلب ، فكان هذا ضد الغرض ونقيضاً للمطلوب - والله أعلم -) (١) .

ثم مضى موسى - عليه السلام - يستنكر عليهم هذا الطلب ، ويبين لهم أن الله وحده هو المستحق للعبادة فقال : (أغير الله أبغيتكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين) .

أى قال موسى - عليه السلام - مذكرا قومه بنعم الله عليهم الموجبة لإفراده بالعبادة والخضوع أغير الله أطلب إليكم معبوداً أحملك على العبودية له ، وهو فضلكم على عالمي زمانكم ، وقد كان الواجب عليكم أى تخصوه بالعبادة ، كما إختصكم هو بشئ النعم الجايله . فالاستفهام فى الآية المكريمة للانكار المشرب معنى التعجب لا بتفانيهم معبودا سوى الله - تعالى - الذى غمرهم بنعمه ، وأحاطهم بألوان إحسانه .

و ، غيره ، كما قال الجمل - منصوب على أنه مفعول به لا بغيركم على حذف اللام والتقدير : أأبغى إليكم إلهاً ، فبما حذف الحرف وصل الفعل بنفسه وهو غير منقاس . و « إلهاً » تمييز لغير .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة إنجائهم من العذاب والتفكيك ، ليبتليهم

أيشكرون أم يكفرون ، فقال تعالى : (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) .

« إذ ، بمعنى وقت ، وهي مفعول به لفعل ملاحظ في الكلام وهو اذكروا أي : اذكروا وقت أن أنجيناكم من آل فرعون . والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث .

وآل الرجل : أهله وخاصته وأتباعه . ويطلق غالباً على أولى الشأن والخطر من الناس ، فلا يقال آل الحجام أو الاسكاف .

و « يسومونكم سوء العذاب » يعنون لكم أشد العذاب وأفظحه من السوم وهو مطلق الذهاب ، أو الذهاب في ابتغاء الشيء . يقال : سامت الابل فهي سائمة ، أي ذهبت إلى المرعى . وسام السلعة ، إذا طلبها وابتغها .

والسوء - بالضم - كل ما يحزن الانسان ويغمه من الأمور الدنيوية أو الآخروية . ويستحيون : أي يسبقون . يقال : استحياه أي : استبقاه ، وأصله : طلب له الحياة والبقاء . والبلاء : الامتحان والاختبار ويكون بالخير والشر .

والمعنى : واذكروا يا بنى إسرائيل لتعذبوا وتعظوا وتشكروا الله على نعمه وقت أن أنجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، حيث كانوا يزعمون أرواح ذكوركم ، ويستبقون نفوس نساءكم ليستخدموهن ويستذلوهن . وفي ذلكم العذاب وفي النجاة منه امتحان لكم لتشكروا الله على نعمه ، ولتقسلعوا عن السيئات التي تؤدي بكم إلى الازلال في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه هو الأمر بتعذيب بنى إسرائيل ، للتنبية على أن حاشيته وبطانته كانت عوناً له على إذاقتهم سوء العذاب ، وفي إنزال ألوان الازلال بهم .

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لبنى إسرائيل - مع أنه

في ظاهره نعمة لهم - لأن هذا الابقاء على النساء كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن، واستعمالهن في شتى أنواع الخدمة، وإذلالهن بالاسترقاق، فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل؛ وعذاب اليم، تأباه النفوس الكريمة، والطباع الحرة الأبية.

قال الامام الرازي ما ملخصه: في قتل الذكور دون الاناث مضرة من وجوه:

أحدها: أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال، وذلك يقتضى إنقطاع النسل، لأن النساء إذا لم يفرذن فلا تأثير لهن البتة في ذلك، وهذا يقتضى في نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعا.

ثانيها: أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء في أمر المعيشة. فإن المرأة لتتقضى الموت إذا انقطع عنها الرجال. لما قد تقع فيه من فكده العيش بالانفراد.

ثالثها: ان قتل الولد عقب الحمل الطويل، وتحمل الكبد، والرجاء القوى في الانتفاع به من اعظم العذاب. فنعمة الله في تحليصهم من هذه المحنة كبيرة. رابعاً: ان بقاء النساء بدون الذكر ان من افاربهن، يؤدي الى صيرورتهن مستغفرشات للأعداء. وذلك نهاية الذل والهوان (١)

وقد رجح كثير من المفسرين ان المراد بالأبناء هنا الأطفال البالغين، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك، ولأن قتل الرجال لا يفيدهم حيث أنهم كانوا يستعملونهم في الأعمال الشاقة والحقيرة، ولأنه كان المقصود بالذبح الرجال لما قامت ام موسى بإقامته في اليم وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالأبناء الرجال الأطفال، لأن لفظ الأبناء هنا جمل في مقابلة النساء، والنساء هن البالغات.

والذي نرجحه هو القول الأول لما ذكرنا ، ولأنه أتم في إظهار نعمة الانجلاء ، حيث كان آل فرعون يقتلون الصغار قطعاً للنسل ، ويسترقون الأمهات لاستعباداً لهم ، ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدرج ، وبقاء الرجال على هذه الحالة أشد عليهم من الموت .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد ردت على بني إسرائيل فيما طلبوا أبليغ رد وأحكمه ، ووصفتهم بما هم أهله من سوء تدبير ، وسفاهة تفكير . فقد بدأت بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم ، حيث طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم الهأ كذا لغيرهم آلهة ، ثم ثنت بإظهار فساد ما طلبوه في ذاته ، لأن مصيره إلى الزوال والهلاك ، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون الهائم بينت بعد ذلك بأن العبادة لغير الله لا تجوز بأي حال ، لأنه هو وحده صاحب الخلق والامر ، ثم ذكرت في ختامها بوجوه النعم التي أسبغها الله عليهم ، لتشعرهم بأن ما طلبوه من نبيهم ، هو من قبيل مقابلة الاحسان بالجحود والنيكران ، ولتجملهم على أن يتسددوا أمرهم ، ويراجعوا أنفسهم ، ويتوبوا إلى خالقهم توبة صادقة نصوحاً . ان كانوا ممن ينتفع بالعظات ويعتبر بالمثلات .

ثم حكى لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهد تطلع موسى - عليه السلام - للقاء ربه ، ووصيته لأخيه هارون قبل ذهابه لهذا اللقاء العظيم فقالت :

« وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِمِثْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ
رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى
الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ

دَكَأَ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي
وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي
الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ
وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَخْصِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) .

قال صاحب الكشف : « روى ان موسى - عليه السلام - وعد بني
إسرائيل وهو بمصر ، ان اهلك الله عدوهم اتمام بكتاب من عند الله ، فيه
بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره
بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة ، فلما اتم الثلاثين انكر خلوف فيه
فتسوك . فقالت له الملائكة : كنا نشم من فك رائحة المسك فأفسدته بالسواك
فأمره الله - تعالى - ان يزيد عليها عشرة ايام من ذى الحجة لذلك . وقيل امره
الله ان يصوم ثلاثين يوما وان يعمل فيها بما يقربه من الله ثم انزل الله عليه
في العشر التوراة وكله فيها^(١) . »

والمواعدة مفاعلة من الجانبين ، وهى هنا على غير بابها ، لأن المراد بها
هنا ان الله - تعالى - امر موسى ان ينقطع لمناجاته اربعين ليلة تمهيداً لإعطائه
التوراة ، ويؤيد ذلك قراءة ابي عمرو ويعقوب « وعدنا » .
وقيل المفاعلة على بابها على معنى ان الله - تعالى - وعد نبيه موسى ان يعطيه
التوراة وامره بالحضور للمناجاة فوعد موسى ربه بالطاعة والامتنان ،
وقوله « ثلاثين » مفعول ثان لواعدنا بحذف المضاف ، اى : اتمام ثلاثين
ليلة اذ اتيانها .

(١) تفسير المكشاف ج ٢ ص ١٥١ .

والضمير في قوله « وأتممناها بعشر » يعود على المواعدة المفهومة من قوله « واعدنا ، أي : وأتممنا مواعدته بعشر » ، أو أنه يعود على ثلاثين :

وحذف تمبيز عشر لدلالة الكلام عليه ، أي : وأتممناها بعشر ليال .

و « أربعين » منصوب على الحالية أي : قتم ميعات ربه بالفاً أربعين ليلة .

ثم حكى -- سبحانه -- ما رضى به موسى أخاه هارون فقال : « وقال موسى لأخيه هارون أخلفنى فى قومى ، أى : قال موسى لأخيه هارون حين استودعه ليذهب لمناجاة ربه : كن خليفتى فى قومى ، ورافهم فيما يأتون ويذرون فإنهم فى حاجة إلى ذلك لضعف إيمانهم ، واستيلاء الشهوات والأهواء عليهم . وأصلح ولا تتبع طريق المفسدين الذين إن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الفى يتخذوه سبيلاً .

وإننا لنلمح من هذه الوصية أن موسى - عليه السلام - كان مترفعاً شراً من قومه ، ولقد صبح ما توقعه ، فإنهم بعد أن فارقه موسى استغلوا جانب اللين فى هارون فعبدوا عجلاً جسداً له خوار صنعته لهم الأسامرى . .

ثم حكى القرآن ما كان مو موسى عندما وصل إلى طور سيناء لمناجاة ربه فقال : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، أى : وحين حضر موسى لمو قتنا الذى وقتناه له وحددناه ، وكلمه ربه ، أى : خاطبه من غير واسطة ملك » قال رب أرنى أنظر إليك ، أى : قال موسى حين كلمه ربه وسمع منه : رب أرنى ذاتك الجليلة . والمراد : مكى من رؤيتك . أو تجل لى أنظر إليك وأراك .

و « أرنى » فعل أمر مبنى على حذف النباء . و « يا المتكلم مفعول ، والمفعول الثانى محذوف أى : ذاتك أو نفسك ولم يصرح به لأنه معلوم ، وزيادة فى التأدب مع الخالق - عز وجل - .

وجملة « قال إن ترانى » مستأنفة لاستئنافاً بيانياً ، كأنه قيل : فإذا قال

الله - تعالى - حين قال موسى ذلك ، فكان الجواب وقال لن ترانى ، أى : لن تطبق رؤيتى ، وأنت فى هذه النشأة وعلى الحالة التى أنت عليها فى هذه الدنيا فتفى الرؤية منصب على الحالة الدنيوية ، أما فى الآخرة فقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين يرون ربهم فى روضات الجنات .

ثم قال - تعالى - ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، أى : لن تطبق رؤيتى يا موسى وأنت فى هذه الحياة الدنيا ، ولكن أنظر إلى الجبل الذى هو أقوى منك ، فإن استقر مكانه أى ثبت مكانه حين أنجلي له ولم يتفتت من هذا التجلى ، فسوف ترانى أى تثبت لرؤيتى إذا تجليت لك وإلا فلا طاقة لك برؤيتى .

وفى هذا الاستدراك ، ولكن أنظر . . . الخ ، تسلية لموسى - عليه السلام - وتلطف معه فى الخطاب ، وتكريم له ، وتعظيم لأسر الرؤية ، وأنه لا يقوى عليها إلا من قواه الله بمعونه .

ثم بين - سبحانه - ما حدث للجبل عند التجلى فقال : فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، أى : حين ظهر نوره - سبحانه - للجبل على الوجه اللائق بجلاله وجعله دكا ، أى مدقوقا مفتتا ، فنبه - سبحانه - بذلك على أن الجبل مع شدته وصلابته مادام لم يستقر عند هذا التجلى ، فالأدنى مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر . والدك والدق بمعنى ، وهو تفتت الشيء وسحقه وفعله من باب رد .

قال الألوسى : وهذا كما لا يخفى من المقشابات التى يسلك فيها طريق التسليم وهو أسلم وأحكم ، أو التأويل بما يليق بجلال ذاته - تعالى - .

وقوله : وخر موسى صعقا ، أى : سقط من هول ما رأى من النور الذى حصل به التجلى فمشيا عليه ، كن أخذته الصاعقة .

يقال : صعقتهم السماء تصعقهم صعقا فهو صعق أى : غشى عليه :

وقوله : « فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ، أى : فلما أفاق موسى من غيبته ، وعاد إلى حالته الأولى التى كان عليها قبل أن يخرمه مشيئا عليه ، قال تعظيما لأمر الله « سبحانك » أى تنزيها لك من مشابهة خلقك فى شئ . « تبت إليك » من الإقدام على السؤال بغير إذن . « وأنا أول المؤمنين » بعظمتك وجلالك أو وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد .

قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون : ولكن يقول أنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . قال ابن كثير : وهو قول حسن .

هذا ، وقد توسع بعض المفسرين عند تفسيره لهذه الآية فى الحديث عن رؤية الله - تعالى - وعلى رأس هذا البعض الإمام الألوسى ، فقد قال - رحمه الله - : « واستدل أهل السنة المجوزون لرؤيته - سبحانه - بهذه الآية على جوازها فى الجملة ، واستدل بها المعتزلة النفاة على خلاف ذلك ، وقامت الحرب بينهما على ساق ، وخلاصة الكلام فى ذلك أن أهل السنة قالوا : إن الآية تدل على إمكان الرؤية من وجهين : الأول : أن موسى - عليه السلام - سألها بقوله « رب أرني أنظر إليك » ولو كانت مستحيلة فإن كان موسى عالما بالإستحالة فالعالم فضلا عن النبي مطلقا ، فضلا عن من أولى العزم لا يسأل الخيال ولا يطلبه . وإن لم يكن عالما بذلك ، لزم أن يكون آحاد المعتزلة أعلم بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز من النبي الصفى ، والقول بذلك غاية الجهل والرعونة . حيث بطل القول بالإستحالة تعين القول بالجواز .

والثانى : أن فيها تعليق الرؤية على استقرار الجبل وهو ممكن فى ذاته . ما علق على الممكن يمكن . . .

ثم قال ماملخصه : واعترض الخصوم على الوجه الأول بوجوه منها أنها لا نسلم أن موسى سأل الرؤية وإنما سأل العلم الضرورى به - تعالى - إلا أنه يبرعنه بالرؤية مجازاً . . . أو أنه سأل رؤية علم من أعلام الساعة بطريق

حذف المضاف ، أى : أرني أنظر إلى علم من أعلامك الدالة على الساعة .
أو أنه سأل الرؤية لالتمسه ولكن لدفع قومه القائلين « أرنا الله جهرة ، وإنما
أضاف الرؤية إليه دونهم ليسكون منه أبلغ في دفعهم وردعهم عما سألوه
تنبيهًا بالآدنى على الأعلى

واعترضوا على الوجه الثانى بأننا لانسلم أنه علق الرؤية على أمر ممكن ،
لأن التعليق لم يكن على استقرار الجبل حال سكونه وإلا لوجدت الرؤية ضرورة
وجود الشرط ، لأن الجبل حال سكونه كان مستقرًا ، بل على استقراره حال
حركته وهو محال لذاته .

ثم أورد الألوسى بعد ذلك ما رده كل فريق على الآخر مما لا مجال
لذكره هنا (١) .

والذى نراه أن رؤية الله فى الآخر ممكنة كما قال أهل السنة لورود الآيات
القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التى تشهد بذلك ، أما فى الدنيا فقد منع
العلماء وقوعها ، وقد بينا ذلك بشئ من التفصيل عند تفسيرنا لقوله - تعالى -
« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » (٢) .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كرم الله - تعالى - به موسى - عليه السلام
فقال : « قال يا موسى إني اصطفتك على الناس برسالاتى وبكلامى » .

الاصطفاء . افتعال من الصفوة ، وصفوة الشئ خالصه وخياره أى :
قال الله - تعالى - لموسى إني اخترتك واجتيتك على الناس الموجودين فى
زمانك لأن الرسل كانوا قبل موسى وبعده ، فهو اصطفاء على جبل معين من
الناس بحكم هذه القرينة .

وقوله « برسالاتى » أى : بأسفار التوراة ، أو بإرسالى إياك إلى من

(١) تفسير الألوسى ج ٩ من ص ٤٦ - ٥٥ .

(٢) راجع تفسير سورة الأنعام ص ٢٢٨ .

أرسلت إليهم . ود بكلامي ، أرى : بتكليمي إياك بغير واسطة قال - تعالى -
« وكلم الله موسى تكليماً » .

والجملـة السكرية مسوقة لتسليته - عليه السلام - عما أصابه من عدم
الرؤية فكأنه - سبحانه - يقول له : إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من
النعم العظام ما أعطيتك فاغتنمه ودم على شكرى .

وقدم الرسالة على الكلام لأنها أسبق ، أو ليعتري إلى الأشرف .

ثم قال - تعالى - « فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » أى : فخذ يا موسى
ما أعطيتك من شرف الأصطفاء والنبوة والمناجاة وكن من الراشدين في الشكر
على ما أنعمت به عليك ، فأنت أسوة وقوة لأهل زمانك .

ثم فصل - سبحانه - بعض النعم التي منحها لنبيه موسى وقال : « وكتبنا له
في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء » .

المراد بالألواح كما قال ابن عباس - ألواح التوراة ، واختلف في عددها
فقيل : سبعة ألواح وقيل عشرة ألواح وقيل أكثر من ذلك . كما اختلف في
شأنها فقيل كانت من صدر الجنة ، وقيل كانت من زبرجد أوزمرد ... الخ .

والذي نراه تفويض معرفة ذلك إلى الله - تعالى - لأنه لم يرد نص صحيح
عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في عددها أو كيفيةها .

والمعنى : وكتبنا لموسى - عليه السلام - في ألواح التوراة من كل شيء
يحتاجون إليه من الحلال والحرام ، والمحاسن والقبايح . ليكون ذلك موعظة
لهم من شأنها أن تؤثر في قلوبهم ترغيباً وترهيباً ، كما كتبنا له في تلك الألواح
تفصيل كل شيء يتعلق بأمر هذه الرسالة المرسومة .

ولإسناد الكتابة إليه - تعالى - إما على معنى أن ذلك كان بقدرته - تعالى -
وصنعه ولا كسب لأحد فيه ، وإما على معنى أنها كتبتها بأمره ووجهه سواء
كان الكاتب لها موسى أو ملك من ملائكته - عز وجل - .

قال صاحب المنار : قال بعض المفسرين : إن الألواح كانت مشتملة على التوراة ، وقال بعضهم بل كانت قبل التوراة . والراجح أنها كانت أول ما أوتيه من وحى النشريع فكانت أصل التوراة الإجمالى ، وكانت سائر الأحكام من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل بخاطبها الله - تعالى - فى أوقات الحاجة إليها (١) .

وقوله « موعظة » وتفصيلا لكل شيء ، بدل من قوله « من كل شيء » باعتبار محله وهو النصب لأن من مزيدة كما يرى كثير من النحاة . أى : كتبنا له فيها كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام .

والضمير فى قوله - تعالى - فخذها بقوة ، يعود إلى الألواح . والفاء عاطفة لمحذوف على كتبنا ، والمحذوف هو لفظ قلنا وقوله « بقوة » ، حال من فاعل خذها أى : كتبنا له فى الألواح من كل شيء ، وقلنا له خذها بقوة أى بجد وحزم ، وصبر وجلد ، لأنه - عليه السلام - قد أرسل إلى قوم طال عليهم الأمد وهم فى الذل والاستعداد ، فإذا لم يكن المتولى لإرشادهم وإلى ما فيه هدايتهم ذا قوة وصبر ويقين ، فإنه قد يعجز عن تربيتهم . ويفشل فى تنفيذ أمر الله فيهم .

قال الجمل : وقوله - تعالى - « وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » أى التوراة ومعنى بأحسنها بحسنها إذ كل ما فيها حسن ، أو أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر ، وفعل الخير أحسن من ترك الشر ، وذلك لأن الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمرعان تحمل على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها إلى الصواب . أو أن فيها حسناً وأحسن كالقود والعفو ، والاتصاف بالصبر ، والمأمور به والمباح فأمروا بأن يأخذوا بما هو أكثر وأباً (٢) .

(١) تفسير المنار ج ٩ ص ١٩٠

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٩٠

وقوله - تعالى - : سأوريكم دار الفاسقين ، تؤكد لأمر القوم بالأخذ
بالأحسن وبعث عليه على نهج الوعيد والتهديد .

أى : سأريكم عاقبة من خالف أمرى ، وخرج عن طاعى ، كيف يصير
إلى الهلاك والدمار ، فذلك سنتى التى لا تتغير ولا تبدل .

قال ابن كثير : وإنما قال : سأوريكم دار الفاسقين ، كما يقول القائل لمن
يخطبه : سأريك غداً ما يصير اليه حال من خالفنى على وجه التهديد والوعيد
لمن عصاه وخالف أمره (١) .

وقيل المراد بدار الفاسقين دار فرعون وقومه وهى مصر ، كيف أقفرت
منهم ودمروا لفسقهم لتعذبوا فلا تفسقوا مثل فسقهم فيصيبكم ما أصابهم .
وقيل المراد بها منازل عاد وثمود والأقوام الذين هلكوا بسبب كفرهم
وقيل المراد بها أرض الشام التى كان يسكنها الجبارون . فإنهم لم يدخلوها
إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر على يد يوشع بن نون .

والذى نراه أن رأى الأول أرجح ، لأن الآية الكريمة تحكى سنة من
سنتن الله فى خلقه ، وهذه السنة تتمثل فى أن كل دار تفسق عن أمرها تكون
عاقبتها الذل والدمار ، ولأنه لم يرد حديث صحيح يعين المراد بدار الفاسقين .

فالآية الكريمة قد إشتملت على جانب من مظاهر نعم الله على نبيه موسى
- عليه السلام - كما إشتملت على الأمر الصريح منه - سبحانه - له بأن
يهيئ نفسه لخل تكاليف الرسالة بعزم وصبر ، وأن يأمر قومه بأن يأخذوا
بأكملها وأعلاها بدون ترخيص أو تحايل ، لأنهم قوم كانت طبيعتهم رخوة
وعزيمتهم ضعيفة ، ونفوسهم منحرفة . كما إشتملت على التحذير الشديد لكل
من يخرج عن طاعة الله وينتهك حرمانه .

ثم بين - سبحانه - عاقبة من يتكبرون فى الأرض بغير الحق فقال - تعالى - :

« سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ،
وَأِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا . وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ
لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُصْحَاهُمْ هَلْ يَمْجُزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ (١٤٧) » .

قوله - تعالى - « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض
بغير الحق ، استئناف مسوق لبيان أن أعداء دعاة الحق هم المستكبرون ، لأن
من شأن التكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على وجوه الخير .
ومعنى صرف هؤلاء المستكبرين عن الانتفاع بآيات الله وحججه ، منعهم
عن ذلك بالطبع على قلوبهم لسهو استعدادهم لا يتفكرون ولا يتدبرون
ولا يعتبرون .

أى : سأطبع على قلوب هؤلاء الذين يعدون أنفسهم كبراء ، ويرون
أنفسهم أنهم أعلى شأنًا من غيرهم ، مع أنهم أجهل الناس عقلا ،
وأنفسهم حالا .

وقوله « بغير الحق » ، صلة للتكبر على معنى يتكبرون ويتطالون بما ليس
بحق وهو دينهم الباطل ، وسفهم المفرط ، أو متعلق بمحذوف هو حال من
فاعله ، أى يتكبرون ملتبسين بغير الحق .

ثم بين - سبحانه - مام عليه من عناد وجحود فقال : « وإن يروا
كل آية لا يؤمنوا بها » أى : وإن يروا كل آية من الآيات التى نهى إلى
الحق . وترشد إلى الخير لا يؤمنوا بها لفساد قلوبهم ، وحسدكم لغيرهم على

ما آتاه الله من فضله ، وتكبرهم على الناس . والجملة الكريمة معطوفة على جملة « يتكبرون في الأرض بغير الحق » داخلة معها في حكم الصلة .

والمقصود بالآية إما المنزلة فيكون المراد برؤيتها مشاهدتها والإحساس بها عن طريق السماع . وإماماً يعمها وغيرهما من المعجزات ، فيكون المراد برؤيتها مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع الإبصار .

« وأن يروا سبيل الرشده » أى : الصلاح والاستقامة والسداد ، لا يتخذوه سبيلاً ، أى : لا يتوجهون إليه ولا يسلكونه لخالفته لأهوائهم وشهواتهم ، وإن يروا سبيل الغي ، أى : طريق الضلال عن الحق « يتخذوه سبيلاً ، أى : طريقاً يميلون إليه ، ويسمرون فيه بدون تفكير أو تدبر . وهذا شأن من مرد على الضلال ، وانغمس في الشرور والآثام . إنه لإلفه المذكرات صار الحسن عنده قبيحاً والقبيح حسناً ، وصدق الله إذ يقول : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، .

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان الأسباب التى أدت بهم إلى هذا الضلال العجيب فقال - تعالى : « ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، أى : ذلك المذكور من التكبر وعدم الإيمان بشيء من الدلائل الدالة على الحق وإعراضهم عن سبيل الهدى . وإقبالهم التام على طريق الغواية ، كائن بسبب إنهم كذبوا بآياتنا الدالة على بطلان ما هم عليه من أباطيل ، وبسبب أنهم كانوا عن هذه الآيات غافلين لاهين لا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون بما اشتملت عليه من عظات :

فاته - تعالى - لم يخلقهم مطبوعين على شيء . مما ذكر طبعاً ، ولم يحرم ويكرهم عليه إكراهاً ، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الدال على الحق .

واسم الإشارة « ذلك » مبتدأ ، وخبره الجار والمجرور بعده ، أى : ذلك الصرف بسبب تكذيبهم .

ثم قال - تعالى - « والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ،
أى : بطلت وفسدت وصارت دباء منشورا ، بسبب تكذيبهم لآيات الله ،
ولإنكارهم للآخرة وما فيها من ثواب وعقاب .

والاستفهام فى قوله « هل يحزون إلا ما كانوا يعملون ، للنفى : أى :
لا يحزون يوم القيامة إلا الجزاء الذى يستحقونه بسبب أعمالهم فى الدنيا .
فربك - سبحانه - لا يظلم أحدا .

وقوله « والذين كذبوا ، فى خبره وجهان : أحدهما أنه الجملة من قوله :
« حبطت أعمالهم » ، وهل يحزون خبر ثان أو مستأنف . والثانى : أن الخبر
هل يحزون ، والجملة من قوله « حبطت أعمالهم » فى محل نصب على الحال
وقد مضى عند من يشترط ذلك ، وصاحب الحال فاعل كذبوا .

وقوله « ولقاء الآخرة » فيه وجهان : أحدهما أنه من باب إضافة المصدر
لمفعوله والفاعل محذوف والتقدير : ولقائهم الآخرة . والثانى : أنه من باب
إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى : ولقاء ما وعد الله فى الآخرة (١) .

ثم قصت السورة علينا رذيلة من رذائل بنى إسرائيل المتعددة ، وذلك
أنهم بعد أن تركهم موسى - عليه - وذهب لمناجاة ربه مستخلفا عليهم أخاه
هارون ، اتهموا ابن جاب هارون معهم ، فعبدوا عجلا جسداً له خوارصنع
لهم السامرى من الخلى التى استعارها نساؤهم من نساء قبط مصر .

وحاول هارون - عليه السلام - أن يصددهم عن ذلك بقتى السبل ،
ولكنهم أعرضوا عنه قائلين ، لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ،
وأعلم الله - تعالى - موسى بما حدث من قومه فى غيبته فعاد إليهم مفضلاً
حزيناً ، فوبخهم على كفرهم وجهالاتهم ، وعاتب بشدة أخاه هارون لتركه

إياهم يعبدون العجل ولكن هارون اعتذر له ، وأقنعه بأنه لم يقصر في نصيحتهم
ولكنهم قوم لا يحبون الناصحين .

وعلى مشهد من بنى إسرائيل أحرق موسى العجل ، وقال للسامري رأس
الفتنة ومديرها : وانظر إلى إهلك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقه ثم لنسفنه
في اليم نسفاً : إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً ، وبذلك
أثبت موسى - عليه السلام - لقومه أن المستحق للعبادة إنما هو الله
رب العالمين .

واستمع معي إلى هذه الآيات التي قصت علينا ما حدث منهم بأسلوبها
البليغ فقالت :

« وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْهِمْ عَجَلًا جَسَـدًا لَهُ
خَوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا
ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ، قَالُوا
لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا
رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِيفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي
أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ
قَالَ ابْنُ أُمٍّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّتُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ
الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي
وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
الْعِجْلَ سَيِّئَاتِهِمْ غَضِبَ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا
إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) » .

قوله تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار
بيان لما صنعه بنو إسرائيل بعد فراق موسى - عليه السلام - لهم ، وذها به
لتلقى التوراة عن ربه . مستخلفا عليهم أخاه هارون .

والحلي (١) - بضم الحاء والتشديد - جمع حلي -- بفتح فسكون -
كثدى وثدى - وهى اسم لما يتزين به من الذهب والفضة ، وهذه الحلي كان
نساء بنى إسرائيل - قبيل خروجهن من مصر - قد استعرنها من نساء
المصريين ، فلما أغرق الله -- تعالى -- فرعون وقومه ، بقيت تلك الحلي في
أيديهن ، فجمعها السامري بحجة أنها لا تحل لمن ، وصاغ منها عجلا جسدا له
خوار ، وأوهمهم بأن هذا إلههم وإله موسى فعبدوه من دون الله .

قال الحافظ ابن كثير : (وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار
لحا ودما له خوار ، أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء
فيصوت كالبحر على قولين والله أعلم (٢) .

والمعنى : واتخذ قوم موسى من بعد فراقه لهم لأخذ التوراة عن ربه عجلا
جسدا له صوت البحر ليكون معبودا لهم .

وقوله : عجلا ، مفعول اتخذ بمعنى صاغ وعمل . وقيل إن اتخذ متعد إلى
اثنتين وهو بمعنى صير والمفعول الثانى محذوف أى : إلهها .

و د جسدا ، بدل من د عجلا ، أو عطف بيان أو نعت له بتأويل متجسدا .

قال صاحب الكشاف : (فإن قلت لم قيل واتخذ قوم موسى من بعده
من حليهم عجلا والمتخذ هو السامري ؟ قلت فيه وجهان : أحدهما : أن ينسب
الفعل إليهم لأن رجلا منهم باشره ووجد بين ظهرانيهم ، كما يقال بنو تميم

(١) قال الفرطى : (من حليهم) هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة وقرأ أهل

الكوفة إلا عاصبا (من حليهم) بكسر الحاء ، وقرأ يعقوب (من حليهم) بكسر
الحاء وقرأ يعقوب حليهم (بفتح الحاء والتخفيف) . ٥٧ ص ٢٨٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ ص ٢٤٧

قالوا كذا ، وفعلوا كذا والقائل والفاعل واحد . ولأنهم كانوا يريدون
لاتخاذهم راضين به فكأنهم أجمعوا عليه . والثاني : أن يراد واتخذوه إلهاً
وعبدوه . فإن قلت لم قال من حلبيهم ولم تكن الحلبي لهم لأنما كانت عارية في
أيديهم ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملائسة وكونها عواري في أيديهم
كفي به ملائسة على أنهم قد ملكوها بعد المملكين كاملين . كوا غيرهما من أملاكهم
ألا ترى إلى قوله تعالى : (فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام
كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل) (١) اهـ .

وقوله تعالى : (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً) تقرير لهم على
جهالاتهم . وبيان لفقداد عقولهم ، والمعنى : أبلغ عمى البصيرة هؤلاء القوم ،
أنهم لم يفظنوا حين عبدوا العجل ، أنه لا يقدر على ما يقدر عليه آحاد البشر ،
من الكلام والارشاد إلى أى طريق من طرق الافادة ، وليس ذلك من صفات
ربهم الذى له العبادة ، لأن من صفاته -- تعالى -- أنه يكلم أنبياءه ورسله ،
ويرشد خلقه إلى طريق الخير ، وينهاهم عن طرق الشر !!

ثم أكد -- سبحانه -- ذمهم بقوله (اتخذوه وكانوا ظالمين) أى :
اتخذوا العجل معبوداً لهم وهم يشاهدونه لا يكلمهم بأى كلام ، ولا يرشدهم
إلى أى طريق ، ولا شك أنهم بهذا الاتخاذ كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم غير
الله ، وبوضعهم الأمور في غير مواضعها .

وفى التعبير عن ظلمهم بلفظه (كانوا) المفيد للدوام والاستمرار ، إشعار
بان هذا الظلم دأبهم وعادتهم قبل هذا الاتخاذ وأن ماصدر عنهم ليس بدعائهم
ولا أول مناكيرهم ، فقد سبق لهم أن قالوا لنبيهم بمجرد أن أتوا على قوم
يعكفون على أصنام لهم (يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم
قوم تجهلون) (١) .

ثم بين - سبحانه - ما كان منهم بعد أن رأوا ضلالهم فقال تعالى :
 « ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر
 لنا لنكونن من الخاسرين ، أي وحين اشتد ندمهم على عبادة العجل ، وتبينوا
 ضلالهم وضحوا كأنهم أبصروه بعيونهم قالوا متحسرين : لئن لم يرحمنا ربنا
 ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ، أي لنكونن من الهالكين الذين حبطت
 أعمالهم .

وكان هذا الندم بعد رجوع موسى إليهم من الميقات وقد أعطاه
 الله التوراة ، بدليل أنه لما فصحه هارون بترك عبادة العجل قالوا : لن
 نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ، وبدليل أن موسى - عليه
 السلام - لما رجع أنكر عليهم ما هم عليه وهذا دليل على أنهم كانوا
 مستمرين على عبادته إلى أن رجع موسى إليهم وبصرهم بما هم عليه من
 ضلال مبين .

ولذلك قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : « ولما سقط في أيديهم »
 (ولما قدم الذين عبدوا العجل الذي وصف - جل ثناؤه - صفته ، عند
 رجوع موسى إليهم ، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم ، وكذلك تقول العرب
 لكل نادم على أمر فات منه أو سلف ، وعاجز عن شيء : قد سقط في يديه
 وأسقط . لغتان فصيحتان ، وأصله من الاستسار ، وذلك يضرب الرجل
 الرجل أو يصرعه ، فيرمى به من بين يديه إلى الأرض لياسره ، فالمرى به
 مسقوط في يدي الساقط به ، فليل لكل عاجز عن شيء ومتنهد على ما فاته :
 سقط في يديه وأسقط (١) .

وعبر - سبحانه - عن شدة ندمهم بقوله تعالى : « ولما سقط في أيديهم ،
 لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرة أن يمض يده عما فتير يده مسقوطا

فيها ، لأن فاه قد وقع فيها . وكان أصل الكلام ولما سقطت أفواههم في أيديهم ،
أي ندموا أشد الندم .

قال صاحب تاج العروس : وفي (العباب) هذا نظم لم يسمع به قبل
القرآن ولا عرفت العرب (والأصل فيه نزول الشيء من أعلى إلى أسفل) ،
ووقوعه على الأرض ، ثم اتسع فيه فقبل للخطأ من الكلام (سقط) لأنهم
شبهوه بما لا يحتاج إليه ، وذكر اليد لأن الندم يحدث في القلب . وأثره يظهر
في اليد ، كقوله تعالى : فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، ولأن اليد هي
الجارحة العظمى ، فربما يستدل إليها ما لم تباشره كقوله تعالى . ذلك بما قدمت
يداك ، (١) اه .

وقوله تعالى : ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ، بيان للحالة التي
كان عليها موسى - عليه السلام - عند رجوعه من الطور ، ومشاهدته للعجل
الذي عبده قومه ، فهو كان غاضبا عليهم لعبادتهم غير الله - تعالى - وحزينا
للفتنتهم بعبادتهم عجلا جسدا له خوار .

قال الإمام الرازي : في الأسف قولان : الأول : أن الأسف الشديد
الغضب ، وهو قول أبي الدرداء وعطاء عن ابن عباس ، واحتجوا له بقوله
تعالى : فلما آسفونا انتقمنا منهم ، أي : أغضبونا : والثاني : أن الأسف هو
الحزين ، وهو قول الحسن والسدي وغيرهما ، واحتجوا له بحديث عائشة أنها
قالت : إن أبا بكر رجل أسيف أي حزين ، .

قال الواحدي : والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن ، والحزن من
الغضب ، فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت ، وإذا جاءك ممن هو
فوقك حزنت ، فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنا والآخرى غضبا . . . (٢) .

(١) تفسير القاسمي ج ٧ ص ٢٨٥٩ ،

(٢) تفسير الرازي ج ٤ ص ٣٠٢ .

وقوله « غضبان أسفا » منصوبان على الحال من موسى عند من يجيز تعدد الحال . وعند من لا يجيزه يجعل أسفا حالا من الضمير المستكن في غضبان فتكون حالا متداخلة .

وقول موسى لقومه : (بشما خلفتموني من بعدى) ذم منه لهم ، والمعنى : بش خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة ربى ، وبش الفعل فعلكم بعد فراقى إياكم . حيث عبدتم العجل ، وأشربت قلوبكم بحبته ، ولم تعيروا التفاتا لما عهدت به إليكم ، من توحيد الله ، وإخلاص العبادة . والسير على سنتى وشريعى .

قال الجبل : و « بش » فعل ماض لإنشاء الذم ، وفعله مستقر تقديره هو وما تميز بمعنى خلافة ، وجمله خلفتموني صفة لما . والرابط محذوف ، والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير بش خلافة : خلفتمونيها من بعدى خلافتكم (١) . وقوله (من بعدى) معناه : من بعد ما رأيتم منى توحيد الله ، ونفى الشركاء عنه ، وإخلاص العبادة له ، أو من بعد ما كنت أحمل بنى إسرائيل على التوحيد واكفهم عما طمحت نحوها ابصارهم من عبادة البقر حين قالوا (لجعل لنا إلهة كما لهم آلهة) . ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه .

وقواه تعالى (أعجلتم أمر ربكم) معناه أسبقتم بعبادة العجل ما أمركم به ربكم وهو لا يتظارى حافظين لعهدى ، وما أوصيتكم به من التوحيد وإخلاص العبادة لله حتى آتاكم بكتاب الله ، فغيرتم وعبدتم العجل قيل : كانوا قد استبطأوا نزوله من الجبل ، فخذعهم السادى وصنع لهم العجل فعبدوه ، وجعلوا يغفون ويرقصون حوله ويقولون : هذا هو الإله الحق الذى أنقذنا من الظلم قال صاحب الكشاف (يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام . ويضمن معنى سبق فعدى تعديته فقال : عجلت الأمر . والمعنى : أعجلتم عن أمر ربكم

(١) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ١٩٣

وهو لا انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به ، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم ، فحدثتم أنفسكم بموتى ففهمتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم .

وروى أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل : هذا إلهكم وإله موسى ، وأن موسى لن يرجع وإنه قد مات .

وروى أنهم عدوا عشرين يوما بلبا إليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا (١) .

ثم بين - سبحانه - أن غضب موسى ترقب عليه أمران يدلان على شدة الإنفعال : أولهما : قوله تعالى : (وألقى الألواح) أى طرحها من يديه لما اعتراه من فرط الدهش ، وشدة الضجر ، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل ، فإلقاء الألواح لم يكن إلا غضبا لله ، وحمية لدينه ، وسخطا على قومه الذين عبدوا ما يضرب به المثل في البلادة .

قال الألوسي : وقوله - تعالى - ، (وألقى الألواح) ، حاصلة أن موسى لما رأى من قومه ما رأى . غضب غضبا شديدا حمية لدينه فجعل في وضع الألواح لتفرغ يده فيأخذ برأس أخيه فعبه عن ذلك الوضع بالإلقاء تفضيحا لفعل قومه حيث كانت معانيته سببا لذلك وداعيا إليه ، وليس فيه ما يتوهم منه الإهانة لكتاب الله بوجه من الوجوه . ولا تكسر بعض الألواح حصل من فعل مأذون فيه ولم يكن غرض موسى ولامر بباله ولا ظن ترتيبه على ما فعل . وليس هناك إلا العجلة في الوضع الناشئة من الغيرة لله . وقد أنكر بعض العلماء أن يكون شيء منها قد تكسر ، لأن ظاهر القرآن خلافة . نعم أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - (يرحم الله موسى ، ليس

المعاني كالخمر أخبره ربه أن قومه فتنوا بدمه فلم يلق الألواح فلما آرم وعانهم
ألقى الألواح فتكسر منها ، (١)

وثانيهما : قوله تعالى : (وأخذ برأس أخيه يجره إليه) أى . أخذ موسى
بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه غضبا منه ، لظنه أنه قد قصر في نصحتهم
وزجرهم عن عبادة العجل . ولكن هارون - عليه السلام - أخذ يستجيش
في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ، لمسكن من غضبه الشديد . وليكشف
له عن طبيعة الموقف ، وليبرىء ساحته من مغبة التقصير ، فقال له : (يا ابن أم إن
القوم إستضعفوني وكادوا يقتلونى فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم
الظالمين . أى : قال هارون لموسى مستعظما : يا ابن أمى - بهذا النداء الرقيق
وبذلك الوشيجة الرحيمة - لا تعجل بلوى وتعنيفي ، فإنى ما آليت جهدا في
الإنكار عليهم ، وما قصرت في نصيحتهم ولستكم لم يستمعوا لى ، بل قهرنى
وإستضعفونى ، وأوشكوا أن يقتلونى عندما بذلت أقصى طاقتى لأخفف
هياجهم ولأدفعهم نحو العجل ، فلا تفعل بى ما هو أمينتهم ومحل شمتهم ،
من الاستهانة بى والإساءة لى ، فإن من شأن الآخرة التى بيننا أن تكون
ناصرة معينة حين يكون هناك أعداء ، ولا تجعلني في زرة القوم
الظالمين ، فإنى برى منهم . ولقد نصحتهم ولستكم قوم لا يحبون الناصحين
وهنا إقتنع موسى - عليه السلام - ببراءة هارون من مغبة التقصير
فقال :

(ب) إغفر لى ولاخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) أى :
قال موسى ليرضى أخاه ، ول يظهر لأهل الشبهة رضاه عنه بعد أن ثبتت براءته
رب إغفر لى ما فرط منى من قول أو فعل فيه غلظة على اخى . واغفر له كذلك
ما عسى أن يكون قد قصر فيه بما أنت أعلم به منى ، وأدخلنا فى رحمتك التى
وسعت كل شىء . فأنت أرحم بعبادك من كل راحم .

وبهذا يكون القرآن الكريم قد برأ ساحة هارون من التقصير ، وأثبت
انه قد عرض نفسه للأذى في سبيل أن يصرف عابدى العجل عن عبادته وفي
ذلك تصحيح لما جاء في التوراة (الفصل الثانى والثلاثين من سفر الخروج)
من أن هارون - عليه السلام - هو الذى صنع العجل لبني إسرائيل ليعبدوه
في غيبة موسى - عليه السلام - .

ثم اصدر القرآن الكريم حكمه الفاصل في شأن عبدة العجل فقال تعالى :
(إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا
وكذلك نجزي المفترين) .

والمعنى . إن الذين اتخذوا العجل معبودا ، واستمعروا على ضلالتهم سيحيق
بهم سخط شديد من ربهم ، ولا تقبل توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم ، وسيصيبهم
كذلك هوان وصغار في الحياة الدنيا ، وبمثل هذا الجزاء نجازي المفترين جميعا
في كل زمان ومكان ، لخروجهم عن طاعتنا ، وتجاوزهم لحدودنا ، فهو جزاء
متكرر كلما تكررت الجريمة من بني إسرائيل وغيرهم .

ثم فتح - سبحانه - بابه لكل نائب صادق في توبته فقال تعالى :
(والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها
لغفور رحيم) .

والمعنى : والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعد فعلهم لها توبة صادقة
نصوحا ، ورجعوا إلى الله - تعالى - معتذرين نادمين مخلصين بالإيمان له ،
فإن الله - تعالى - من بعد الكبائر التى أقلموا عنها الساتر عليهم اعمامهم
السيئة ، وغير فاضحهم بها ، رحيم بهم وبكل من كان مثلهم من التائبين .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة - بعد أن دعت بني إسرائيل بما
يستحقونه من توبيخ ووعيد - قد فتحت أمامهم وأمام غيرهم باب التوبة
ليفتقروا إلى نور الحق ، وليتركوا ما إنفسموا فيه من ضلالات وجهالات .

ثم بين - سبحانه - ما فعله موسى بعد أن هدأ غضبه فقال :

« وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) » .

السكوت في أصل اللغة ترك الكلام ، والتعبير القسر آنى هنا يشخص الغضب كأنما هو - وكائن حتى يدفع موسى ويحركه ، ثم تركه بعد ذلك . ففي الكلام استعارة ممكنة حيث شبه الغضب بشخص أمرناه وأثبت له السكوت على طريق النخيل .

قال صاحب الكشف : قوله : « ولما سكوت عن موسى الغضب ، هذا مثل . كأن الغضب كان يقربه على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجرب رأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء . ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحهما كل ذى طبع سليم رذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبل شعب البلاء . وإلا ، فما لقراءة معاوية بن قرة ، ولما سكن عن موسى الغضب ، لا يجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة ، وطرفاً من تلك الروعة ، (١) .

والمعنى : وحين سكوت غضب موسى بسبب إعتذار أخيه وتوبة قومه أخذ الألواح التي كان قد ألقاها .

وظاهر الآية يفيد أن الألواح لم تنكسر ، ولم يرفع من التوراة شيء ، وأنه أخذها بعينها .

وقوله « وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » أى : أخذ موسى الألواح التي سبق له أن ألقاها ، وفيها نسخ في هذه الألواح أى : كتب هداية عظيمة إلى طريق الحق ، ورحمة واسعة للذين هم لربهم يرهبون . أى : يخافون أشد الخوف من خالقهم - عز وجل -

والنسخ ، الكتابة ، ونسخة هنا بمعنى منسوخة أى . مكتوبة ، والمراد
وفى منسوخها ومكتوبها هدى ورحمة .

و « هم » مبتدأ . وبرهبرن خبره ، والجملة صلة الموصول ، واللام فى
« للذين » متعلقة بمحذوف صفة لرحمة أى : كائنة لهم . أو هى لام العلة أى .
هدى ورحمة لأجلهم . واللام فى لربهم ، لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله
- تعالى - : « إن كنتم للرؤيا تعبرون » ، أو هى أيضاً لام العلة والمفعول
محذوف ، أى : يرهبون المعاصى لأجل ربهم لا للرباء والتباهى .

ثم تمضى السورة فى حديثها عن بنى إسرائيل فتحكى لنا قصة موسى مع
الصبعين الذين إختارهم من قومه فنقول :

« واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم
الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا
بما فعل السفهاء منا ، إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى
من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين (١٥٥)
واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هذنا إليك ،
قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ ، فسأ كتبها
للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون (١٥٦) » .

قال الألوسى : قوله - تعالى - « واختار موسى قومه سبعين رجلاً
لميقاتنا » تنمة لشرح أحوال بنى إسرائيل وقال البعض : لأنه شروع فى بيان
كيفية استدعاء التوبة وكيفية وقوعها . واختار - من الاختيار بمعنى الانتخاب

والاصطفاء - وهو يتعدى إلى اثنين ثانيهما مجرور بمن وقد حذفت هنا وأوصل الفعل والأصل من قومه ، والمفعول الأول سبعين ، (١) .

أى : اختار موسى سبعين رجلا من قومه للميقات الذى وقته الله له ، ودعاهم للذهاب معه .

وهؤلاء السبعون كانوا من خيرتهم أو كانوا خلاصتهم ، لأن الجملة الكريمة جعلتهم بدلا من القوم جميعا فى الاختيار ، وكان بنى إسرائيل على كثرتهم لا يوجد من بينهم فضلا سوى هؤلاء السبعين .

وتختلف روايات المفسرين فى سبب هذا الميقات وزمانه ، فمنهم من يرى أنه الميقات الكلامى الذى كلم الله فيه موسى تسليما فقد كان معه سبعون رجلا من شيوخ بنى إسرائيل ينتظرونه فى مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة ، فلما تمت مناجاة موسى لربه طلبوا منه أن يخاطبوا الله - تعالى - وأن يكلموه كما كلمه موسى ، وأن يروه جهرة فأخذتهم الصاعقة ، وكان ذلك قبل أن يخبر الله - تعالى - موسى أن قومه قد عبدوا العجل فى غيبته .

والذى ترجحه وعليه المحققون من المفسرين والسياق القرآنى يؤيده أن هذا الميقات الذى جاء فى هذه الآية غير الميقات الأول ، وأنه كان بعد عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غيبة موسى ، فقد عرفنا أن الله قد أخبره بذلك عند ذهابه إليه لتلقى التوراة ، فرجع موسى إليهم مسرعا ووبخهم على صنيعهم وأحرق العجل ، وأمره الله - تعالى - بعد ذلك أن يأتيه مع جماعة من بنى إسرائيل ليتوبوا إليه من عبادة العجل فاختار موسى هؤلاء السبعين ، وهناك روايات ترجح ذلك منها ما جاء عن محمد بن إسحاق قال : إن موسى - عليه السلام - لما رجع إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه السامرى ما قال وحرق العجل وذراه فى اليم ، اختار من بنى إسرائيل سبعين

رجلا الخير فالخير وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه عما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، فصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . نخرج بهم إلى طور سيناء لميعات وقته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم ، فقال له السبعون — فيما ذكر لي — حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه يا موسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا . فقال : أفعل . فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى غشى الجبل كله ، ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه . ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه ، أفعل ولا تفعل ، فلما انكشف عن موسى الغمام أتيل إليهم فقالوا له : د لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الساعة ، وهى الساعة التى يحصل منها الاضطراب الشديد فانوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإيائى ، قد سفهوا ، أهلك من ورائى من بنى إسرائيل ، (١) .

وهكذا نرى أن هؤلاء السبعين المختارين من بنى إسرائيل قد طلبوا من نبيهم موسى — عليه السلام — ما لا يصح لهم أن يطلبوه فأخذتهم الرجفة بسبب ذلك ، أو بسبب أنهم عندما عبد بنو إسرائيل العجل فى غيبة موسى لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمرهم بالمعروف .

وقوله : فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإيائى ، أى : فلما أخذت هؤلاء السبعين المختارين الرجفة قال موسى يارب إني أتمنى لو كانت سبقت مشيتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معى إلى هذا المكان وأن تهلكنى معهم حتى لا أقع فى حرج شديد مع بنى إسرائيل ، لأنهم سيقولون لى : قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم .

ويرى بعض المفسرين أن هذه الرجفة التى أخذتهم وصعقوا منها أدت إلى

موتهم جميعاً ثم أحياهم الله - تعالى - بعد ذلك ، ويرى آخرون أنهم غشوا عليهم ثم أفاقوا .

وقد قال موسى هذا القول لاستجلاب العفو من ربه عن هذه الجريمة التي اقترعها قومه . بعد أن من عليهم - سبحانه - بالنعم السابقة الوافرة ، وأنقذهم من فرعون وقومه . فكأنه يقول : يا رب لقد رحمتهم من ذنوب كثيرة ارتكبوها فيما سبق فارحمهم الآن كما رحمتهم من قبل جرباً على مقتضى كرمك .

ومفعول المشيئة محذوف ، أى : لو شئت لإهلاكهم لأهلكتهم . وقوله : وإياي ، معطوف على الضمير في دأهلكتهم ، ، وقد قال موسى ذلك تسليماً منه لأمر الله وقضائه وإن كان لم يسبق منه ما يوجب هلاكه ، بل الذى سبق منه إنما هو الطاعة الكاملة لله رب العالمين .

والاستفهام في قوله : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، للاستعطف الذى بمعنى النفي أى : أجزأ لإليك يا مولانا ألا تهلكنا بذنب غيرنا ، فلو كان هؤلاء السفهاء قد خرجوا عن صاعتك ، وانتهكوا حرمانك . فنحن يا رب مطيعون لك وخاضعون لأمرك .

قوله : إن مى إلا فتنتك نضل بها من تشاء وتمدى بها من تشاء ، استئناف مقرر لما قبله ، و : إن ، نافية . والفتنة : الابتلاء والاختبار ، والباء في : بها ، للسببية أى : ما الفتنة التى وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك ، فأنت الذى ابتليتهم واختبرتهم ، فالأمر كله لك وببيدك . لا يكشفه إلا أنت . كما لم يمتحن به ويختبر إلا أنت . فنحن عائدون بك منك . ولا حشون منك لإليك . ما شئت كان وما لم نشأ لم يكن .

وقوله : أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، أى : أنت القائم بأمرنا كلها لا أحد غيرك ، فاغفر لنا ما فرط منا ، وارحمنا برحمتك التى وسعت كل شيء ، وأنت خير الغافرين إذ كل غافر سواك إنما يغفر لغيره

نفساني ، كحجب الشفاء ، واجتلاب المنافع ، أما أنت - يا إلهنا - فغفررتك
لا لطلب عوض أو غرض وإنما هي لمحض الفضل والكرم .

ثم أضاف موسى إلى هذه الدعوات الطيبات دعوات أخرى فقال -
كما حكى القرآن عنه - « واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة .
أى : أثبت لنا في هذه الدنيا ما يحسن من نعمة وطاعة وعافية وتوفيق ، وأثبتت
لنا في الآخرة - أيضا - ما يحسن من مغفرة ورحمة وجنة عرضها السموات
والأرض .

وقوله : « إنا هدنا إليك » استئناف مسوق لتعليل الدعاء فإن التوبة الصادقة
تجعل الدعاء جديرا بالاجابة ، أى : لأننا تبنا إليك من المعاصي التي جشناك
للاعتذار منها . فاكتب لنا الحسنات في الدارين ، ولا تحرمنا من عطائك
الجزيل .

وهنا : بمعنى تبنا . يقال : هاد يهود إذا رجع وتاب .

وصدرت الجملة السكريمة - « إن ، المفيدة للتحقيق لإظهار كمال النشاط والرغبة
في مضمونها . وقوله : « قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء » ،
استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الجواب ، كأنه قيل : فماذا قال
الله - تعالى - عند دعاء موسى ، فكان الجواب : قال عذابي ... الخ .

ثم قال الله - تعالى - لموسى ردا على دعائه : يا موسى إن عذابي الذي
تخشى أن يصيب قومك أصيب به من أشاء تعذيبه من العصاة ، فلا يتمين أن
يكون قومك محلا له بعد توبتهم ، فقد اقتضت حكمتي أن اجازي الذين أساءوا
بما عملوا واجازي الذين أحسنوا بالحسنى .

« ورحمتي وسعت كل شيء » ، فلا تضيق عن قومك ، ولا عن غيرهم من خلقي
من هم أهل لها .

وقد استفادت الآيات والاحاديث التي تشرح بأن رحمة الله - تعالى - قد

وسعت كل شيء ومن ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - : إن لله عز وجل مائة رحمة فنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وآخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - من هم أهل رحمة فقال : فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون .

أى : فساكتب رحمتي للذين يصونون أنفسهم عن كل ما يغضب الله ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم في أموالهم .

ونخصيص إيتاء الزكاة بالذكر مع اقتضاء التقوى له للتعريض بقوم موسى . لأن إيتاءها كان شاقاً على نفوسهم لحرصهم الشديد على المال .

ولعل الصلاة لم تذكر مع أنها مقدمة على سائر العبادات . اكتفاء عنها بالاتقاء الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها . وترك المنهيات عن آخرها . وساكتبها كذلك للذين هم بآياتنا يؤمنون إيماناً تاماً خالصاً لا رياء فيه . ولا نقص معه .

ثم أضاف - سبحانه - صفات أخرى لمن هم أهل رحمة ورضوانه . وهذه الصفات تنطبق كل الانطباق على محمد صلى الله عليه وسلم الذي أمر بنو إسرائيل وغيرهم باتباعه فقال تعالى :

« الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا

الناسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا تُولُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) .

قوله تعالى - الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ، في محل جر على
أنه نعمت أقوله : ، للذين يتقربون ، أو يدل منه . أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ
محذوف . أي : هم الذين يتبعون ... الخ .

وقد وصف الله - تعالى - رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأوصاف
كريمة تدعو العقل المنصف إلى اتباعه والإيمان به .

الوصف الأول : أنه رسول الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً .

والوصف الثاني : أنه نبي أوحى الله إليه بشريعة عامة كاملة باقية إلى
يوم الدين .

الوصف الثالث : أنه أمي ماقرأ ولا كتب ولا جلس إلى معلم ولا أخذ
عليه عن أحد ولكن الله - تعالى - أوحى إليه بالقرآن الكريم عن طريق
جبريل عليه السلام - ، وأفاض عليه من لدنه علوماً فافعة ومبادئ -
توضح ما أنزله عليه من القرآن الكريم ، فسبق بذلك الفلاسفة والمشرعين
والمؤرخين وأرباب العلوم السكونية والطبيعية ، فأميته مع هذه العلوم التي
يصلح عليها أمر الدنيا والآخرة ، أوضح دليل على أن ما يقوله إنما هو بوحى
من الله إليه .

قال تعالى : ، وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري
ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا (١) .

وقال - سبحانه - ، وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا نخطه بيمينك
إذا لا تارتاب المبطلون (٢) .

الصفة الرابعة : أشار إليها بقوله (الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل) أى هذا الرسول النبى الأسمى من صفاته أن أهل الكتاب يجدوا اسمه ونعته مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ، ووجود اسمه ونعته فى كتب من أكبر الدواعى إلى الايمان به وتصديقه واتباعه ولقد كان اليهود يشهدوا ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم قبل زمانه ويقرؤون فى كتبهم ما يدل على ذلك فلما بعث الله - تعالى - نبيه بالهدى ودين الحق آمن منهم الذين فتحوا قلوبهم للحق ، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا ، وحسدوا محمداً صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله فقد أخذوا يحذفون من كتبهم ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم فيها ، أو يؤولونه تأويلاً فاسداً أو يكتُمونه عن عامتهم .

ورغم حرصهم على حذف ما جاء عن الرسول فى كتبهم أو تأويلهم السقيم له ، أو كتمانهم عن الآمين منهم . أبى الله - تعالى - إلا أن يتم نوره ، إذ بقى فى التوراة والانجيل ما بشر بالنبى صلى الله عليه وسلم وصرح بنعته وصفاته بل وباسمه صريحاً .

وقد تحدث العلماء الأثبات عن بشارات الأنبياء . بمحمد صلى الله عليه وسلم وجمعوا عشرات النصوص التى ذكرت نعوته وصفاته ، وهما نحن نذكر طرفة بما قاله العلماء فى هذا الشأن .

قال الامام الماوردى فى (أعلام النبوة) : (وقد تقدمت بشارات من سلف من الأنبياء ، بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما هو حجة على أممهم ، ويعجزون قدل على صدقه عند غيرهم ، بما أصلحه الله - تعالى - على غيبه ، ليمكون عوناً للرسول ، وحثاً على القبول ، فمنهم من عينه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصه بأفعاله ، ومنهم من ميزه بظهوره وانتشاره ، وقد حقق الله - تعالى -

هذه الصفات جميعها فيه ، حتى صار جلياً بعد الاحتمال ، وبقينا بهد
الارتباب^(١) .

وجاء في (منية الأذكياء في قصص الأنبياء) : (إن نبينا - عليه الصلاة
والسلام - قد بشر به الأنبياء السابقون ، وشهدوا بصدق نبوته ، ووصفوه
وصفاً رفع كل احتمال ، حيث صرحوا باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره
وسمته ، ومع أن أهل الكتاب حذفوا اسمه من نسخهم الأخيرة إلا أن ذلك
لم يخدم نفعاً ، لبقاء الصفات التي اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة
وهي أظهر دلالة من الاسم على المسمى ، إذ قد يشترك اثنان في اسم ، ويمتنع
اشتراك اثنين في جميع الأوصاف . لكن من أمد غير بعيد قد شرعوا في تحريف
بعض الصفات ليمسحوا على النبي صلى الله عليه وسلم فتري كل نسخة متأخرة
تختلف عما قبلها في بعض المواضع اختلافاً لا يخفى على اللبيب أمره ، ولا
ما قصد به . ولم يقدم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم . لانتشار النسخ بالطبع
وتفسير المقابلة بينهما^(٢) .

وقال المرحوم الشيخ (رحمة الله الهندي) في كتابه (إظهار الحق) : (إن
الأخبار الواقعة في حق محمد صلى الله عليه وسلم توجد كثيرة إلى الآن -
أيضاً - مع وقوع التحريفات في هذه الكتب . ومن عرف أوطار طرق أخبار
النبي المتقدم عن النبي المتأخر . ثم نظر تائياً بنظر الانصاف إلى هذه الأخبار
وقابلها بالأخبار التي نقلها الانجيليون في حق عيسى - عليه السلام - جزم
بأن الأخبار المحمدية في غاية القوة^(٣)) .

وقد جمع صاحب كتاب (إظهار الحق) وغيره من العلماء والمؤرخين

(١) الباب الخامس عشر : فصل (بشائر الأنبياء بنبوة محمد صلى الله عليه
وسلم) .

(٢) نقلاً عن تفسير القاسمي ص ٧ ص ٢٨٧ .

(٣) كتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمه الله الهندي .

كثيراً من البشائر التي وردت في التوراة والإنجيل خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ومدينة نمراته وصفاته .

ومن أجمع ما جاء في التوراة خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : (قرأت في التوراة صفة النبي صلى الله عليه وسلم) محمد رسول الله : عبدي ورسولي ، سميته المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسبيطة السبيطة ، بل يعفو ويصفح ، ولأقبحه حتى أفهم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ^(١) .

كذلك مما يشهد بوجود النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة ، ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي قال : (حدثني رجل من الأعراب فقال : جلبت حلوبة ^(٢) . إلى المدينة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل فلا سمعن منه ، قال : فلتقاني بين أبي بكر وعمر يمشيان ، فتبعتهما حتى إذا أتوا على رجل من اليهود وقد نشر التوراة يقرؤه يعزى بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ' أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي) فقال برأسه هكذا ، أي : لا ، فقال ابنه : أي والذي أنزل التوراة إنما أنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (أقيموا اليهودي عن أخيكم) ثم تولى كفته والصلاة عليه) .

هذا ، ومن أراد مزيد معرفة بتلك المسألة فليراجع ما كتبه العلماء في ذلك ^(٣)

(١) صحيح البخاري . بات « كراهة الصخب في الأسواق » من « كتاب

البيوع » ج ٣ ص ٨٣ .

(٢) الحلوبة : الشاة ذات اللبن وهي للواحد وللجمع .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٥١ .

ثم وصف الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم بصفة خامسة فقال
تعالى : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، أى هذا الرسول النبى الأسمى
الذى يجده أهل الكتاب مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل من صفاته كذلك
أنه يأمرهم بالمعروف الذى يتناول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الآخر كما يتناول مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وغير ذلك من الأمور التى
جاء بها الشرع الخفيف . وارتاحت لها العقول السليمة ، والقلوب الطاهرة
وينهاهم عن المنكر الذى يتناول الكفر والمعاصى ومساوىء الأخلاق .

ثم وصف الله - تعالى - رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بصفة سادسة
فقال تعالى : « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، أى : يحل لهم ما حرمه
الله عليهم من الطيبات كالشحوم وغيرها بسبب ظلمهم فسوقهم عقوبة لهم ،
ويحل لهم كذلك ما كانوا قد حرموه على أنفسهم دون أن يأذن به اللعوم كلحوم
الإبل والابلانها ، ويحرم عليهم ما هو خبيث كالدم ولحم الميتة والخنزير فى
الماكولات ، وكأخذ الربا وكل أموال الناس بالباطل فى المعاملات وفى ذاك
سعادتهم وفلاحهم .

ثم وصف الله تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم بصفة سابعة فقال تعالى :
« ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، .

الإصر : الثقل الذى يأصر صاحبه . أى يجبره عن الحركة لثقله ، ويطلق
على العهد كما فى قوله تعالى : « قال أقررتم وأخذتم على ذلك إصرى ،
أى عهدى .

قال القرطبي : « وقد جمعت هذه الآية المعنيين ، فإن بنى إسرائيل قد كان
أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقالة فوضع عنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم
ذلك العهد وثقل تلك الأعمال ، كفصل البول ، وتحليل الغنائم ، ومجالسة الخائض ،
ومواكبتها ومضاjectها . فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أجدهم بول قرصه . وإذا

جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها وإذا حاضت المرأة لم يقربوها . إلى غير ذلك مما ثبت في الصحيح وغيره ، (١) ،

والأغلال : جمع غل . وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد . والتعبير بوضع الإصر والأغلال عنهم استعارة لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة والتكاليف الشديدة كاشتراط قتل النفس لصحة التوبة . فقد شبهه - سبحانه - ما أخذ به بنو إسرائيل من الشدة في العبادات والمعاملات والمأكولات جزاء ظلمهم بحال من يحمل أنقلا يتن من حملها وهو فوق ذلك مقيد بالسلاسل ؛ والأغلال في عنقه وبديه ورجليه .

والمعنى : إن من صفات هذا الرسول النبي الأمي أنه جاءهم ليرفع عنهم ما نزل عليهم من تكاليف كلفهم الله بها بسبب ظلمهم . لأنه - عليه الصلاة والسلام - جاء بالتبشير والتخفيف . وبعث بالحنيفة السمحة . ومن وصاياه : « بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا » .

قال الإمام ابن كثير : « وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم . فوسع الله على هذه الأمة أمورها . وسهلها لهم . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسهم ما لم تقل أو تعمل . » وقال : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ، ولهذا قال : « أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : « ربنا ولا نحملنا ما لا طاقة لنا به . » واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين . » وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه : « قد فعلت » ، (٢) .

إذا ، فمن الواجب على بني إسرائيل أن يتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٠٠

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٥٤

الذى هذه صفاته ، والذى فى اتباعه سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم ، ولهذا ختم الله - تعالى - الآية - الآية الكريمة ببيان حالة المصدقين لنبه فقال تعالى :
« فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون » .

أى : فالذين آمنوا بهذا الرسول النبى الأسمى من بنى إسرائيل وغيرهم وعزروه ، بأن منعوه وحموه من كل من يعاديه ، مع التعظيم والتوقير له ونصروه بكل وسائل النصر ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، وهو القرآن والوحى الذى جاء به ودعا إليه الناس ، « أولئك هم المفلحون » ، أى الفائزون الضافرون برحمة الله ورضوانه .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت النبى صلى الله عليه وسلم بأحسن الصفات وأكرم المناقب ، وأقامت الحججة على أهل الكتاب بما يجدونه فى كتبهم وعلى السنة رسلم بأنه ما جاء لإلهدايتهم وسعادتهم ، وأنهم إن آمنوا به وصدقوه ، كانوا من « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

ثم أمر الله رسوله أن يبين للناس أنه مرسل إلى الناس كافة ، فقال تعالى :
(قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) أى : قل يا محمد لكافة البشر من عرب وعجم ، إني رسول الله إليكم جميعاً ، لا فرق بين نصرانى أو يهودى ، وإنما رسالتى إلى الناس عامة ، وقد جاء فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية ما يؤيد عموم رسالته .

أما فى القرآن الكريم ، فن ذلك قوله تعالى : وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، وقال تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » .
وقال تعالى : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » .
أى وأنذر من بلغه القرآن ممن سيوجد إلى يوم القيامة من سائر الأمم

وفي ذلك دلالة على عظم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أن أحكام القرآن تعم الثقلين إلى يوم الدين .

وأما في السنة فمن ذلك ما رواه البخاري عن جابر عبد الله أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : أعطيت خمساً لم يعطني أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمي أدرته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة (١) .

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار ، (٢) .

قال الامام ابن كثير : والآيات في هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الاسلام ضرورة أنه رسول إلى الناس كلهم (٣) هـ .

ثم وصف الله تعالى ذاته بما هو أهل له من صفات القدرة والوحدانية فقال تعالى : (الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت) أي : قل - يا محمد - للناس إني رسول إليكم من الله الذي له التصرف في السموات والأرض ، والذي لا معبود بحق سواه والذي بيده الاحياء والإماتة ، ومن كان هذا شأنه فمن الواجب أن يطاع أمره ، وأن يترك ما نهى عنه ، وأن يصدق رسوله . ثم بنى - سبحانه - على هذه النعمت

(١) صحيح البخاري (باب التيمم) - ١ ص ٧٢ .

(٢) صحيح مسلم (كتاب المساجد) .

(٣) تفسير ابن كثير - ٢ ص ٢٥٥ .

الجليلة التي وصف بها نفسه الدعوة إلى الإيمان فقال تعالى : (فَأَمْنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُوْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) أي فآمنوا أيها الناس جميعاً باللّهِ الواحد الأحد وآمنوا - أيضاً برسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) النبي الأمي الذي يؤمن باللّهِ ، وبما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كنهه ووحيه واسـلكو سبيله ، واقتفوا آثاره ، في كل ما يأمر به أو ينهى عنه رجاء أن تهتدوا إلى الصراط المستقيم .

وفي وصفه صلى الله عليه وسلم بالأمية مرة ثانية ، إشارة إلى كمال علمه ، لأنه مع عدم مطالعته للكتاب ، أو مصاحبته لمعلم . فتح الله له أبواب العلم ، وعلمه ما لم يكن يعلم من سائر العلوم التي تعلمها الناس عنه ، وصاروا بها أئمة العلماء وقادة المفكرين ، فأكرم بها من أمية تضال بجانبها علم العلماء في كل زمان ومكان .

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد وصفتا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأشرف الصفات وأقامتا أوضح الحجج وأقواها على صدقه في نبوته ودعنا اليهود بل الناس جميعاً - إلى الإيمان به لأنه قد بشرت به الكتب السماوية السابقة ولأنه صلى الله عليه وسلم ما جاءهم إلا بالخير ، وما ناهىهم إلا عن الشر . ولأن شريعته تمتاز باليسر والسماحة ، ولأن أنصاره وأتباعه هم المفلحون ، ولأن رسالته عامة للجن والانس ، ومن كانت هذه صفاته ، وتلك شريعته ، جدير أن يتبع ، وقين أن يصدق ويطاع ، وما يعرض عن دعوته إلا من طغى وآثر الحياة الدنيا .

ثم بين القرآن الكريم أن قوم موسى لم يكونوا جميعاً ضالين . وإنما كان فيهم الأخيار وفيهم الأشرار فقال - تعالى - :

« وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ » (١٥٩) .

أي : ومن قوم موسى جماعة عظيمة يهتدون بالحق الذي جاءهم به

من عند الله ، وبالحق - أيضا - يسرون في أحكامهم فلا يجورون ، ولا يرتفون ، وإنما يعدلون في كل شئونهم :

والمراد بهم أناس كانوا على خير وصلاح في عهد موسى - عليه السلام ، مخالفين لأولئك السفهاء من قومه .

وقيل المراد بهم من آمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - عند بعثته .

وهذا لون من ألوان عدالة القرآن في أحكامه ، وإنصافه لمن يستحق الانصاف من الناس . لأنه لا يسوق أحكامه مغممة بحيث يندرج تحتها الصالح والطالح بدون تمييز ، كلا وإنما القرآن يسوق أحكامه بإنصاف واحتراس ، فهو يحكم للصالحين بما يستحقون ، وتلك هي العدالة التي ما أحوج الناس في كل زمان ومكان إلى السير على طريقها ، وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - :
ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . . .

وقوله : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشتركون بآيات الله ثمنا قليلا . . . » .

وقوله « بالحق ، الباء للملايسة ، وهي مع مدخولها في محل الحال من الواو في يهدون . أى : يهدون الناس حال كونهم ملتبسين بالحق .

ثم ذكر القرآن بعض النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ، وكيف وقفوا من هذه النعم موقف الجاحد الكفور فقال - تعالى :

« وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ،
وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ، وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفْعِرْ
لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ، مَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَظْلِمُونَ (١٦٢) .

قوله : وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أما : أى : فرقنا قوم موسى وصيرا لهم
اثنتي عشرة أمة اشتهر كل أمة عن الأخرى .

والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب . والسبط : ولد الولد فهو
كالخفيد . وقد يطلق السبط على الولد .

وكان بنو إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً هم أولاد يعقوب
— عليه السلام — قالوا : والظاهر أن قطعناهم متعدد لواحد لأنه لم يضمن معنى
ما يتعدى لاثنتين ، فعلى هذا يكون اثنتي عشرة حالاً من مفعول : قطعناهم ،
وهو ضمير الغائبين « هم » .

ويرى الزمخشري وغيره أن : قطعناهم ، بمعنى صيرناهم وأن : اثنتي عشرة ،
مفعول ثان ، وتميز اثنتي محدوف لفهم المعنى والتقدير وقطعناهم اثنتي
عشرة فرقة .

و « أسباطا » بدل من ذلك التمييز ، و « أمما » بدل بعد بدل من اثنتي
عشرة .

والجمل الكريمة معطوفة على ما قبلها من أخبار بنى إسرائيل ، لمشاركتها
لها فى كل ما يقصد به من العظات والعبر .

وقوله : « وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن يضرب بعصاك الحجر
فانبعثت منه اثنتا عشرة عينا » .

الاستسقاء : طلب السقيا عند عدم الماء أو حبس المطر . وذلك عن طريق الدعاء لله - تعالى - في خشوع واستكانة ، وقد سأل موسى - عليه السلام - ربه أن يسقى بني إسرائيل الماء بعد أن استعبد بهم العطش بعد ما كافوا في التيه . فمن ابن عباس أنه قال : كان ذلك في التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها ،^(١) . وقيل : كان الاستسقاء في البرية ولكن الآثار التي تدل على أنه كان في التيه أصح وأكثر .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى حين طلب منه قومه الماء أن اضرب بعصاك الحجر فضربه فخرج منه الماء من اثنتي عشرة عينا ليروا بأعينهم مظاهر قدرتنا ، وليشاهدوا دليلا من الأدلة المتعددة التي تؤيد موسى في أنه صادق فيما يبلغه عن ربه - عز وجل - .

وقوله : إذ استسقاه قومه ، يفيد أن الذي سأل ربه السقيا هو موسى وحده ، لتظهر كرامته لدى ربه عند قومه ، وليشاهدوا بأعينهم كيف أن الله - تعالى - قد أكرمه حيث أجاب دعاءه ففجر لهم الماء من الحجر .

وأل في الحجر ، لتعريف الجنس ، أي : اضرب أي حجر شئت بدون تعيين ، وقيل للعهد ، ويكون المراد حجرا معيناً معروفا لموسى - عليه السلام - بوحي من الله - تعالى - وقد أورد بعض المفسرين في ذلك آثارا حكما عليها المحققون من العلماء بالضعف ، ولذا لم نعتد بها .

والذي نرجحه أن دأل ، هنا لتعريف الجنس ، لأن انفجار الماء من أي حجر بعد ضربه أظهر في إقامة البرهان على صدق موسى - عليه السلام - وأدعى لإيمان بني إسرائيل وانصياعهم للحق بعد وضوحه ، وأبعد عن التشكيك في إكرام الله لنبيه موسى ، إذ لو كان انفجار الماء من حجر معين

لأمكن أن يقولوا إن انفجار الماء منه لمعنى خاص بهذا الحجر ، وليس لكرامة موسى عند ربه - عز وجل - .

والفاء في قوله ، فانجسب منه اثنتا عشرة عينا ، معطوفة على محذوف والتقدير : فضرب فانجست ..

قال بعضهم : والانجاس والانفجار واحد . يقال نجست الماء أبجسه فانجس ، بمعنى فجرته فانفجر :

وقيل : إن الانفجاس خروج الماء من مكان ضيق بقله ، والانفجار خروجه بكثرة .

ولاتنافى بين قوله - تعالى - في سورة البقرة ، فانفجرت ، وبين قوله هنا ، فانجست ، لأنه انجس أولا ثم انفجر ثانيا . وكذا العيون يظهر الماء منها قليلا ثم يكثُر لدوام خروجه .

وكانت العيون اثنتى عشرة عينا بحسب عدد أسباط بنى إسرائيل إتماما للنعمة عليهم حتى لا يقع بينهم تنازع أو تشاجر .

وقوله ، قد علم كل أناس مشربهم ، إرشاد وتنبيه إلى حكمة الانقسام إلى اثنتى عشرة عينا . أى : قد عرف كل سبط من أسباط بنى إسرائيل مكان شربه فلا يتعداه إلى غيره ، وفي ذلك ما فيه من استقرار أمورهم ، واطمئنان نفوسهم ، وعدم تعدى بعضهم على بعض .

ثم ذكر - سبحانه - نعماء أخرى مما أنعم به عليهم فقال : ، وظللنا عليهم الغمام .

الغمام : جمع غمامة وهى السحابة : وخصه بعض علماء اللغة بالسحاب الأبيض .

أى : وسخرنا لبنى إسرائيل الغمام بحيث يلقى عليهم ظله ليقيهم من حر الشمس .

وقوله « وأنزلنا عليهم المان والسلوى » معطوف على ما قبله .

والمن : اسم جنس لا واحد له من لفظه ، وهو - على أرجح الأقوال -
حادة صفية تسقط من الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل .

والسلوى : اسم جنس جمعي واحده سلواه ، وهو طائر برى لذيق اللحم ،
سهل الصيد يسمى بالسماني ، كانت تسوقه لهم ربح الجنوب كل مساء فيمسكونه
قبضا بدون تعب .

وتظليلهم بالغمام وإزال المن والسلوى عليهم كان في مدة تيههم بين مصر
والشام المشار إليه بقوله - تعالى - : قال إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون
في الأرض .

قال السدي : ولما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى - عليه السلام -
كيف لنا بما هنا ؟ أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجر
الزنجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السماني فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير
فإن كان سمينا ذبحه وإلا أرسله ، فإذا أسمن أتاه ، فقالوا : هذا الطعام فأين
الشراب ؟ فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا
عشرة عينا ، فشرب كل سبط من عين . فقالوا : هذا الشراب فأين الظل فظلل
الله عليهم بالغمام فقالوا : هذا الظل فأين اللباس ؟ فكافأت ثيابهم تطول معهم
كما تطول الصبيان ولا يتمزق لهم ثوب فذلك قوله - تعالى - : وظللنا هياكلكم
الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ... ، (١) .

وقوله : كلوا من طيبات ما رزقناكم ، أى : وقلنا لهم كلوا من طيبات
ما رزقناكم ، واشكروا ربكم على هذه النعم التي يريدكم منها .

وقوله : وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، معطوف على محذوف
أى : فعصوا أمر ربهم وكفروا بهذه النعم الجالبة وما ظلمونا ولكن كانوا
أنفسهم يظلمون .

ويرى البعض أنه لا حاجة إلى هذا التقدير ، وأن جملة « وما ظلمونا » معطوفة على ما قبلها لأنها مثلها في أنها من أحوال بني إسرائيل .

والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة « كافوا » والفعل المضارع « يظلمون » يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر عنهم ، لأنك لا تقول في ذم إنسان « كان يسيء إلى الناس » إلا إذا كانت الإساءة تصدر عنه المرة تلو الأخرى .

قال ابن جرير عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة ما ملخصه : « هذا من الذي استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه وذلك أن معنى الكلام : كلوا من طيبات ما رزقناكم خالفوا ما أمرناهم به ، وعصوا ربهم ، ثم رسولنا إليهم وما ظلمونا ، فاكثف بما ظهر عما ترك . وقوله : « وما ظلمونا ، أي : ما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم ، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضره علينا ومنقصة لنا ، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضره علينا ومنقصة لها . فإن الله - تعالى - لا تضره معصية عاص ، ولا يتحيف خزيه ظلم ظالم ، ولا تنفقه طاعة مطيع ، ولا يزيد في ملكه عدل عادل . بل نفسه يظلم الظالم ، وحظها يبخس العاصي ، وإياها ينفع المطيع ، وحظها يصيب العادل ، (١) » .

وقوله - تعالى - « وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حسنة وادخلوا أبواب سجدا ... الخ » . تذكير لهم بصفة جلييلة مكفوا منها فما أحسنوا قبولها ، وما رعوها حق رعايتها ، وهي نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس وتكولهم عن ذلك .

قال الألوسي : وقوله « وإذ قيل لهم » معمول لفعل محذوف تقديره : اذكر . وإيراد الفعل هنا مبنيا للمفعول جريا على سنن الكبرياء مع الإيذان بأن الفاعل غنى عن التصریح . أي : أذكر لهم وقت قولنا لأسلأ فهم (٢) .

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٢٧

(٢) تفسير الألوسي ج ٩ ص ٨٨

والقرية هي البلدة المشتملة على مساكن ، والمراد بها هذا بيت المقدس
- على الراجح - وقبل المراد بها أريحا .

والحطة : كجلسة : لاسم للميثة ، من الحط بمعنى الوضع والإزال ، وأصله
إزال الشيء من علو . يقال : إستحطه وزرة : سألته أن يحطه عنه وينزله .

وهي خبر مبتدأ محذوف أى : مسألتنا حطة ، والأصل فيها النصب بمعنى :
حط ، عنا ذنوبنا حطة ، وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات .

والمعنى : وإذكروا أيها المعاصرون للعهد النبوى من بنى إسرائيل وقت
أن قيل لاسـلافكم لمسكنوا قرية بيت المقدس بعد خروجهم من التيه ،
وقيل لهم كذلك كلوا من خيراتها أكلا واسعا ، وأسألوا الله أن يحط عنكم
ذنوبكم ، وأدخلوا من بابها خاضعين خاشعين شكرًا لله على نعمه ، فإنكم إن
فعلتم ذلك غفرنا لكم خطيئاتكم .

وقوله - تعالى - « وكأوا منها حيث شئتم » فيه إشعار بكمال النعمة عليهم
وإساعها وكثرتها ، حيث أذن لهم في التمتع بشمات القرية وأطعمتها من أى
مكان شاءوا .

وقوله : « وقولوا حطة وأدخلوا الباب سجدا » إرشاد لهم إلى ما يجب
عليهم عمله نحو خالقهم ، وتوجههم إلى ما يعينهم على بلوغ غاياتهم بأيسر
الطرق وأسهل السبل لأن كل ما كلفهم الله - تعالى - به أن يضرعوا إليه بأن
يحط عنهم خطيئاتهم ، وأن يدخلوا من باب المدينة التى فتحها الله عليهم
مخبتين .

وقوله « نغفر لكم خطيئاتكم » مجزوم فى جواب الأمر .

وهذه الجملة الكريمة بيان للثمرة التى تقترب على طاعتهم وخضوعهم لخالقهم
وإغراء لهم على الإمتثال والشكر - لو كانوا يعقلون - لأن غاية ما يتمناه
العقلاء هو غفران الذنوب .

وقوله - تعالى - « سزيد المحسنين » ، وعد بالزيادة من خيرى الدنيا والآخرة لمن أسلم وجهه لله وهو محسن .

وقد أمر الله - تعالى - أن يفعلوا ذلك ، وأن يقولوا هذا القول ، لأن تغلبهم على أعدائهم نعمة من أجل النعم التى تستدعى منهم الشكر الجزيل لله - تعالى - . ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يظهر أقصى درجات الخضوع ، وأسمى ألوان الشكر عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب ، فعند ما تم له فتح مكة دخل إليها من الثغمة العليا وهو خاضع لربه ، حتى إن رأسه الشريف ليكاد يمس عنقه ناقلته شكرا لله على نعمة الفتح ، وبعد دخوله مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات سماها بعض الفقهاء صلاة الفتح .

ومن هنا يستحب العلماء للفاتحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة أن يصلوا فيها ثمانى ركعات عند أول دخولها شكرا لله ، وقد فعل ذلك سعد بن أبي وقاص عندما دخل إلى بنو أن كسرى . فقد ثبت أنه صلى بداخله ثمانى ركعات . ولكن ماذا كان من بنى إسرائيل بعد أن أنعم الله لهم نعمة الفتح ،

لقد حكى القرآن ما كان منهم من جحود وبطر فقال : « فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم » .

قال صاحب الكشف : « أى ومنعوا مكان حطة قولها غيرها ، يعنى أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به ، ولم يمتثلوا أمر الله ، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ يعينه وهو انفض الحطة فجاءوا بلفظ آخر ، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به لم يؤخذوا به ، كما لو قالوا مكان حطة نستغفرك ونتوب إليك ، أو اللهم أعف عنا وما أشبه ذلك ، (١) »

وقال الامام ابن كثير : « وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق

أنهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل . فقد أَمروا أن يدخلوا الباب سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعي رؤسهم . وأَمروا أن يقولوا حطة - أى احطط عنا ذنوبنا - فاستمروا وقالوا حنطة في شعيرة . وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته ، (١)

وأخرج البخارى عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة فبدّلوا ودخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا . حبة في شعيرة » ، (٢) .

والعبارة التى تؤخذ من هذه الجملة السكرية أن من أمره الله - تعالى بقول أو فعل فتركه وأنى بآخر لم يأذن به الله دخل في زمرة الظالمين ، وعرض نفسه لسوء المصير .

وقوله - تعالى - « فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون » تصريح بأن ما أصابهم من عذاب كان نتيجة عصيانهم وتمردهم وجحودهم لنعم الله .

والرجز : هو العذاب ، سواء أكان بالأمراض المختلفة أو بغيرها .

وفي النص على أن الرجز قد أتاهم من السماء إشعار بأنه عذاب لا يمكن دفعه ، وأنه لم يكن له سبب أرضى مزعدوى أو نحوها ، بل رمتهم به الملائكة من جهة السماء فأصيب به الذين ظلموا دون غيرهم .

هذا وقد ردت في سورة البقرة آيتان تشبهان في ألفاظهما هاتين الآيتين اللتين معنا هنا في سورة الأعراف ، أما آيتا سورة البقرة فهما قوله - تعالى -

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩٩

(٢) صحيح البخارى باب ، وإذ قلنا أدخلوها هذه القرية ، ج ٦ ص ٢٢

«وإذ قلنا أدخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وأدخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ، ،

وقد عقد الإمام الرازي مقارنة بين أسلوب الآيتين في كل من السورتين فقال ما ملخصه : إن الفاظ الآيتين في سورة الأعراف تخالف ألفاظ آيتي سورة البقرة من وجوه :

الأول : أنه قال - سبحانه - في سورة البقرة : «وإذ قلنا أدخلوا هذه القرية ، وهنا قال : «وإذ قيل لهم أسكنوا هذه القرية .
الثاني : أنه قال في سورة البقرة : « فكلوا ، بالفاء ، وقال هنا « وكلوا ، بالواو .

الثالث : أنه قال في سورة البقرة : « رغداً » وهذه الكلمة غير مذكورة هنا .

الرابع : أنه قال في سورة البقرة : « وأدخلوا الباب سجداً وقولوا حطة » وقال هنا على التقديم والتأخير .

الخامس : أنه قال في سورة البقرة : نغفر لكم خطاياكم ، وقال هنا « نغفر لكم خطيئاتكم » .

السادس : أنه قال في سورة البقرة : « وسنزيد المحسنين ، وهنا حذف حرف الواو .

السابع : أنه قال في سورة البقرة : « فأنزلنا على الذين ظلموا ، وقال هنا « فأرسلنا عليهم ، ،

الثامن : أنه قال في سورة البقرة : « بما كانوا يفسقون » وقال هنا بما كانوا يظلمون .

وأعلم أن هذه الألفاظ متقاربة ولا منافاة بينها البته ، ويمكن ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة من وجوه .

الأول : وهو أنه قال في سررة البقرة : أدخلوا هذه القرية ، وقال ههنا أسكنوا ، فالفرق أنه لا بد من دخول القرية أولا ثم سكناها ثانيا .

الثاني : أنه هناك قال : فكلوا ، بالفاء وهنا بالواو . والفرق أن الدخول حالة مخصوصة ، فإنه إنما يكون داخلا في أول دخوله ، وأما ما بعد ذلك فيكون سكونا لا دخولا إذا ثبت هذا فنقول . الدخول حالة منقضية زائلة وليس لها استمرار فلا جرم يحسن ذكر فاء التعقيب بعده ، فلم يذ قال : أدخلوا هذه القرية ، وأما السكون فحاله مستمرة باقية فيكون الأكل حاصلًا معه لاعتقابه ، فظهر الفرق .

وأما الثالث : وأنه ذكر هناك : رغدا ، ولم يذكره هنا ، فالفرق أن الأكل عقيب دخول القرية يكون ألد ، لأن الحاجة إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأنتم ، ولما كان الأمر كذلك ذكر كلمة : رغدا ، وأما الأكل حال سكون القرية فالظاهر أنه لا يكون في محل الحاجة الشديدة ما لم تسكن اللذة فيه متكاملة . فلا جرم ترك قوله : رغدا ، فيه .

وأما الرابع : وهو قوله هناك : وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة ، وهنا على العكس ، فالمراد التنبيه على أنه لا منافاة في ذلك ، لأن المقصود هو تعظيم أمر الله وإظهار الخضوع والخشوع له ، فلم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير .

وأما الخامس : وهو أنه قال هناك : خطاياكم ، وقال هنا : خطيئاتكم ، فهو إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة فهي مفضرة عند الإقيان بهذا التضرع والدعاء .

وأما السادس : وهو قوله هناك : وسيزيد المحسنين ، بالواو ، وقال هنا : وسيزيد ، بحذفها ، فالقائدة في حذف الواو أنه تعالى وعد بشيئين : بالغفران

وبالزيادة للمحسنين من العواب وإسقاط الواو لا يخل بذلك لأنه إستئناف مرتب على تقدير قول القائل ماذا بعد الغفران فقيل : إنه سيزيد المحسنين .
وأما السابع : وهو الفرق بين أنزلنا وبين أرسلنا ، فلأن الإنزال لا يشعر بالكثرة والإرسال يشعر بها . فكأنه - سبحانه - بدأ بإنزال العذاب القليل ثم جمعه كثيراً .

وأما الثامن : فهو الفرق بين قوله هناك « يفسقون » وقوله هناك يظلمون .
فذلك لأنهم موصوفون بكونهم ظالمين لأجل أنهم ظلموا أنفسهم ، وبكونهم فاسقين لأجل أنهم خرجوا عن طاعة الله . فالفائدة في ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الأمرين منهم .

ثم قال : فهذا ما خطر بالبال في ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة ، وتام العلم بها عند الله - تعالى - ، (١) .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت أن بنى إسرائيل مكذبوا من النعمة فنفروا منها ، وفتحت لهم أبواب الخير فأبوا دخولها ، فكانت عاقبتهم أن محقت النعم من بين أيديهم ، وسلط الله عليهم عذاباً شديداً من عنده بسبب ظلمهم وفسوقهم عن أمره .

وفي ذلك إثارة لحسرة اليهود المعاصرين للعهد النبوي على ما ضاع من أسلافهم بسبب إمتناعهم لحرمات الله ، وتحذير لهم من سلوك طريق آبائهم حتى لا يصيبهم ما أصابهم من عذاب ألم .

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن رذيلة أخرى من رذائل بنى إسرائيل الكثرة ، وهى تحابلهم على إستحلال محارم الله بسبب جهلهم وجشعهم وضعف إرادتهم .

وذلك أن الله - تعالى - أخذ عليهم عهداً بأن يتفرغوا لعبادته في يوم

السبت وحرّم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام ، واختيار أمنه - سبحانه - لإيمانهم ووفائهم بعهدهم أرسل إليهم الحيتان في يوم السبت دون غيره ، فكانت تترامى لهم على الساحل في ذلك اليوم ، قريبة المأخذ ، سهلة الاصطياد .

وهنا سأل لعاب شهواتهم ومطامعهم وفكروا في حيلة لاصطياد هذه الحيتان في يوم السبت فقالوا : لا مانع من أن نحفر إلى جانب ذلك البحر الذي يزخر بالأسماك في يوم السبت أحواضاً تنساب إليها المياه ومعها الأسماك ، ثم نترك هذه الأسماك محبوسة في الأحواض في يوم السبت - لأنها لا تستطيع الرجوع إلى البحر لضآلة الماء الذي في الأحواض . ثم نصطادها بعد ذلك في غير يوم السبت ، وبذلك نجتمع بين احترام ماعهد إلينا في يوم السبت وبين ما نشتهي أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك .

ولقد نصحهم الناصحون بأن عملهم هذا هو احتيال على عارم الله ، وأن حبس الحيتان في الأحواض هو صيدها في المعنى ، وهو فسوق عن أمر الله ونقض لعهوده .

ولكنهم لجأهم واستبداء المطامع على نفوسهم لم يعبأوا بنصح الناصحين بل نفذوا حيلاتهم الشيطانية ، فغضب الله عليهم ومسخهم قردة ، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم وموعظة للمتقين .

واستمع إلى سورة الأعراف وهي تحكي لنا هذه القصة بأسلوبها البليغ فتقول :

« وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ، إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ،

قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْتَقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّخِذْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِمِزَابٍ مِّثْقَلٍ بِهِمْ فَأَنهَوْا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا هَمَّوْا تَمَرُّهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) .

قوله - تعالى - . واسألهم عن القرية ... الخ ، معطوف على اذكر المقدر في قوله - تعالى - : وإذ قيل لهم اسكنوا . والخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم وضمير الغيبة للمعاصرين له من اليهود .

أى : سل يا محمد هؤلاء اليهود المعاصرين لك كيف كان حال أسلافهم الذين تحابوا على استحلال محارم الله فإنهم يجدون أخبارهم في كتبهم ولا يستطيعون كتمانها .

والمقصود من سؤالهم تقريرهم على عصيانهم ، لعلمهم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الحق ، ولا يعرضوا أنفسهم لعقوبات كالتى نزلت بسابقيهم ، وتعريفهم بأن هذه القصة من علومهم المهروفة لهم والى لا يستطيعون إنكارها ، والى لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أخبرهم بها النبى الأمى الذى لم يقرأ كتبهم كان ذلك معجزة له . ودليلا على أنه نبى صادق موحى إليه بها .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره الآية الكريمة : (أى واسأل - يا محمد - هؤلاء اليهود الذين بحضرتكم عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأهم نقمته على اعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة ، وحفر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم ، لئلا يحمل بهم ما حل ياخوانهم وسلفهم وهذه القرية هى ، أيلة ، وهى على . شاطىء . بحر القلزم ، أى - البحر الآخر -) (١) .

وقال الإمام القرطبي : وهذا سؤال تقرير وتوبيخ ، وكان ذلك علامة لصدق النبي صلى الله عليه وسلم إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، لأننا من سبط إسرائيل . ومن سبط موسى كليم الله ، ومن سبط ولده عزيز فنحن أولادهم ، فقال الله - عز وجل - لنبيه سلم - يا محمد - عن القرية . أما عذبتهم بذنوبهم ، وذلك بتغيير فروع الشريعة (١) .

وجهور المفسرين على أن المراد بهذه القرية . قرية (أيلة) التي تقع بين مدين والطور ، وقيل هي قرية طبرية ، وقيل هي مدين .
ومعنى كونها (حاضرة البحر) : قرية منه ، مشرفة على شاطئه ، تقول كنت بحضرة الدار أى قريبا منها .

وقوله : إذ يعدون في السبت ، أى يظلمون ويتجاوزون حدود الله - تعالى - بالصيد في يوم السبت ويعمدون بمعنى يعدون ، يقال : عدا فلان الأمر واعتدى إذا تجاوز حده .

وقوله تعالى (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبثون لا تأتيهم) بيان لموضع الاختيار والامتحان .

وإذ تأتيهم حيتانهم ، ظرف ليعدون . وحيتان جمع حوت وهو السمك الكبير . وشرعا : أى : شارعة ظاهرة على وجه الماء . جمع شارع ، من شرع عليه إذا دنا وأشرف وكل شيء دنا من شيء فهو شارع ، وقوله : شرعا حال من الحيتان .

والمعنى : إذ تأتيهم حيتانهم في وقت تعظيمهم ليوم السبت ظاهرة على وجه الماء دائية من القرية بحيث يمكنهم صيدها بسهولة ، فإذا مر يوم السبت وانتهى لا تأتيهم كما كانت تأتيهم فيه ، لبثاء من الله - تعالى - لهم .

قال ابن عباس : (اليهود أمروا باليوم الذى أمرتم به ، وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله - تعالى - به ، وحرّم عليهم الصيد

فيه ، وأمرهم بتعظيمه ، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر ، فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا في السبت المقبل ، وذلك بلاء ابتلاهم الله به ، فذلك معنى قوله تعالى (ويوم لا يسبغون لأنانيتهم^(١)) .

وقال الإمام القرطبي : (وروى في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود -- عليه السلام -- وأن إبليس أوحى إليهم فقال إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء . فآخذونها يوم الأحد^(٢)) .

وقوله تعالى (كذلك ابloom بما كانوا يفسقون) معناه : يمثل هذا الابتلاء ، وهو ظهور السمك لهم في يوم السبت ، واختفائه في غيره نبتليهم ونعاملهم معاملة من يخترهم ، لينالوا ما يستحقونه من عقوبة . بسبب فسقهم وتعديهم حدود ربهم ، وتحاليلهم القبيح على شريعتهم ، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعه سهل له أمور دنياه ، وأجرل له أبواب أخره ، ومن عصاه أخذته أخذ عزيز مقتدر .

ثم بين - سبحانه - طوائف هذه القرية وحال كل طائفة فقال تعالى : (ولذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون) .

والذي يفهم من الآية الكريمة ، - وعليه جمهور المفسرين - أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق .

- ١ - فرقة المعتدين في السبت ، المتجاوزين حدود الله عن تعمد وإصرار .
- ٢ - فرقة الناصحين لهم بالانتهاء عن تعذيبهم وفسوقهم .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٢١٦ طبعة الاميرية الأزهرية سنة ١٣٠٨ هـ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣٠٦ .

٣ - فرقة اللآئمين للناصحين ليا سبهم من صلاح العادين في السبت .

وهذه الفرقة الثالثة هي التي عبر القرآن الكريم عنها بقوله : (وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً) أى : قالت فرقة من أهل القرية ، لإخوانهم الذين لم يألوا جهداً في نصيحة العادين في السبت ، لم تعظون قوما لافائدة من وعظهم ولا جدوى من تحذيرهم ، لأن الله تعالى قد قضى بإسئصالهم وتطهير الأرض منهم ، أو بتعذيبهم عذاباً شديداً ، جزاء إتمامهم في الشر ، وصممهم عن سماع الموعدة فكان رد الناصحين عليهم (معذرة إلى ربكم ولعلمهم ينتهون) .

فهم قد عللوا نصيحتهم للعادين بعلمتين :

الأولى : الاعتذار إلى الله - تعالى - من مغبة التقصير في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والثانية : الأمل في صلاحهم وإنتفاعهم بالموعدة حتى ينجو من العقوبة ، ويسيروا في طريق المهتدين .

وقيل : أن أهل القرية كانوا فرقتين ، فرقة أقدمت على الذنب فاعتدت في السبت ، وفرقة أحجمت عن الإقدام ، ونصحت المعتدين بعدم التجاوز لحدود الله - تعالى - فلما داومت الفرقة الواعظة على نصيحتها للفرقة العادية ، قالت لها الفرقة العادية على سبيل التهمك والاستهزاء : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً في زعمكم ؟ فأجابتهم الناصحة بقولها . معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون .

والذي نرجحه إن أهل القرية كانوا ثلاث فرق كما قال جمهور المفسرين - لأن هذا هو الظاهر من الضائير في الآية الكريمة ، إذ لو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعادية (ولعلمكم تتقون) بكاف الخطاب ، بدل قولهم (ولعلمهم يتقون) الذي يدل على أن المحاورة قد دارت بين الفرقة اللآئمة ، والفرقة الناصحة .

قال الإمام القرطبي عند تفسيره الآية الكريمة : إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق ، فرقت عصت وصدت ، وكانوا ، ونحووا من سبعين ألفاً ، فرقة نمت ولم تعزلت ، وكانوا نحووا من اثني عشر ألفاً ، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص ، وأن هذه الطائفة هي التي قالت للناحية ، لم تعظون قوماً - عصاة - الله مهلكهم ، أو معذبهم على غلبه الظن . وما عهد حيثخذ من فعل الله تعالى بالأمم العاصية ؟ (١)

وقوله « معذرة » بالنصب على أنها مفعول لأجله أي : وعظماهم لأجل المعذرة ، أو منصوبة على أنها مصدر لفعل مقدر من لفظها أي : نعتذر معذرة وقرئت « معذرة » بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أي : وعظمتنا معذرة وقد اختار سيدي به هذا الوجه ونال في تعليقه : لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا لمعتذارا مستأنفاً ولكنهم قبل لهم لم تعظون ؟ فقالوا وعظمتنا معذرة .

ثم بين - سبحانه - عاقبة كل من الفرقة الناهية والعاصية فقال تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به أنجيئنا الذين ينهون عن سوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) أي : فلما لج الظالمون في طغيانهم ، وعموا وصموا عن النصيحة أنجيئنا الناصحين ، وأخذنا العادين بعذاب شديد لارحمه فيه بسبب خروجهم على أوامر الله .

والآية الكريمة صريحة في بيان أن الذين أخذوا بالعذاب البئيس هم الظالمون المعتدون وأن الذين نجواهم الناهون عن سوء . أما الفرقة الثالثة التي لامت الناهين عن سوء على وعظهم للمعتدين ، فقد سكنت عنها :

ويرى بعض المفسرين : أنها لم تنج ، لأنها لم تنه عن المنكر . فضلاً عن أنها لامت الناصحين لغيرهم .

ويرى جمهور المفسرين : أنها نجت ، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون

في السبت ولم ترتكب شيئاً مما ارتكبهوه ، وإذا كانت قد سكنت عن النصيحة ، فلأنها كانت يائسة من صلاح المعتدين ، ومقتنعة بأن القوم قد أصبحوا محل سخط الله وعذابه ، فلا جدوى وراء وعظهم ، وإلى هذا الرأي ذهب صاحب الكشف وغيره .

قال صاحب الكشف : (فإن قلت : الأمة الذين قالوا لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً — من أي الفريقين هم ؟ أمن فريق الناجين أم من فريق المعذبين . قلت من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين ، وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن آلة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلهم يحال القوم . وإذا علم الناهي حال المنهي ، وأن النهي لا يؤثر فيه ، سقط عنه النهي ، وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث ، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المسكسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب ، لتعظهم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثاً منك ، ولم يمكن إلا سبباً للتلهي بك ، أما الآخرون فإنهم لم يمرضوا عنهم ، إما لأن يأثمهم لم يستحكم كما استحكم بأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم . أو لفرط حرصهم وحدهم في أمرهم ، كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله (فلعلك باحع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) (١) .

وقال الإمام ابن كثير : (وروى عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أنه قال عندما سئل عن مصير الفرقة اللائمة ، ما أدري ما فعل بهم ، ثم صار إلى نجاتهم لما قال له غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوه فقالوا (لم تعظون قوماً مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً) قال عكرمة : فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا فكساني حلة) (٢) .

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ٥١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٦٧ .

والذى نرجعه أن مصير هذه الفرقة مفوض إلى الله ، لأنه لم يرد نص صحيح فى شأنها، فإن الآية الكريمة قد ذكرت صراحة عاقبة كل من الناصحين والعادين ولم تذكر مصير الفرقة الائمه للناصحة ولعل ذلك مرجعه إلى أنها وقفت من العادين فى السبب موقفاً سلبياً لاستحقت معه الإهمال ، إن لم تكن بسببه أهلاً للمواخاة .

ثم فصل - سبحانه - ما عوقبوا به من العذاب البئيس الذى أصابهم فقال تعالى : فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ؛ أى فلما تسكبروا عن ترك ما نهى عنهم الواعظون . قلنا لهم كونوا قردة صاغرين فكانوا كذلك .

قال الألوسى : (والأمر فى قوله تعالى (قلنا) تسكينى لا تسكينى ، لأنه ليس فى وسعهم حتى يكفروا به ، وهذا كقوله تعالى (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) فى أنه يحتمل أن يكون هناك قول وأن يكون الغرض مجرد التمثيل (١) .

وقيل فى تفسير الآية : إن الله تعالى - عاقب القوم أولاً بالعذاب البئيس الذى يتناول البؤس والشقاء والفقر فى المعيشة ، فلما لم يرتدعوا ويثوبوا إلى رشدهم ، مسخهم مسخاً خلقياً وجسيمياً ، فكانوا قردة على الحقيقة ، وهو الظاهر من الآية ، وعليه الجمهور :

وقيل : مسخهم مسخاً خلقياً ونفسياً ، فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها ، وهذا مروي عن مجاهد .

وتلك العقوبة كانت جزاء إمعانهم فى المعاصى ، وتأبيهم عن قبول النصيحة ، وضعف إرادتهم أمام مقاومه أطعاهم ، ولانتكاسهم إلى عالم

الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان . فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم
من الصغار والهوان .

هذا وقد استدلل العلماء بهذه الآيات المكربة على تحريم الخيل القبيحة
التي يتخذها بعض الناس ذريعة للتوصل إلى مقاصدهم الذميمة . وغاياتهم
الدنيئة ومطامعهم الخسيسة .

وقد أفاض الإمام ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان) في إيراد الأدلة
الدالة على هذا التحريم ، فقال مملخصه : (ومن مكابد الشيطان التي كادها
الإسلام وأهله ، الخيل والمسكر والخداع الذي يتضمن تحليل ما حرم الله
ولإسقاط ما فرضه ، ومضادته في أمره ونهيه ، وهي من الباطل الذي اتفق
السلف على ذمه ، فإن رأى رايان : رأى يوافق النصوص وتشهد له بالصحة
والاعتبار ، وهو الذي اعتبره السلف وعملوا به . ورأى يخالف النصوص
وتشهد له بالإبطال والإهدار ، وهو الذي ذموه وأهدروه .

وكذلك الخيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله - تعالى - به
وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام وتخليص المحق من الظالم المانع له ،
وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي ، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعمله .
ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالما ،
والظالم مظلوما ، والحق باطلا ، والباطل حقا . فهذا الذي اتفق السلف على
ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض . . ثم قال :

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة ، لما تخيلوا
على إباحة ما حرمه الله - تعالى - عليهم من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم
الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد ، أخذوه يوم الأحد .

قال بعض الأئمة : ففي هذا جر عظيم لمن يتعاطى الخيل على المناهي الشرعية ،
من يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه ، إذ الفقيه من يخشى الله - تعالى - يحفظ

حدوده ، وتعظيم حرمانه ، والوقوف عندها ، وليس المتحيل على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه ، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تمكدياً لموسى - عليه السلام - وكفراً بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال ، ظاهره ظاهر الإيفاء ، وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا مسخوا قرده ، لأن صورة القرده فيها شبهة من صورة الإنسان ، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض مظاهره دون حقيقته ، مسخهم سبحانه قرده يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاءً وفاقا ، وفي الحديث الشريف (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الخيل)^(١) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
(قال الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها)^(٢) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : د بلغ عمر - رضى الله عنه - أن سمرة باع خمرأ فقال : قاتل الله سمرة . ألم يعلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لمن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فجملوها - أى أذبوها - فباعوها^(٣) .

وهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت العادين في السبب من اليهود ، برذيلة الجهالة وضعف الإرادة ، وتحابلهم القبيح على استحلال محارم الله ، مما جعلهم أهلاً للعذاب الشديد والمسوخ الشنيع ، جزاء لمعانهم في المعصية وصممهم عن سماع الموعدة ، وما ربك بظلام للعبيد .

(١) إغاثة اللفهان ج ١ ص ٣٥٨ .

(٢) صحيح البخارى : باب (لا يذاب شحم الميتة) ج ٣ ص ١٠٢ ، وأخرجه مسلم في كتاب المساقاة ، ج ٢ ص ١٢٠٦ طبعة الحلبي .

(٣) صحيح البخارى : باب (لا يذاب شحم الميتة) ج ٣ ص ١٠٢ ، وأخرجه مسلم في كتاب المساقاة ، ج ٢ ص ١٢٠٧ .

ثم بين - سبحانه - ما نوعده أولئك اليهود من عقوبات بسبب كفرهم
وفسوقهم وإفسادهم في الأرض فقال - تعالى - :

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ
سُوءَ الْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)
وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ، وَبَلَوْنَاهُمْ
بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) » .

قوله ، وإذ تأذن ربك ، منصوب على المفعولية بمقدر معطوف على
، واسألهم ، أى : واذكر يا محمد لليهود وقت أن تأذن ربك .
وتأذن بمعنى آذن ، أى : أعلم . يقال : آذن الأمر وبالأمر أى : أعلمه .
وآذن تأذنيًا : أكثر الإعلام .

وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله ، ولذلك جىء بلام القسم
ونون التوكيد في جوابه وهو قوله - تعالى - : « لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ... أَلْخ » .
وقوله ، إلى يوم القيامة ، متعلق بقوله « لِيَبْعَثَنَّ » .

والمعنى : واذكر يا محمد وقت أن أعلم الله - تعالى - هؤلاء اليهود وأسلافهم
بأنهم إن غيروا وبدلوا ولم يؤمنوا بأفبيائهم ، ليمسطن عليهم إلى يوم القيامة من
ينذيقهم سوء العذاب كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك من صنوف العذاب
إن ربك لسريع العقاب لمن أقام على الكفر ، وجانب طريق الحق ، وإنه لغفور
رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحاً . وهذا من باب قرن الترغيب بالترهيب حتى
لا ييأس العاصي من رحمة الله بسبب ذنوبه السابقة إذا هو أقبل على الله بالتوبة والعمل
الصالح كما قال - تعالى - : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » .

ولقد يبدو للبعض أن هذا الوعيد لليهود قد توقف بسبب ما نرى لهم الآن
من دولة وصوله ولكن الذي نعتقد أن هذا الوعيد ما توقف مع ما لهم من

دولة . فإنهم ما زالوا محل احتقار الناس وبغضهم ووحى الدول التي تناصرهم إنما تناصرهم لأن السياسة تقتضى ذلك بينما شعوب هذه الدول تكره أولئك اليهود وتزدريهم وتنفر منهم .

وما قامت لليهود تلك الدولة إلا لأن المسلمين قد فرطوا في حق خالقهم ، وفي حق أنفسهم ، ولم يأخذوا بالأسباب التي شرعها الله لهم لحرب أعدائهم فكانت النتيجة أن أقام اليهود دولة لهم في قلب البلاد الإسلامية وعندما يعود المسلمون إلى الأخذ التام الكامل بتعاليم دينهم وإلى مباشرة الأسباب التي شرعها الله مباشرة سليمة ، عندما يفعلون ذلك تعود إليهم عزتهم المسلوبة وكرامتهم المنصوبة .

وصدق الله إذ يقول : « ذاك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . . »

هذا وقوله - تعالى - « وقطعناهم في الأرض أمماً ، لإخبار عن عقوبة أخرى من عقوباتهم المتنوعة بسبب كفرهم وجحودهم ، وتمثل هذه العقوبة في تفريقهم في الأرض ، وتمزيقهم شراً ممزق حتى لا تكون لهم شوكه .

و « أمماً ، حال من مفعول « قطعناهم » ، أو مفعول ثانٍ لقطعناهم على أنه بمعنى صيرناهم .

أى : أن هؤلاء اليهود قد مرقناهم في الأرض شراً ممزق بسبب عصيانهم وفسوقهم ، وصيرناهم فرقاً متقطعة الأوصال ، مشتتة الأهواء . وقوله « منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » ، بيان لحالهم .

أى : من هؤلاء اليهود قلة آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فصلح حالها ، وحسنت عاقبتها ، ومنهم كثرة منحطة عن رتبة أولئك المؤمنين الصالحين ، بسبب فسوقهم عن أمر الله ، وانتماءهم لحرماته .

والجمله من المبتدأ والخبر ، في موضع نصب على أنها صفة لـ « أمماً » .

وقوله : ومنهم دون ذلك ، الجار والمجرور خبر مقدم و ، دون ذلك ، نعت لمنعوت محذوف هو المبتدأ والتقدير : ومنهم ناس أو جماعة دون ذلك . وهذه الجملة الكريمة تدل على أن القرآن الكريم يستعمل الإنصاف والعدالة وتقرير الحقائق مع أعدائه وأتباعه على السواء ، فهو يمدح من يستحق المديح ، ويذم من هو أهل الذم ، وما أحوج الناس في كل زمان ومكان إلى التخلق بهذه الأخلاق .

وقوله - تعالى - : وبلوناكم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون ، أى عالمناهم معاملة المبتلى الممتحن قارة بالنعمة الكثيرة كالصحة والحسب وسعة الأرزاق ، وقارة بالنقم المتنوعة كالجذب والأمراض والشدائد ، لعلمهم يرجعون إلى طاعة ربهم ، ويتركون ما نهوا عنه من المعاصي والسيئات .

يقال : بلاء يبلوه بلوا ، وابتلاه ابتلاء ، إذا جربه واختبره . ولقد كانت نتيجة هذا الابتلاء والاختبار أن تكشف الحقائق عن أن الكثرة من بني إسرائيل سلكت طريق الضلالة والغواية ، والقلة هي التي آمنت وأصلحت ولذا عاقب الله تلك الكثرة بالعقوبة التي تناسبها جزاءً ووفقاً .

هذا ، وما أخبر به القرآن من أن الله - تعالى - قد توعد بني إسرائيل وأخبرهم بأنه سيسلط عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب بسبب كفرهم وفسوقهم قد شهد بصدقة التاريخ ، وأيدته الحوادث ، وهذه نماذج قليلة من تلك العقوبات التي نزلت بهم في الأزمنة المختلفة (١) .

أولاً : بعد وفاة سليمان - عليه السلام - حوالى سنة ٩٧٥ ق م انقسمت مملكته إلى قسمين : مملكة الشمال ، واسمها (إسرائيل) ومقرها (السامرة) (٢) . وتتكون من الأسباط العشرة .

(١) ذكرنا هنا نماذج قليلة من تلك العقوبات ومن أراد معرفة المزيد فليرجع إلى كتابنا «بنو إسرائيل في القرآن والسنة» ، ص ٣٢٦ وما بعدها .
(٢) السامرة وهي نابلس الآن .

ومملكة الجنوب واسمها (يهوذا) ومقرها (اورشليم ^(١)) وتكون من سبطى يهوذا وبنيامين .

وقد استمرت المنازعات بين المملكتين مدة طويلة ، انتهت بانقضاء (سرجون) ملك آشور على مملكة الشمال (لىسرائيل) سنة ٧٢١ ق م فقتل الآلاف من رجالها ، وأسر البقية منهم فرحلهم إلى ماوراء نهر الفرات ، وقضى على هذه المملكة قضاء لم تقم لها بعده قائمة .

وأما مملكة الجنوب (اورشليم) فقد حاولت أن تثبت بالبقاء ، ولكن معاول الهدم غزتها من الشرق ومن الجنوب وكانت نهايتها على يد بختنصر البابلي سنة ٥٨٦ ق م .

ويصور أحد الكتاب الغربيين قصة النكبات التى أدت إلى زوال مملكة (يهوذا ولىسرائيل) فىقول : (هى قصة نكبات وقصة تحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء النكبة القاضية ، هى قصة ملوك صمخ يحكمون شعبا من الهمج ، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ ق م دحت يد الأسر الآشورى مملكة لىسرائيل من الوجود ، وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما ، وظلت مملكة يهوذا تمكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ ق م .

ثافيا : استرد اليهود بعض أنفاسهم بعد وقوعهم تحت حكم الفرس من حوالى سنة ٥٣٦ إلى سنة ٣٣٢ ق م فقد عادوا فى هذه الفترة إلى فلسطين ، ووقعرا تحت سيطرة الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٠ ق م .

وفى سنة ٢٢٠ ق م . سار لإلهم (بطليموس) خليفة الإسكندر ، فهدم القدس ، ودك أسوارها ، وأرسل منهم مائة ألف أسير إلى مصر ، لأنهم ثاروا عليه .

(١) اورشليم هى بيت المقدس الآن .

ثالثاً : في سنة ٢٠ ق م تقريباً ، وقع اليهود تحت سيطرة السلوقيين السوريين بعد انتصارهم على البطالسة ، ورأى بعض الحكام السلوقيين من اليهود تمرداً وعصياناً ، فأنزّلوا بهم أشد العقوبات في عدة مواقع ، وكان من أبرز المنحكين باليهود (انطوخيس) ما بين سنة ١٧٠ . وسنة ١٦٨ ق م فقد هاجم (أورشليم) وهدم أسوارها وهيكلا . ونهب ما فيها من أموال وقتل من أهلها أربعين ألفاً في ثلاثة أيام ، وباع مثل ذلك العدد عبيداً منهم ولم يفلت من يده إلا اليهود الذين هربوا إلى الجبال ، وقد أقام (انطوخيس) قمة على أحد الجبال ليُشاهد منها كل من يقترب من اليهود إلى أورشليم ليقتله ، وقد وصل به الحال أنه أكره عدداً كبيراً منهم على ترك الديانة اليهودية وجعل هيكلم في أورشليم معبداً لإلهه .

رابعاً : وفي سنة ٦٣ ق م أغار الرومان بقيادة (بامبيوس) على أورشليم فاحتلوها ، واستمر احتلالهم حتى سنة ٦١٤ م . وخلال احتلال الرومان لفلسطين قام اليهود بعدة ثورات باءت كلها بالفشل ، ولقوا بسبب تمردهم وعصيانهم من الرومان ألواناً من القتل والسبي والتشريد .

كان من أشهرها ما أنزله بهم ديتس . الروماني سنة ٧٠ م فقد اقتحم في هذه السنة أورشليم فدمرها تدميراً ، وقتل الآلاف من اليهود وأحرق هيكلم . خامساً : بعد هذه التماذج التي سبقناها لما أنزله الرومان من عقوبات على اليهود ، نتابع سيرنا في سرد بعض العقوبات التي أنزلها المسلمون باليهود بسبب بغيتهم وخياناتهم فنقول :

بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، عامل اليهود القاطنين والمجاورين لها معاملة طيبة ، وعقد بينهم معاهدة ضمنت لهم حقوقهم ولكنهم نفضوا عهدهم ، ولم يتركوا وسيلة من وسائل السكيد للإسلام والمسلمين إلا فعلوها ، وحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يغنيهم عن جحودهم وبغيتهم ولكنهم لم يستجيبوا له . فعاقب صلى الله عليه وسلم كل طائفة منهم بالعقوبة

التي تناسب جرمهم وخيانتهم وتكفل للمسلمين أن يعيشوا في مأمن من شرورهم ، ومن بين العقوبات التي أنزلها النبي صلى الله عليه وسلم بهم لإجلاؤه لبني قينقاع ولبنى النضير عن المدينة ، وقتله لبني قريظة وإهداره لدم بعض كبرائهم ككعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق ، ومحاربته ليهود خيبر ومصالحته لهم بعد مقتل عدد كبير منهم ، ورفعهم راية الأمان ، والاستسلام ، وقبولهم الشروط التي اشترطها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان من آخر الكلمات التي نطق بها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته قوله موصيا أصحابه (أخرجوا اليهود من جزيرة العرب لا يبقى في جزيرة العرب دينان)^(١) .

وفي عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تم إخراج جميع اليهود من جزيرة العرب ، لاستجابة لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم .
سادساً : وفي ختام عرضنا لبعض العقوبات التي نزلت باليهود في الأزمنة المختلفة جزاء إجرامهم وإثارتهم للفتن نسوق بعض الأمثلة لما حل بهم على أيدي بعض الدول الأوروبية .

(أ) ففي بريطانيا : لقي اليهود في بعض العهود ألواناً من التعذيب ، وصنوفاً من القتل والتشريد .

١ - من ذلك أن الملك الإنجليزي (يوحنا) أصدر أمراً بحبسهم في جميع أنحاء مملكته .

وفي سنة ١٩٢٨ م جأر الشعب البريطاني بالشكوى من اليهود ، فأصدر الملك إدوارد الأول أمراً بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية في غضون ثلاثة أشهر ، إلا أن الشعب البريطاني لم يصبر على اليهود حتى تنقضي تلك المدة ، بل أخذ يقتل منهم العشرات والمئات وفي قلعة (بورك) التي احتوى بها عدد كبير من اليهود أحرق الإنجليز أكثر من خمسمائة يهودي وقد اضطر الملك

إلى ترحيلهم قبل انقضاء المدة لئلا يفتك الشعب بهم جميعا في كل مكان ، وظلت بريطانيا خالية من اليهود طوال ثلاثة قرون تقريباً ، ولكن عادوا إليها سنة ١٦٥٦ م في عهد الطاغية (كرومويل) الذي اغتصب الملك (شارل الأول) بعد أن قدم له اليهود الأموال الطائلة في سبيل بلوغ أغراضه .

(ب) وفي فرنسا : تعرض اليهود في أزمنة مختلفة لنقمة الشعب الفرنسي وغضبه ، لأنهم درسوا اقتصاده الوطني ، وخفقوه بالربا الفاحش ، والمعاملات السيئة .

١ - في عهد (لويس التاسع) تدهورت الحالة الاقتصادية في فرنسا فأصدر أمراً بإلغاء ثلث ما لليهود على الفرنسيين من ديون ، ثم أصدر أمراً بإحراق جميع كتبهم المقدسة ، وخاصة التلمود . وقد قال أحد المؤرخين إنهم أحرقوا في باريس وحدها محمول أربع وعشرين مركبة من نسخ التلمود وغيرها (١) .

٢ - وخلال تولي (فيليب الجميل) حكم فرنسا . أنزل الفرنسيون باليهود صنوفاً من القتل والنهب والتشريد ، ثم طردوا من فرنسا نهائياً . ولسكنهم عادوا إليها بعد أن دفعوا (لفيليب) ثلثي الديون التي لهم في فرنسا .

٣ - وفي سنة ١٣٢١ م هاجمهم الشعب الفرنسي وذبح عدداً كبيراً منهم ، ونكل بهم تنكيلاً شديداً ، ثم طردوا من فرنسا بعد أن نهبت أموالهم ولم يستطيعوا العودة إليها إلا في أواسط القرن السادس عشر .

٤ - وفي أوائل القرن التاسع عشر حاول (نابليون) أن يستغلهم لبلوغ مخطامه ، ولكنهم خانوه ، فاحتقرهم ، وبطش بعدد منهم . وقال عنهم إنهم حثالات البشر وجراثيمه . ولم ينجح اليهود من بطش الشعب الفرنسي إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين .

(١) تاريخ الإسرائيليين ص ٨٣ شاهين . مكاريوس ،
١٦ - سورة الأعراف .

(ح) وفي إيطاليا ، حاربهم البابوات حرباً شعواء وأطلقوا عليهم اسم (الشعب المكروه) وأغروا الشعب الإيطالي بهم فأعمل فيهم القتل والتشريد وقد أصدر البابوات مراسيم عديدة لتكفير اليهود وتسفيه ديانتهم القاسمة على التلمود .

وفي سنة ١٢٤٣ م أعلن البابا (جريجورى) التاسع اتهامات صريحة ضد التلمود الذى يظن فى المسيح والمسيحية ، وأصدر أوامره بإحراقه فأحرقت جميع نسخه .

وفي سنة ١٥٤٠ ثار الشعب الإيطالي على اليهود ثورة عارمة قتل فيها الآلاف منهم وطردوا من بقى حيا خارج إيطاليا .

(د) وفى أسبانيا : ذاق اليهود من الشعب الأسباني ومملوكه صنوف الذل وألوان الهوان ، ولم يظفروا بالراحة إلا فى أيام الحكم الإسلامى لاسبانيا . ولشكف بذكر عقوبة واحدة من العقوبات المتعددة التى نزلت بهم فى تلك البلاد .

فى عهد الملك (فرديناند) وزوجته (إزابلا) وصلت موجة السخط على اليهود أقصاها : لتغلغلهم فى الحياة الأسبانية ، واستيلائهم على اقتصادها وإشغالهم ناز الخلافات الدينية بين الطوائف . . . فرأى الملك وزوجته أن خير وسيلة لوقاية البلاد من شرورهم هى طردهم من أسبانيا طرداً نهائياً .

وفى ٣١ من مارس سنة ١٩٥٢ صدر المرسوم التالى عن الملك (فرديناند) : (يعيش فى مملكتنا عدد غير قليل من اليهود ، ولقد أنشأنا محاكم التفتيش منذ اثنتى عشرة سنة . وهى تعمل دائماً على توقيع العقوبة على المدنيين ، وبناء على التقارير التى رفعتها لنا محاكم التفتيش ، ثبت بأن الصدام الذى يقع بين المسيحيين واليهود يؤدى إلى ضرر عظيم ، ويؤدى بالتالى إلى القضاء على المذهب الكاثوليكي ، ولذا قررنا نفي اليهود ذكورا وإناثا خارج حدود مملكتنا وإلى

الأبد وعلى اليهود جميعا الذين يعيشون في بلادنا وممتلكاتنا ومن غير تميز في الجنس أو الأعمار أن يغادروا البلاد في غضون فترة أقصاها نهاية يوليو من نفس العام ، وعليهم ألا يحاولوا العودة تحت أى ظرف أو سبب... (١).

وبمقتضى هذا القرار طرد اليهود من طردة من أسبانيا بعد أن أرغموا على ترك ذهبهم ونقودهم ، وبعد أن نفثوا سمومهم في أسبانيا زهاء سبعة قرون وكان عددهم عندما خرجوا منها مطرودين يبلغ نصف مليون نسمة ويعتبر بعض اليهود هذا القرار وما تلاه من طرد وتشريد أسوأ من خراب أورشليم .

(هـ) وفي روسيا: كان يعيش نصف يهود العالم تقريبا خلال القرن التاسع عشر وقد استعملوا طول مدة إقامتهم في روسيا كل وسائلهم الخبيثة للتدمير والتخريب ، ففتحو الخنادق وتاجروا في الخمر ، وأقرضوا بالربا الفاحش ، واستولوا على الكثير من أموال الدولة بالطرق المحرمة ، وقتلوا الكثير من أبناء الشعب الروسى عندما مكثتهم الظروف من ذلك وكوفرا الجمعيات السرية التى عملت على هدم نظام الحكم القيصرى واستمرت فى نشاطها حتى أزالت بواسطة الثورة الشيوعية فى سنة ١٩١٧ م هذه الشريرة التى كان معظم قوادها من اليهود . ولم ينس الروس لليهود ما قاموا به بحكم من عدوان واستغلال ، فانقضوا عليهم عدة مرات لمتخلص منهم وأعمالو فيهم الذبح والقتل بلا رحمة ، وكان من أبرز المذابح التى أوقها الروس باليهود مذبحه سنة ١٨٨١ م ومذبحه سنة ١٨٨٢ م فقد حاول الفلاحون الروس أن يدمروا اليهود قديما فى هاتين السنتين .

وعندما نشر الكاتب الروسى (فيلوس) نسفا قليلة من (بروتوكولات حكماء صهيون) سنة ١٩٠٢ م التى تفضح نيات اليهود الإجرامية تجاه العالم أجمع ، جن جنونهم خوفا وفزعا . وعمت المذابح عددهم فى روسيا حتى لقد قتل منهم فى إحداها نحو عشرة آلاف يهودى .

(١) خطر اليهود العالمية على (الإسلام والمسيحية) ص ١٨ لعبدالله التل.

(و) وفي ألمانيا : انتشر اليهود في كثير من مدينتها منذ القرن الثامن الميلادي ، وسكنوا على ضفاف نهر الراين ، واستغلوا الشعب الألماني أسوأ استغلال حتى كادوا يستولون على أمواله عن طريق الربا الفاحش واستخدام الوسائل المختلفة لجمع المال الحرام . ولقد هاج الشعب الألماني ضدهم في أوقات مختلفة ، واستعمل معهم كل وسائل القتل والسلب والطرده .

يقول صاحب كتاب (تاريخ الإسرائيليين) وظل القتل والذبح منتشرا في اليهود إلى أن صدرت الأوامر بطردهم من أنحاء - ألمانيا - في أزمئة متتالية ، وذلك ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر ، حتى لم يكد يبق منهم واحدا فيها ... (١) .

وكان آخر ما لاقوه من عذاب وقتيل وتشريد على يد « هتلر » ابتداء من توليه الحكم ألمانيا سنة ١٩٣٣ إلى أن سقط حكمه سنة ١٩٤٥ .

وفي كل البلاد التي نزل بها اليهود ، تعرضوا لفقمة السكان وغيظهم وازدراؤهم ، يستوى في ذلك تاريخهم القديم والوسيط والحديث ، لقد أنزل العالم بهم ضربات قاصمة ، وعقوبات صارمة ، شملت التشكيل والطرده والسجن والقتل ومصادرة الأموال .

ويعتبر أحد الكتاب الغربيين أن كل الأمم المسيحية اشتركت في اضطهاد اليهود وإنزال مختلف العقوبات بهم ، وكانت القسوة مع اليهود تعد مأثرة يمتدح المسيحيون بعضهم بعضها عليها (٢) .

هذا ، والشئ الذي نؤكد به بعد سرد هذه النماذج من العقوبات التي نزلت باليهود في مختلف العصور والأمم ، هو أن اليهود هم المسئولون عن كل اضطهاد وقع بهم ، وأنهم مستحقون لهذه العقوبات لأسباب من أهمها :

(١) تاريخ الإسرائيليين ص ٨٨

(٢) (اليهودية ص ٧٣ الدكتور أحمد شلبي) .

أولاً : أنا فيهم وأطعمهم التي لا حدود لها ، فقد سوغت لهم أنا فيهم أن العالم ملك لهم بكل من فيه وما فيه ، وأن غلبهم متى جلوا في أى دولة أن ينهبوا خيراتها بكل وسيلة وإن يجمعوا أموالها بأى طريقة ، فإن المال هو مذهب اليهود من قديم .

وأنا فيهم اليهود وجشعهم وأكلهم أموال الناس بالباطل ، جعلهم محل تقمة العالم وغضبه ، ولقد فطن بعض الزعماء العقلاء إلى خطر تطفل اليهود في بلاده ، فأخذ يطردهم منها ، ويحذر أبناء أمته من شرورهم ، ومن هؤلاء الزعماء المقلد (بنيامين فرانكلين) أحد رؤساء الولايات المتحدة ، فإنه ألقي خطاباً سنة ١٧٨٩ قال فيه : (هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك الخطر هو (اليهود) . أيها السادة : حينما يستقر اليهود ، تجدونهم يوهنون من عزيمه الشعب ، ويزرعون الخلق التجاري الشريف . لأنهم لا يتدبجون بالشعب . لقد كانوا حكومة داخل الحكومة . وحينما يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الآلهة ما ليا كما حدث للبرتغال وأسبانيا . . . إذا لم يمنع اليهود من الهجرة بموجب الدستور . ففي أقل من مائتي سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ويغيرون شكل الحكومة التي ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا وأموالنا وحرقتنا . إذا لم تستثن اليهود من الهجرة فإنه لم يمض أكثر من مائتي سنة ليصبح ابنائنا عمالاً في الحقول لتأمين الغذاء لليهود . . . ، إنى أذكركم أيها السادة . إذا لم تستثنوا اليهود من الهجرة إلى الأبد فسوف يلغىكم أبناؤكم وأحفادكم في قبوركم ، إن عقليتهم تختلف عنا حتى لو عاشوا بيننا عشرة أجيال . والنمر لا يستطيع تغيير لونه . اليهود خطر على هذه البلاد . وإذا دخرها فسوف يخرّبونها ويفسدونها . . .) (١) .

(١) كتاب (اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية) ص ١٣٠

وللتعليق على هذا الخطاب نقول : ما أصدق ما توقعه (فرافكلين) لولا أنه قد أخطأ التقدير في المدة اللازمة لتحويل أمريكا إلى بقرة حلوب لليهود ، فقد قدر (فرافكلين) هذه المدة بمائتي سنة أى في سنة ١٩٨٩ ، بينما استطاع اليهود أن يسخروا سياسة أمريكا وأسلحتها ، وأموالها وعلمها ونفوذها وخيراتهما ، لمنفعتهم الخاصة في مدة تقل عما توقعه بأكثر من خمسين سنة .

ثانيا : غرورهم وتعاليمهم : فاليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباؤه ، وشعبه المختار . ومن قديم الزمن وهم يقسمون العالم إلى قسمين متقابلين : قسم إسرائيل وهم صفوة الخلق وأصحاب الخطوة عند الله ، وقسم آخر يسمونه الأمم (الجويم) أى غير اليهود ومعنى (جويم) عندهم ، وثنيون وكفرة وبهايم وأنجاس . وقد أدى هذا الغرور والتعالى باليهود إلى إهدار كل حق لغيرهم عليهم ، وأن من حق اليهود أن يسرقوا من لبس يهودياً وأن يغشوه ويكذبوا عليه ويقتلوه إذا أمنوا اكتشاف جرائمهم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرذيلة التى تمكنت من اليهود بقوله . (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) .

وكتب اليهود - لاسيما التلود - طائفة بالوصايا التى تتيح لهم أن يعاملوا غيرهم بمعاملة تخالف معاملتهم مع بعضهم ، من ذلك ما جاء فى التلود : إذا خدع يهودى أحداً من الأمم وجاء يهودى آخر واختلس من الأممى بعض ما عنده بنقص الكيل أو زيادة الثمن ، فعلى اليهوديين أن يقتصبا الغنيمة التى أرسلها إليهما (يرواه)^(١) ويرواه هو إله اليهود .

ونتيجة لهذا الغرور والتمسالى الذى تميز به اليهود ، وأهدروا بسببه كل حق أو كرامة لسواهم من الناس ، قام غيرهم من الأمم ليدافع عن حقه الذى سلبوه منهم ، وليوقع بهم أقصى العقوبات جزاء غرورهم والكاذب ، وتعاليتهم الباطل .

ثالثا : عزلتهم وعصبيتهم وخيانتهم للبلاد التى آوتهم فهم متعصبون متحزون ، لا يجتمعهم حب بعضهم لبعض ولكن تجمعهم كراهية من ليس على ملتهم ، كما يجتمعهم الحقد على العالم بأسره . وقد أصبحت العزلة والعصبية والعنصرية طابع اليهود الذى لا يحيد لهم عنه ،

وبصف الدكتور (ويزمان) أول رئيس لإسرائيل طابع العزلة فى اليهود بقوله : (وكان اليهود فى مو تولى (مسقط رأسه) بروسيا ، يعيشون كما يعيش اليهود فى مئات المدن الصغيرة والكبيرة منعزلين منكشيين ، وفى عالم غير عالم الناس الذين يعيشون معهم) .

ولعل أدق صورة للتجربىض على العزلة والتمسك بها ، ما ذكره (سلامون شحتر) فى خطابه بمدرسة اللاهوت اليهودية العليا حيث قال : (إن معنى الاندماج فى الأمم هو فقدان الذاتية . وهذا النوع من الاندماج مع ما يترتب عليه من النتائج ، هو ما أخشاه أكثر مما أخشى المذابح والاضطهادات)^(١) .

وقد تسبب عن عزلتهم وعصبيتهم أمور خطيرة ، فقد نظروا إلى من سواهم من الأمم نظرة كلها وريبة وحذر ، وصار طابعهم فى كل زمان ومكان عدم الإخلاص لاية هيئة دينية أو دنيوية . وعدم الولاء للأوطان التى يعيشون فيها وبأ تكون من خيراتها ، وإنما يجعلون ولاهم لجماعتهم ومصالحهم الخاصة دون غيرها ، لأن اليهودى يهودى قبل كل شىء ، مهما تكن جنسيته ، ومهما يعتنق من عقائد ومبادئ فى الظاهر ، وإذا تعارضت جنسيته مع يهوديته

(١) كتاب (اليهودية) ص ٣٢ للدكتور أحمد شلبي .

ناصر يهوديته ، وحاول أن يشيع الخراب والدمار في الأمة التي هو فرد من أفرادها خصوصا إذا أمن العقاب والصهيونية العالمية تأمر اليهود في كل مكان أن يجعلوا ولائهم لإسرائيل وليس للدول التي يعيشون فيها .

تقول جولدا ماير وزير خارجية إسرائيل سابقا : (إن اليهود المقيمين خارج إسرائيل ضائمت مشتتة تعيش في المنفى ، وأنهم مواطنون إسرائيليون قبل كل شيء ، ويتحتم عليهم الولاء المطلق لهذه الدولة الجديدة مهما تكن جنسيتهم الرسمية التي يسبقونها على أنفسهم ، وإن اليهودي الإنجليزى الذى ينشد بحكم إنجليزيتته نشيد (حفظ الله الملكة) لا يمكن أن يكون في نفس الوقت صهيونيا ^(١) .

وما أكثر الحوادث التي قام فيها اليهود بدور العيون والجواسيس على الأوطان التي يعيشون فيها لحساب أعدائنا ، وأظهر مثل على ذلك ما قام به اليهود المقيمون في ألمانيا من خيانات لها خلال الحرب العالمية الأولى ، وكان ثمرة هذه الخيانات هزيمة ألمانيا ، ومنح اليهود جزاء غدرهم الوطنى وعد (بانفور) من الحكومة البريطانية سنة ١٩١٧ م .

وقد عـدد (هتلر) خيانات اليهود لألمانيا فذكر منها استنزاف أموال الشعب بالربا الفادح وإفساد التعليم والسيطرة لصالحهم على المصارف والبورصة والشركات التجارية ، والسيطرة على دور النشر ، والتدخل في سياسة الدولة لغير مصلحة ألمانيا وفي القمة من خياناتهم التجسس ضد ألمانيا الذى أحترفه عدد كبير منهم) .

ويحتم هتلر حديثه الطويل عن اليهود بقوله (وإذا قبض لليهودى أن يتغلب على شعوب هذا العالم ، فسيكون تاجه لإكليل جنازة البشرية ، وعندما يستأنف كوكتيل السيار طوافه في التأثير كما فعل منذ ملايين السنين لن يكون هناك بشر على سطحه .. لهذا أعتقد أنى تصرفت معهم حسبما شاء خالقنا ،

(١) من محاضرة مطبوعة عن (اليهود ودولة إسرائيل) .

لأنى بدفاعى عن نفسى ضد اليهودى ، إنما أفاضل فى سبيل الدفاع ، عن عمل الخالق (١) .

ولذن فعزلة اليهود ، وعصيتهم ، وخيانتهم للأوطان التى آوتهم ، كان جزاؤها العادل ما دل بهم من دمار وتشريد خلال العصور المختلفة .

رابعاً : اضطهادهم لغيرهم متى ملسكوا القدرة الظاهرة أو الخفية لذلك وتاريخ اليهود ملطخ بجرائم القتل والذبح والنهب والسلب والغدر والبطش بخيرهم وملىء بالمجازر التى قاموا بها ضد الشعوب التى كان لهم النصر عليها ، وقد ساعدتهم على ذلك ما أمرتهم به كتبهم من قتل وإذلال لغيرهم متى واتتهم الفرصة عليه ، فى سفر الخروج مانصه .

(حين تقترب من مدينة السكى تخاربها استدعها إلى الصلح ، فإن إجابتك فشكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ، ويستعبد لك ، وإن لم تسلمك بل عملت معك حرباً فحاصرهما ، وإذا دفعها الرب إلحك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إياها فلا تستبِق منها نسمة ما) (٢) .

ولقد تابع اليهود هذه التعاليم أسوا تطبيق فى كل أدران تاريخهم فلقد قتلوا فى روما وحدها مائة ألف مسيحي سنة ٣٠٤ م بإيعاز من الإمبراطور (مارك أوريل) .

ومالنا نذهب بعيداً فى الاستشهاد على إجرامهم ، ومعارك فلسطين ما زالت ماثلة فى أذهاننا ، يقول أحد الكتّاب المعاصرين : (إن مذبحه دير باسين كانت من أبشع المذابح التى ارتكبها اليهود . فقد قتلوا مائتين وخمسين إنساناً فى قرية صغيرة ومثلوا بأجسامهم ، وذبحوا الأطفال فى أحضان أمهاتهم وأمام

(١) كتاب د كفاحى ، لهتلر .

(٢) سفر التثنية ، الإصحاح العشرون ٢٠ - ١٧ .

أعينهم ...) . وحدث ما يشبه هذه المذابح في كثير من مدن فلسطين كحيفا ويافا وقيية وكفر قاسم .

والحق ، أن مفاهيم اليهود الباطلة ، وأنانيتهم الطاغية ، وطبايعهم الذميمة وأخلاقهم الفاسدة ، وعصبيتهم الذميمة ، وقلوبهم القاسية ، واستباحتهم لقتل غيرهم ، وإهدار كرامته ، كل ذلك جعلهم محل نقمة العالم وغضبه ، وبسبب هذه الأخلاق المرذولة ساءل الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ، ومن يمزقهم شر ممزق .

ويعجبني في هذا المقام قول المؤرخ اليهودي « يوسفوس » ، لا توجد أمة في الأرض في كل أجيال التاريخ منذ بدء الخليقة إلى الآن تحملت ما تحمل بنو إسرائيل من الكوارث والآلام ، على أن هذه الكوارث والآلام لم تكن إلا من صنع بني إسرائيل أنفسهم .

والآن ، بعد سرد هذه العقوبات التي حلت ببني إسرائيل في مختلف العصور تأييداً لقوله - تعالى - : « ليعشن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ... » ، بسبب أعمالهم السيئة فعودنا إلى السورة الكريمة فنراها تحدثنا عن لون من ألوان الدعاوى الباطلة التي حكها القرآن عنهم ، وهو زعمهم أن ذنوبهم مغفورة لهم ، وأنهم مهما فعلوا من ذنوب ، وارتكبوا من موبقات ، واستحلوا من أموال حرام ، فلن يحاسبهم الله على ذلك إلا حساباً يسيراً لأنهم أبناؤه وأحبائه ، واستمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي ذلك عنهم فنقول :

« فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ، وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ، وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٨) وَالَّذِينَ يُنَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٦٩) .

قال الإمام القرطبي : الخلف - بسكون اللام - الأولاد ، الواحد والجمع فيه سواء ، الخلف - بفتح اللام - البدل ، ولداً كان أو غريباً . وقال ابن الأعرابي : الخلف - بفتح اللام - الصالح ، وبسكونها الصالح ، ومنه قيل للردى من الكلام خلف - بسكون اللام - ومنه المثل السائر : سكّت ألفاً ونطق خلفاً ، قال لبيد .

ذهب الذين يعاش في أكنافهم - وبقيت في خلف كجلد الأجر - .
خلف في الذم بالإلحاح ، وخلف بالفتح في المدح ، هذا هو المستعمل المشهور ، وفي الحديث الشريف (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله) وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر (١) .

والعرض - بفتح الراء - متاع الدنيا وحطامها من الدل وغيره .
قال صاحب الكشف : (قوله تعالى : يأخذون عرض هذا الأدنى أي حطام هذا الشيء الأدنى ، يريد الدنيا وما يتمتع به منها ، وفي قوله هذا نخسيس وتحقير ، والأدنى إما من الدنو بمعنى القرب ، لأنه عاجل قريب ، وإما من دنو الحال وسقوطها وقلتها والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الحكم للتسهيل على العامة) (٢) .

والضمير في قوله (من بعدهم) يعود إلى اليهود الذين وصفهم الله في الآية السابقة بقوله (وقطعناهم في الأرض أما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوفاهم بالحسنات والسيئات لعلمهم برجعون) .

والمعنى : خلف من بعد أولئك القوم الذين قطعناهم في الأرض أما خلف سوء ، ورنوا كتاب الله وهو التوراة فقرأوه وتعلموه ، ووقفوا على ما فيه من تحليل وتحريم وأمر ونهي ولما كتبهم لم يتأثروا به بل خالفوا أحكامه ، واستعملوا

محارمه مع علمهم بها ، فهم ينهاتون على حطام الدنيا ومتاعها ويتقبلون المال الحرام بشراهة نفس . ويأكلون السحت أكلا لما ويقولون وهم والغون في المعاصي ومصرعون على الذنوب : إن الله سيغفر لنا ذنوبنا ولا يؤاخذنا بما أكلنا من أموال ، لأننا من نسل أنبيائه ، فمن شعبه الذي اصطفاه من سائر البشر ، إلى غير ذلك من الأقاويل التي يفترونها على الله وهم يعلمون .

وجملة ، يأخذون عرض هذا الأدنى ، مستأنفة لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد ورائتهم إياه . وقيل هي حال من الضمير في ورثوا .

ثم أخير - سبحانه - عنهم بأنهم أهل لإصرار على ذنوبهم ، وليسوا بأهل إنابة ولا توبة فقال تعالى : (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) أى . أنهم يأخذون عرض الحياة الدنيا ويعرضون عن شريعته الله التي أنزلها عليهم في التوراة ويزعمون أن الله لا يؤاخذهم بما فعلوا . ثم هم بعد ذلك لا يتوبون إلى الله ولا يستغفرونه ، وإنما حالهم أنهم إن لاح لهم عرض حرام آخر مثل الذي أخذوه أولا بالباطل ، تهافتوا عليه من جديد واستحلوه وأكلوه في بطونهم . وبدون توبة أو ندم .

قال مجاهد قوله تعالى (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) لا يشرف لهم شئ . من متاع الدنيا إلا أخذوه حلالا كان أو حراما ، ويتمنون المغفرة (ويقولون سيغفر لنا) وإن يجدوا عرضا مثله يأخذوه (١) .

وقال السدي : (كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى في الحكم وإن خيارهم اجتمعوا ، فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا ، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى ، فيقال له ماشألك ترتشى في الحكم ؟ فيقول سيغفر لي ، فيطعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل

صنعه فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل من كان يطعن عليه قبل الرشوة يقول الله : وإن يأت : وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه (١) .
ثم أنكر - سبحانه - عليهم ما زعموه بقولهم : (سيغفر لنا) وهم مصرون على معصيتهم فقال تعالى . (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه) .

والمعنى : لقد أخذ الله العهد في التوراة على هؤلاء المرتشين في أحكامهم : والقائلين سيغفر الله فعلنا هذا ألا يقولوا على الله إلا القول الحق ، ولا يخبروا عنه إلا بالصدق ولا يخالفوا أمره . ولا ينقضوا عهده ، ولا يتجاوزوا حدوده ، وقد درس هؤلاء الكتاب ، أي : قرأوه وفهموه ، ولكنهم لم يعملوا بما أخذ عليهم من عهد ولم تتبعوا أوامر كتابهم ونواهيهم ، لأنهم درسوه ولم يتأثروا به ، ولم تخالط تعاليمه شغاف قلوبهم ، فضيعوه واشتروا به ثمناً قليلاً فينس ما يشتررون .

وقوله : أن لا يقولوا على الله إلا الحق ، بدل من ميثاق الكتاب أو عطف بيان له . وقيل إنه مفعول لأجله أي : لئلا يقولوا .

وجملة (ودرسوا ما فيه) معطوفة في المعنى على قوله تعالى (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) أي أن الله تعالى قد أخذ عليهم الميثاق في التوراة ودرسوه .

قال ابن دريد : (كان يأثمهم المحق برشوة فيخرجون له كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذي كتبوه بأيديهم وحكموا له (٢)) .

ثم بين الله لهم أن ما أعد في الآخرة للبتقين الذين يتعففون عن السحت وعلى أكل أموال الناس بالباطل خير من متاع الدنيا وزهرتها الذي آثره هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب فقال تعالى : (والدار الآخرة خير للذين

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٠ (٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣١٢ .

يتقون أفلا تعقلون) أى : والدار الآخرة وما أعده فيها من نعم لا أولئك الذين يتقونه حق ثقاته فى السر والعلن ، خير من عرض هذا الأدنى الذى استحلّه هؤلاء اليهود بدون حق وآثروه على ما عند الله من نعم مقيم وثواب جزيل (أفلا تعقلون) - يامن أكتم أموال الناس بالباطل وقلتم سيخفر الله لنا ذنوبنا - هذا الحكم الواضح ، الذى لا يخفى على ذى عقل سليم ، لم تطمسه الشهوات ، ولم يستحوذ عليه الشيطان .

وفى هذا إشارة إلى أن الطمع فى متاع الحياة الدنيا هو الذى جعل بنى إسرائيل يقولون على الله غير الحق . ويتشبهون من المال الحرام بدون تعفف ويبيعون دينهم بنيسام .

قال الإمام الألوسى : (والمراد من الآية توبيخ أولئك الورثة على بتهم القول بالمغفرة مع إصرارهم على الذنوب وجاء البت من السين فإنها للتأكيد كما نص عليه المحققون ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - إنهم وبخوا على إيجابهم على الله - تعالى - غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون إليها ثم لا يتوبون منها .

وقد أطبق أهل السنة على ذم المتمنى على الله ، ورووا عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى) ومن هنا قيل : إن القوم ذموا بأكلهم أموال الناس بالباطل وبتابعهم أنفسهم هواها وتمنهم على الله - سبحانه - الأمانى ، وبخوا على افترائهم على الله فى الأحكام التى غيروها ، وأخذوا عرض هذا الأدنى على تغييرها ، وقالوا على الله ما ليس بحق من القول (١) .

ثم أثنى الله - تعالى - على من تمسك بكتابه ، فأحل حلاله وحرم

(١) تفسير الألوسى ج ٩ ص ٩٧ بتصرف وتلخيص .

حزامه ، ولم يتقرول على الله الكذب فقال تعالى : (والذين يمسون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا ننزع أجر المصلحين) .

والمراد بالكتاب التوراة أو القرآن أو جنس الكتب السماوية عموماً .
والمعنى : والذين يستمسون بالكتاب الذي أنزله الله ويعتصمون بحبله في جميع شئونهم إنا لا ننزع أجرهم لأنهم قد أصلحوا دينهم ودينهم والله لا ينزع أجر من أحسن عملاً .

وخص الصلاة بالذكر مع دخولها فيما قبلها لإظهار المزية لكونها عماد الدين ونهاية عن الفحشاء والمنكر .

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد وبختا اليهود لافتراءهم على الله الكذب وردوا عليهم في دعواهم أن ذنوبهم مغفورة لهم مع تعمدهم أكل أموال الناس بالباطل ، وببختنا لهم طريق الفلاح لسكى يسيروا عليها ، لأن كانوا ممن ينتفع بالذكر ، ويعتبر بالمثلثات .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها الطويل عن بنى إسرائيل بتذكيرهم بالعهد الذي أخذه الله عليهم ، ربأمرهم بالإيمان والعمل الصالح فقالت :

« وَإِذْ تَقَيْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) » .

والآية الكريمة معطوفة على ما سبق من أحوال بنى إسرائيل بتقدير : اذكر .

ونتقناه : من التقى وهو الزعزعة والرفع والجذب بشدة ، يقال : تقى الشيء ينتقه وينتقه ، جذبه واقتلمه .

والمراد بالجبل جبل الطور الذي سمع موسى عليه السلام من ربه .
قيل : « إن موسى لما أتى بنى إسرائيل بالتوراة وقرأها عليهم وسمعوا

ما فيها من التخليط كبير ذلك عليهم ، وأبوا أن يقبلوا ذلك ، فأمر الله الجبل فانقطع من أصله حتى قام على رؤوسهم مقدار عسكرهم ، فلما نظروا إليه فوق رؤوسهم خروا ساجدين ، فسجدوا كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر ، وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً من أن يسقط فوقهم (١) .

أى : وأذكر يا محمد وذكر بنى إسرائيل المعاصرين لك وقت أن رفعنا الجبل فوق آبائهم الذين كانوا فى عهد موسى حتى صار كأنه غمامة أو سقيفة فوق رؤوسهم لغريهم آية من الآيات التى تدل على قدرتنا وعلى صدق نبينا موسى عليه السلام . -

قال بعض العلماء : « ورفع الجبل فوقهم لإرشادهم آية من آيات الله تقوى لإيمانهم بأن التوراة منزلة من عند الله ، وقوة الإيمان من شأنها أن تدفع إلى العمل بما فى الكتاب المنزل بجد وإجتهاد (٢) » .

وقوله : وظنوا أنه واقع بهم ، أى : ووقع فى نفوسهم أن الجبل ساقط عليهم إذا لم يستجيبوا لما أمرهم به نبيهم - عليه السلام - .

قال الجبل : وقوله : وظنوا . . . ، فيه أوجه : أحدها أنه فى محل جرسقا على ثقنا المخفوض بالظرف تقديرا والثانى : أنه حال وقد مقدره عنده بعضهم ، وصاحب الحال الجبل .

أى . كأنه ظلة فى حال كونه ظنونا وقوعه بهم . والثالث : أنه مستأنف فلا محل له . والظن هنا على بابه ، وقيل بمعنى اليقين .

وقوله : خذوا ما آتيناكم بقوة ، مقول لقول محذوف دل عليه المعنى . والتقدير : وقلنا لهم خذوا ما آتيناكم بقوة ، أى تمسكوا به وأعملوا بما فيه بجد ونشاط ، وتقبلوه بحسن لاستعداد وبدون تقصير أو تردد .

(١) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ٣٠٦

(٢) تفسير القرآن الكريم لفضيحة الأستاذ الأبر الشيخ محمد الحضر

حسين . مجلة لواء الإسلام : السنة الثانية : العدد السابع ص ٥ .

والمراد بقوله : « بما آتيناكم » التوراة التي أنزلها الله على موسى لتكون هدى ونوراً لهم .

وقوله « واذكروا ما فيه » أي : احفظوه وتدبروه وتدارسوه واعملوا به بلا تعطيل لشيء منه .

قال القرطبي : وهذا هو من المقصود من الكتب : العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان خشب ، فقد روى النسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن من شر الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن لا يرجو إلى شيء منه ^(١) » .

ولعل في قوله « لعلكم تتقون » ، إما للتعليل فيه — كون المعنى : خذوا الكتاب بحمد وعزم ، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة لتتقوا الهلاك في دنياكم وآخرتكم . وإما للترجي ، وهو منصرف إلى مخاطبين فيكون المعنى : خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ولا تنسوه وأنتم ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين .

ولكن بني إسرائيل لم يذكروا ولم يتدبروا بل نقضوا العهد ، ولجوا في المعصية ، فاستحقوا لعنة الله وغضبه ، وماربك بظلام للعبيد .

وبذلك تكون سورة الأعراف قد حدثتنا — من بين ما حدثتنا — من مطلعها إلى هنا عن هداية القرآن الكريم ، وعن يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب ، وجنة ونار ، وعن القدائم التي وجهها الله — تعالى — لبني آدم تذكرياً وتوجيهاً وتعليماً حتى يسمدوا في دينهم وديانهم ، وعن أحوال السعداء والأشقياء في الآخرة وما يدور بينهم من مناقشات ومحاورات ، وعن قصة آدم وإبليس وعن قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أقوامهم ، ثم أفاضت السورة الكريمة في حديثها عن قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل ...

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٢٧ .

والهدف الأول الذي قصدته السورة عما عرضته من قصص وتوجيهات وإرشادات هو إثبات وحدانية الله ، وإخلاص العبادة له ، وحمل الناس على السير في الطريق المستقيم ، وقد استعملت السورة في عرضها لتلك الحقائق أساليب الترغيب والترهيب ، والتذكير بالنعيم والتحذير من النقم ، وإقامة الحجج ودفع الشبه .

ثم بدأت السورة بعد أن افتتحت من حديثها عن بنى إسرائيل وحتى نهايتها تحدثنا عن قضية التوحيد من زاوية جديدة عميقة ، زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر ، ولنتصاحب سويا - أيها القارئ الكريم - متأملين في مساقته لنا السورة الكريمة في الربعين الأخيرين منها من آيات تزخر بالأدلة العقلية والمنطقية التي تثبت وحدانية الله وتبطل الشرك والشركاء ، مستعينة في ذلك بما تهدي إليه الفطرة البشرية والطبيعة الانسانية .

تدبر معي قوله - تعالى - :

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) » .

قال صاحب المنار : هذه الآيات بدء سياق جديد في شئون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أودع في فطرتهم وركب في عقولهم من الاستعداد للايمان به وتمجيده وشكركه ، في إثر بيان هدايته لهم بإرسال الرسل وإزالة النكبت في قصة بنى إسرائيل . فالمناسبة بين هذا وماقبله ظاهرة ، ولذلك عطف عليه عطف جملة على جملة أو سياق على سياق (١) .

قوله : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، الظهور : جمع ظهر وهو العمود الفقري لهيكل الإنسان الذى هو قوام بنيته .

والذرية : سلالة الإنسان من الذكور والإناث .

وقوله : « من ظهورهم ، بدل بعض من قوله « من بنى آدم ، و « ذريتهم » مفعول أخذ .

والمعنى : « واذكر أيها الرسول وذكر كل عاقل وقت أن استخرج الله - تعالى - من أصلاب بنى آدم ذريتهم ، وذلك الإخراج أنهم كانوا فطقة فأخرجها - سبحانه - فى أرحام الأمهات ، وجعلها علقة ثم مضغة ، ثم جعلها بشراً سوياً ، وخلقها كاملاً مكلفاً .

قال الآلوسى : « وإذ أرا الأخذ على الإخراج للإبذان بشأن المأخوذ إذ ذاك لما فيه من الإنباء عن الإجتباء والاصطفاء وهو السبب فى إسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتى . وقيل إن إبتار الأخذ على الإخراج لمناسبة ما تضمنته الآية من الميثاق ، فإن الذى يناسبه هو الأخذ دون الإخراج .

والتعبير بالرب لما أن ذلك الأخذ باعتبار ما يتبعه من آثار الربوبية .

وقوله : « وأشهدهم على أنفسهم ، أى : أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقه ، وغرائب صنعته ، وبما أودع فى قلوبهم من غريزة الإيمان ، وفى عقولهم من مدارك تهديهم إلى معرفة ربهم وخالقهم .

وقوله : « أأست بربكم ، متول لقول محذوف : أى : قائل لهم - بعد أن أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل الوحدانيته - أأست بربكم ، وممالك أمركم ، ومرربكم على الإطلاق ، من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شئركم ، قالوا بلى شهدنا ، أى : قالوا بلى شهدنا على أنفسنا عن

عن عقيدة وإقناع بأنك أنت ربنا وخالقنا ولا رب لنا سواك ، فإن آثار رحمتك وعجائب خلقك ، ومظاهر قدرتك تجعلنا لا نتردد في هذه الشهادة .

و « بلى ، حرف جواب ، وتختص بالنفي فلا تقع إلا جوابه فتفيد إبطاله سواء أكان مجرداً أم مقروناً بالاستفهام ولذلك قال ابن عباس وغيره ، لو قالوا نعم لكفروا . لأن نعم حرف تصديق للمخبر بنفى أو لإيجاب .

قال صاحب الكشف : وقوله : « ألسنت بربكم قالوا بلى » من باب التمثيل ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحديته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكانت أشهدهم على أنفسهم وقرروهم وقال لهم : ألسنت بربكم ؟ وكانهم قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحديتك ، وباب التمثيل واسع في كلام الله - تعالى - وفي كلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - وفي كلام العرب . ونظيره قوله - تعالى - : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » ، وقوله : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها » ، قالنا أتينا طائعين . . ومعلوم أنه لا قول ثم وإنما تمثيل وتصوير للبعنى ، (١) .

والمقصود من الآية الكريمة الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته - تعالى - . معرفة فطرية لازمة لهم لزوم الاقرار منهم والشهادة . قال - تعالى - : « فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » .

والفطرة هي معرفة ربوبيته - سبحانه - .

وقد وردت أحاديث كثيرة تشهد بأن الناس قد فطروهم الله - تعالى - على معرفته ، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه

أو ينصرانه أو يعجسانه ، كما تنتج البهيمة جمعاء - أى سالمة الإذن - هل تحسون قتها من جداء - أى مقطوعة الأذن .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يقول الله - تعالى - لئن خلقت عبادة حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم - أى صرفتهم عن دينهم - وحرمت عليهم ما أحلكت لهم . .

وروى الطبري عن الحسن الأسود بن سريع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها ، وذلك يتبين لنا أن المعنى الإجمالي الآية الكريمة أن الله - تعالى - - نصب للناس في كل شيء من مخلوقاته - ومنها أنفسهم - دلائل توحيده وربوبيته . وركز فيهم عقولا وبصائر يتمكنون بها تمكنا تاما من معرفته والاستدلال بها على التوحيد والربوبية حتى صاروا بمنزلة من إذا دعى إلى الإيمان بها سارع إليه بدون شك أو تردد .

فالكلام على سبيل المجاز التمثيل . ليكون الناس قد فطروا الله - تعالى - على معرفته والإيمان به ، وجعلهم مستعدين جميعا للنظر المؤدى إلى الاعتراف بوحديته ، ولا لإخراج القرينة ولا قول ولا إلهاد بالفعل .

وعلى هذا رأى سائر المحققون من مفسري السلف والخلف :

ويرى بعض المفسرين ، أن معنى الآية الكريمة : أن الله - تعالى - مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته كالذر ، وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق ، وألهمهم ذلك الاقرار ، ثم أعادهم إلى ظهر أبيهم آدم ، واستشهدوا لذلك بأحاديث وآثار ليست صحيحة الاسناد ، وما حسن إسناده منها فقد أوله العلماء بما يتفق مع منطوق الآية الكريمة .

وقد رد أصحاب الرأي الأول على هذا البعض بردود منها : أن الله - تعالى - قال : وإذا أخذ ربك من بنى آدم ، ولم يقل من آدم ، وقال : من ظهورهم ،

ولم يقل من ظهره ، وقال ، ذريتهم ، ولم يقل ذريته . قال ، إنما أشرك آبائنا ، ولم يكن لهم يومئذ أب مشرك ، لأن آدم حاشاه من الشرك بالله - تعالى :
قال الامام ابن كثير بعد أن ساق عدداً كبيراً من الأحاديث في هذا المعنى : ومن ثم قال قائلون من الساف والخلف : إن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض والأسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك ، (١)

ثم بين - سبحانه - سبب الاشهاد وعمله فقال : د أن تقولوا يوم القيامة إنما كنا عن هذا غافلين ، أى : فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا ، أو منعا من أن تقولوا يوم القيامة معذرين عن شرككم : إنما كنا عن هذا الأمر وهو لإفراد الله - تعالى - بالربوبية غافلين لم ننبه اليه ، لأنهم ما داموا قد خلقوا على الفطرة ، ونصب الله لهم في كل شيء من مخلوقاته ما يدل على وحدانيته ، وجاءتهم الرسل فبشروهم وأنذرتهم . فقد بطل عذرهم ، وسقطت حجبتهم .

ثم بين - سبحانه - سببا آخر لهذا الاشهاد فقال : د أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم .

أى . وفعلنا ذلك - أيضا منعا لكم من أن تقولوا يوم الحساب : إن آباءنا هم الذين سنوا هذا الاشراك وساروا عليه فنحن قد اتبعناهم في ذلك بمقتضى أننا أبناءهم . ونهج نهجهم من بعدهم ، فإن قولكم هذا غير مقبول بعد أن هيا الله لكم من الأسباب ما يفتح قلوبكم لنور الحق لو كنتم مستعدين لقبوله .

والاستفهام في قوله ، أفهل كننا بما فعل المبطلون ، للإلزام . أى : أنت ياربنا حكيم وعادل فهل تؤاخذنا بما فعل آباؤنا من الشرك وأسسوا من الباطل أو بفعل آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول وأقوال الرسل ؟ إنك ياربنا قد وعدت

أنك لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء ونحن قد سلكنا طريقهم والحجة عليهم بما شرعوا لنا من الباطل فكيف تؤاخذنا ؟

والجواب على ذلك أن الإقرار بالربوبية والتوحيد هو في أصل فطرتكم فلم لم ترجعوا إليه عند ما دعاكم رسولنا الكريم إلى وحدانية الله ونبتذ الشركاء لأن إنيادكم للآباء بعد أن وهبكم الله العقول المفكرة ، وأرسل إليكم الرسل مبشرين ومنذرين لن يعفيكم من المسئولية ، ولن يتقذك من العقاب .

ثم قال - تعالى - وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون ، أى : ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبنى آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم ، ولعلمهم يرجعون إلى فطرتهم وما استكن فيها من ميثاق ، وإلى خلقتهم وما كن فيها من ناموس . فالرجوع إلى الفطرة القويمة كفيل بغرس عقيدة التوحيد في القلوب ، وردها إلى بارئها الواحد القهار الذى قطرها على الحق ، وصرفها عن الجهل والتقليد .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآيات أمورا من أهمها :

١ - فساد التقليد في الدين ، وأنه - تعالى - قد أزاح العذر ، وأزال العليل بحيث أصبح لا يعذر أحد بكفره أو شركه .

٢ - أن معرفته - تعالى - فطرية ضرورية . قال - تعالى - ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، .

وروى الترمذى عن عمران بن الحصين قال : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - لأبي : يا حصين كم إلهاء تعبد اليوم . قال أبى : سبعة ستم في الأرض وواحد في السماء قال . فأبهم تعد لرغبتك ورهبتك . قال : الذى في السماء .

فأله - تعالى - فطر الخلق كلهم على معرفة فطرة التوحيد ، حتى من خلق مجنونا لا يفهم شيئا ما يحلف إلا به . ولا يلج لسانه بأكثر من اسمه المقدس (١) ثم ضرب - سبحانه - مثلا لمن لا يعمل بعلمه فقال - تعالى - :

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ
الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ
أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ
عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ
الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ (١٧٧) » .

قال صاحب المنار : هذا مثل ضربه الله - تعالى للمكذبين بآيات الله
المنزلة على رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو مثل من آتاه الله آياته
فكان عالما بها حاقظا لقواعدها وأحكامها قادرا على بيانها والجدل بها، ولكنه
لم يؤت العمل مع العلم، بل كان عمله مخالفا تمام المخالفة لعله فسلب هذه
الآيات. لأن العلم الذي لا يعمل به لا يلبث أن يزول فأشبهه الحية التي تنسلخ من
جلدها وتخرج منه وتركه على الأرض، أو كان في التباين بين علمه وعمله
كالمنسلخ من العلم التارك له، كالذئب الخلق يلقيه صاحبه، والثعبان يتجرده من
جلده حتى لا تبقى له به صلة على حد قول الشاعر :

خلقوا ، وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا ، وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

الحاصل معنى المثل : أن المكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله مع إيصاحها
بالحجج والدلائل كالعالم الذي حرم ثمرة الانتفاع من علمه، لأن كلا منهما
لم ينظر في الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص ، (١)

وقوله - تعالى - « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا » أى :
أقرأ على قومك يا محمد ليحسروا ويتعظوا خبر ذلك الانسان الذي آتيناه آياتنا

بأن علمناه إياها ، ورفعناه من أممها ، فانسلك من تلك الآيات إنسلاخ الجلد من الشاة ، أو الحية من جلدها .

والمراد أنه خرج منها بالسكية بأن كفر بها ، ونبذها وراء ظهره ، ولم ينتفع بما اشتملت عليه من عظام وإرشادات .

وحقيقة السلك كسقط الجلد وإزالته بالسكية عن المسلوخ عنه ، ويقال لكل شيء فارق شيئاً على أتم وجه انسلخ منه . وفي التعبير به ما لا يخفى من المبالغة وقوله : « فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » أي : فلحقه الشيطان وأدركه فصار هذا الإنسان بسبب ذلك من زمرة الضالين الراسخين في الغواية ، مع أنه قبل ذلك كان من المهتدين :

وفي التعبير بقوله « فأتبعه الشيطان » مبالغة في ذم هذا الإنسان وتحقيره ، جعل كأنه إمام للشيطان والشيطان يتبعه ، فهو على حد قول الشاعر :

وكان فتى من جنود إبليس فارتقى به الحال حتى صار لإبليس من جنده
قال الجمل : أتبعه فيه وجهان : أحدهما : أنه متعدد لواحد بمعنى أدركه ولحقه ، وهو مبالغة في حقه حيث جعل إماماً للشيطان . وثانيهما أن يكون متعدداً لاثنتين لأنه منقول بالهمزة من تبع ، والمفعول الثاني محذوف تقديره : فأتبعه الشيطان خطواته ، أي جعله تابعاً لها : ومن تعدية لاثنتين قوله - تعالى - « اتبعناهم ذريابهم بإيمان » (١) .

وقوله « ولو شئنا لرفعناه بها » كلام مستأنف مسوق لبيان ما ذكر من الإنسلاخ وما يتبعه .

والضمير في قوله « لرفعناه » يعود إلى الشخص المعبر عنه بالاسم الموصول « الذي » والضمير في قوله « بها » يعود إلى الآيات . ومفعول المشيئة محذوف أي : ولو شئنا لرفعناه بسبب تلك الآيات إلى درجات السكال والعرفان . لرفعناه ، لأننا لا نستعصى على قدرتنا شيء ، ولا كتنا لم نفعل ذلك لأن سئتنا

جرت أن ترفع من عنده الاستعداد لذلك أما الذين استجبوا للعمى على الهدى فنذرهم في ضلالهم يعمهون .

وقد بين القرآن هذا المعنى في قوله : « ولكنه أدخل إلى الأرض وأتبع هواه ، أدخل إلى الأرض : أى ركن إليها . وأصل الإخلاق اللزوم للمكان من الخلود .

أى : ولو شئنا لرفعنا هذا الإنسان إلى منازل الأبرار بسبب تلك الآيات ولكنه هو الذى ركن إلى الدنيا ، واطمأن بها ، واستحوذت بشهواتها على نفسه ، واختار لنفسه طريق التسفل المنافى للرفعة ، وأتبع هواه فى ذلك فلم ينتفع بشيء من الآيات التى آتيناها لإياها .

أى : أن مقتضى هذه الآيات أن ترفع صاحبها إلى أعلى علمين ، ولكن هذا المقتضى عارضه مانع وهو إخلاد من أوتى هذه الآيات إلى الأرض وأتباعه للهوى ، فتغلب المانع على المقتضى ، فهو كما قال القائل :

قالوا فلان عالم فاضل فأكرموه مثلهما يقتضى

فقات : لما لم يكن عاملا تعارض المانع والمقتضى

قال الألوسى : وما أظف نسبة إتيان الآيات والرفع إليه - تعالى - ونسبة الانسلاخ والإخلاد إلى العبد ، مع أن الكل من الله - تعالى - ، إذ فيه من تعليم العباد حسن الأدب ما فيه . ومن هنا قال - صلى الله عليه وسلم - : اللهم إن الخير بيدك والشر ليس إليك^(١) .

وقوله ، فمثل كمثل المكب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، .
اللهث : إدلاج اللسان بالنفس الشديد . يقال : لثت المكب يلهث .
كصمع ومنع - لثا ولثانا ، إذا أخرج لسانه فى النفس .

والمعنى : فمثل هذا الإنسان الذى آتيناها آياتنا فانسلاخ منها وأصبح إتياء الآيات وعدمها بالنسبة له سواء ، مثله كمثل المكب إن شددت عليه وأتبعته

لهث ، وإن تركته على حاله لهث -- أيضا -- ، فهو دائم الهم في الحالين .
لأن اللهم طيبة فيه ، وكذلك حال الحريص على الدنيا ، المعرض عن الآيات
بعد إتيائها ، إن وعظته فهو لإيثاره الدنيا على الآخرة لا يقبل الوعظ ، وإن
تركت وعظته فهو حريص - أيضا - على الدنيا وشهواتها .

والإشارة في قوله : ذلك مثل القوم ، إلى وصف السكّاب أو إلى المنسلخ
من الآيات ، أي : ذلك المثل البعيد الشأن في الغرابة مثل القوم الذين كذبوا
بآياتنا من الجاحدين المستكبرين المنسلخين عن الهدى بعد أن كان في حوزتهم .
وقوله : فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، أي : إذا ثبت ذلك ،
فاقصص على قومك أيها الرسول الكريم المقصود عليك من جهتنا لعلهم
يتفكرون فينزعجون عما هم عليه من الكفر والضلال .

والفاء في قوله : فاقصص ، لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والقصص مصدر
بمعنى اسم المفعول ، واللام فيه للبعد ، وجملة الترجى في محل نصب على أنها حال
من ضمير المخاطب أو في موضع المفعول له . أي فاقصص القصص راجيا
لتفكيرهم ، أو رجاءاً لتفكيرهم .

وقوله : سواء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، يستثاف مسوق لبيان
كمال قبحهم بعد النيان السابق . و « سواء » بمعنى بئس وفعالها مضمر ،
و « مثلاً » تمييز مفسر له ، والمخصوص بالذم قوله -- تعالى -- « القوم الذين
كذبوا بآياتنا » .

أي : سواء مثلاً مثل أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا حيث شبهوا بالكلاب
لما في استواء الحاليتين في النقصان وأنهم ضالون وعظوا أم لم يعظوا ، ولما
في الخسة ، فإن الكلاب لا هم لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج
عن خير الهدى والعلم وأقبل على هواه صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله
ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال : « ليس لنا مثل السوء » . العائد في هيبته كالكلب يعود في قيته .

وقوله « وأنفسهم كانوا يظلمون » معطوف على « كذبوا » داخل معه في حكم الصلة بمعنى أنهم جمعوا بين أمرين قبيحين : التكذيب وظلمهم أنفسهم أو منقطع عنه بمعنى وما ظلموا إلا أنفسهم وحدها بارتكابهم تلك الموبقات والخطيئات . فإن العقوبة لا تقع إلا عليهم لا على غيرهم .

هذا . والذي ذهب إليه المحققون من العلماء أن هذه الآيات الكريمة المثل فيها مضروب لكل إنسان أوتي علماً ببعض آيات الله ، ولكنه لم يعمل بمقتضى علمه ، بل كفر بها ونبذها وراء ظهره وصار هو والجاهل سواء .

وقيل : إن الآيات الكريمة الواردة في شخص معين ، واختلفوا في هذا الماعين .

فبعضهم قال إنها في أمية بن أبي الصلت ، فإنه كان قد قرأ الكتاب ، وعلم أن الله مرسل رسولاً وتمنى أن يكون هو هذا الرسول ، فلما أرسل الله - تعالى - نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - حمله ومات كافراً .

وبعضهم قال : نزلت في أبي عامر الراهب الذي سمىه النبي - صلى الله عليه وسلم - ، الفاسق ، كان يترهب في الجاهلية فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام ، وأمر المنافقين بانخاذ مسجد الضرار والشقاق .

وبعضهم قال : إنها في منافق أهل الكتاب ، كانوا يعرفون صفه النبي - صلى الله عليه وسلم - ومخرجه ، فلما بعثه الله - تعالى - كفروا به .

وبعضهم قال : إنها نزلت لتحكي قصة رجل من علماء اليهود اسمه يلعم ابن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله ثم انسلك منها بأن كفر بها ونبذها بعد أن رشاه اليهود .

والذي نراه أن الرأي الأول الذي عليه المحققون من المفسرين هو الراجح ، وأن هؤلاء الذين ذكروا يندرجون تحته ، لأنه لم يرد نص صحيح يعين

اسم الذى وردت الآيات فى حقه ، فوجب أن نعملها على أنها واردة فى شأن كل من علم الحق فأعرض عنه واتبع هواه .

ثم يعقب القرآن على هذا المثل ببيان أن الهداية والضلال من الله ، وأن هناك أقواماً من الجن والإنس قد خلقوا لجهنم بسبب إيتارهم طريق الشر على طريق الخير قال - تعالى - :

« مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَتَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) » .

قوله ، من يهد الله فهو المهتدى ، أى : من يوفقه الله - تعالى - إلى سلوك طريق الهدى باستعمال عقله وحواسه بمقتضى سنة الفطرة فهو المهتدى حقاً ، والواصل إلى رضوان الله صدقاً .

، ومن يضل فأولئك هم الخاسرون ، أى : ومن يخذله سبحانه - بالخرمان من هذا التوفيق بسبب إيتاره السير فى طريق الهوى والشيطان على طريق الهدى والإيمان ، فأولئك هم الخاسرون لدنياهم وآخرتهم .

وأفرد - سبحانه - المهتدى فى الجملة الأولى مراعاة للفظ ، من ، وجمع الخاسرين فى الثانية مراعاة لمعناها فإنها من صيغ العموم .

وحكمة إفراد المهتدى للإشارة إلى أن الحق واحد لا يتعدد ولا يتنوع ، وحكمة جمع الخاسرين ، وهو قوله ، الخاسرون ، الإشارة إلى تعدد أنواع الضلال ، وتنوع وسائله وأساليبه .

وقوله ، ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن ، كلام مستأنف مقرر لمضمون ما قبله ومفصل له .

و الذرأ ، الخلق . يقال : ذرأ الله خلقه يذرأهم ذرماً ، أى : خلقهم .
واللام فى د جهنم ، للعاقبة والصيرورة .

أى : ولقد خلقنا لدخول جهنم والتعذيب بها كثيراً من الجن والانس
وهم الكفار المعرضون عن الآيات وتدبرها ، الذين علم الله منهم ألا
إختيارهم الكفر فشاء منهم وخلقه فيهم وجعل مصيرهم النار لذلك .

ثم بين - سبحانه - صفاتهم التى أدت بهم إلى هذا المصير السيء فقال .
و لهم قلوب لا يفقهون بها ، أى : لا يفقهون بها الآيات الهادية إلى الكمالات
مع أن دلائل الايمان مبثوثة فى ثنايا الكون تدركها القلوب المفتحة ،
والبصائر المستنيرة .

وجملة د لهم قلوب ، فى محل نصب صفة أخرى لقوله د كثيراً ، وجملة
د لا يفقهون بها ، فى محل رفع صفة لقلوب .

وقوله د لهم أعين لا يبصرون بها ، أى : لهم أعين لا يبصرون بها مافى
هذا الكون من براهين تشهد بوحداية الله ، مع أنها معروضة للأبصار
مكتوفة للأبصار ، فهم كما قال - تعالى - ، د وكأين من آية فى السموات
والأرض يعرون عليها وهم عنها معرضون ، فهم لهم أعين ترى وتبصر ولكن
بدون تأمل أو اعتبار ، فكان وجودها وعدمه سواء .

وقوله د لهم آذان لا يسمعون بها ، أى : لا يسمعون بها الآيات
والمواعظ سماع تدبر وإعطاء ، أى أنهم لا ينتفعون بشئ من هذه الجوارح
التي جعلها الله سبباً للهداية .

قال صاحب الكشف : د هم المطبرع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف
لهم : وجعلهم فى أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق ، ولا ينظرون بأعينهم
إلى ما خاق الله نظر اعتبار ، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات سماع تدبر
كانهم عدموا فهم القلوب ، وإبصار العيون واستماع الآذان ، وجعلهم لإعراقهم

في الكفر وشدة شكائهم فيه ، وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين
لنار ، دلالة على توغلوهم في الموبقات ، وتوغلهم فيما يؤهلهم لدخول النار ، (١).

وقوله : أولئك كالأنعام ، أي : أولئك الموصوفون بتلك الصفات
الذكووة كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بشيء من هذه الجوارح التي جعلها
الله سبيلاً للهداية .

وقوله : بل هم أضل ، تنقيص لهم عن رتبة الأنعام ، أي : بل هم أسوأ
حالاً من الأنعام ، إذ أن الأنعام ليس لها سوى الاستعدادات الفطرية التي تهديها
أما الإنسان فقد زود إلى جانب الفطرة بالقلب الواعي ، والعقل المدرك ، والعين
المبصرة ، وزود بالقدرة على اتباع الهدى أو اتباع الضلال ، فإذا لم يفتح بصره
وقلعه وسمعه على الحق فإنه يكون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها
الفطرية .

وقوله : أولئك هم الغافلون ، أي أولئك المنعوتون بما ذكرهم السكاملون
في الغفلة عما فيه صلاحهم وخيرهم وسعادتهم ، بسبب إستحواذ الهوى
والشيطان عليهم ولا يظلم ربك أحداً .

وبعد أن بين - سبحانه - حال المخلوقين لجهنم بسبب غفلتهم وإعمالهم
لعقولهم وحوامهم ، أعقبه ببيان العلاج الذي يشق من ذلك ، وبالنهي عن
اتباع المائلين عن الحق فقال - تعالى - :

« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي
أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) » .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا » أمر
بإخلاص العبادة لله - تعالى - وبجانبية الملحددين والمشركين . قال مقاتل وغيره

من المفسرين : نزلت الآية في رجل من المسلمين كان يقول في صلاته : يا رحمن يا رحيم . فقال رجل من مشركي مكة : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ فنزلت ، (١) .

والأسماء : جمع اسم ، وهو اللفظ الدال على الذات فقط أو على الذات مع صفة من صفاتها سواء كان مشتقاً كالرحمن ، والرحيم ، أو مصدراً كالرب والسلام .

والحسنى : تأنيث الأحسن أفعل تفضيل ، ومعنى ذلك أنها أحسن الأسماء وأجلها ، لأنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها .

والمعنى : والله - تعالى - وحده جميع الأسماء الدالة على أحسن المعاني وأكمل الصفات فادعوه أى سموه واذكروه ونادوه بها .

روى الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة والله وتر يحب الوتر .

قال الألوسي : والذي أراه أنه لا حصر لاسمائه - عزت أسماؤه - في التسعة والتسعين ، ويدل على ذلك ما أخرجه البيهقي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من أصابه هم أو حزن فليقل : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي في يدك ماض في حكمك ، عدل في قضاائك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وذهاب همي وجلاء حزني... الخ ، فهذا الحديث صريح في عدم الحصر .

وحكى النووي إتفاق العلماء على ذلك وأن المقصود من الحديث الإخبار بأن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، وهو لا يتأني أن له - تعالى - أسماء غيرها ، (١)

ثم قال - تعالى - وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون .

ذروا : فعل أمر لم يرد في اللغة إستعمال ماضيه ولا مصدره ، وهو بمعنى الترك والإهمال .

ويلحدون من الإلحاد وهو الميل والانحراف ، يقال : لحد إلحادا إذا مال عن القصد والاستقامة ، وألحد في دين الله : حاد عنه ؛ ومنه لحد القبر لأنه يمال بحفره إلى جانبه بخلاف الضريح فإنه يحفر في وسطه .

والمعنى : والله - تعالى - أشرف الأسماء وأجلها فسموه بها أيها المؤمنون ، وأتركوا جميع الذين يلحدون في أسمائه - سبحانه - بالميل بالغاظها أو معانها عن الحق من تحريف أو تأويل أو تشبيه أو تعطيل أو ما ينافی وصفها بالحسنى أتركوا هؤلاء جميعا فإنهم سيقون جزاء عملهم من الله رب العالمين .

ومن مظاهر إلحاد الملحدين في أسمائه - تعالى - تسمية أصنامهم بأسماء مشتقة منها ، كالكالات : من الله - تعالى - ، والعزى : من العزيز ، ومناة : من المنان وتسميته - تعالى - بما بوهم معنى فاسدا ، كفولهم له - سبحانه - : يا أبيض الوجه كذلك من مظاهر الإلحاد في أسمائه - تعالى - ، تسميته بما لم يسم به نفسه في كتابه ، أو فيما صح من حديث رسوله ، إلى غير ذلك مما يفعله الجاهلون والضالون .

ثم تمضى السورة الكريمة في هديها وتوجيهها فتفصل صنوف الخلق ، وتمدح من يستحق الممدح ونذم من يستحق النذم فنقول :

(١) تفسير الألوسي ج ٩ ص ١٢٢ .

« وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَدَسَةَ دَرَجَتِهِمْ مِنْ حَبْثٍ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأَمْلِيَ لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا، مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَائِكَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) » .

وقوله ، ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، معطوف على قوله ، ولقد ذرأنا .. قبل ذلك ، لأن كلتيهما تفصيل لإجمال قوله - تعالى - « من يهد الله فهو المهتدي ... »

أى : ومن خلقنا للجنة ، لأنه في مقابلة ، ولقد ذرأنا لهم ، أمة يهدون بالحق ، أى : يدعون إليه ويسيرون عليه ، وبه يعدلون أى : به يقضون وينصفون الناس .

وقد وردت آثار تفيد أن المراد بهذه الأمة : الأمة المحمدية في الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة ، وفي رواية : « حتى يأمر الله وهم على ذلك ، »

وقال قتادة : بلغنا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قرأ هذا الآية يقول : هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها .

وعن الربيع بن أنس - في هذه الآية - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم مني مائلا ، .

وقد استدلل بعض العلماء بهذه الآية على أن الإجماع حجة في كل عصر ، وعلى أنه لا يخلو عصر من يجتهد إلى قيام الساعة .

ثم ذكر - سبحانه - حال المكذبين فقال . « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » .

الاستدراج : - كما قال القرطبي - من الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة . والدرج لف الشيء ، يقال : أدرجته ودوجته . ومنه أدرج الميت في أكفانه . وقيل : هو من الدرجة ، فالاستدراج أن يحط درجة بعد درجة إلى المقصود . قال الضحاك : كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة ، (١) .

وقال صاحب الكشف : الاستدراج : إستفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة ، ومنه : درج الصبي إذا قارب بين خطوه ، وأدرج الكتاب . طواه شيئاً بعد شيء ، ودرج القوم : مات بعضهم في أثر بعض . ومعنى « سنستدرجهم » سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم . « من حيث لا يعلمون » ما يرادهم . وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهما كههم في الفى ، فكلما جدد عليهم نعمة ، ازدادوا بطرا وجددوا معصية ، فيتدرجون في المعاصى بسبب ترادف النعم ، ظانين أن مواترة النعم محبة من الله وتقريب . وإنما هي خذلان منه وتبديد ، فهو إستدراج من الله - تعالى - فعوذ بالله منه ، (٢) .

وقد قيل : إذا رأيت الله - تعالى - أنعم على عبد وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مستدرج .

وقوله : « وأملى لهم إن كيدى متين » الإملاء : الإمداد في الزمن والإمهال

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٢٩ .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ١٨٢ .

والتأخير ، مشتق من الملاوة والملوة ، وهى الطائفة الطويلة من الزمن .
والملوان : الليل والنهار .

ويقال : أملى له إذا أمهله طويلا ، وأملى للبعير : إذ أرخى له فى الزمام
ووسع له فى القيد ليتسع المرعى ،

والكيد كالمكر ، وهو التدبير الذى يقصد به غير ظاهره بحيث ينخدع
المكيد له بمظهره فلا يفطن له حتى ينتهى إلى ما يسوءه من خبزه وغايته .
وإضافته إلى الله - تعالى - يحمل على المعنى اللائق به ، كإبطال مكر أعدائه
أو إمدادهم بالنعم ثم أخذهم بالعذاب .

ومتين : من المتانة بمعنى الشدة والقوة . ومنه المتن للظهر أو اللحم الغليظ
والمعنى . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم
وبضائع عقابهم بكثرة النعم بين أيديهم ، حتى يفاجئهم الهلاك من حيث
لا يعلمون أن صنعنا هذا معهم هو لول من الإستدراج ، وأهل هؤلاء
المسكذبين المستدرجين فى العمر ، وأمد لهم فى أسباب الحياة الرعدة ، إن
كيدى شديد متين لا يدافع بقوة ولا بحيلة . وفى الحديث الشريف الذى رواه
الشيخان عن أبى موسى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن
الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

وقوله « وأملى لهم » جوز بعضهم أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف أى :
وأنا أملى لهم . وقيل هو معطوف على قوله « سنستدرجهم » ، وقيل هو مستأنف

ثم أمر - سبحانه - هؤلاء الظالمين بالتفكر والتدبر فقال : « أولم
يتفكروا ، ما بصاحبهم من جنة » ، إن هو إلا نذير مبين ،

الهمزة للأنكار والتوبيخ ، وهى داخلة على فعل حذف للعلم به من سياق
القول ، والوال للعطف على مقدر يستدعيه المقام .

والجنة : مصدر كالجلسة بمعنى الجنون . وأصل الجن الستر عن الحاسة .

والمعنى : أكذب هؤلاء الظالمون رسولهم - صلى الله عليه وسلم - ولم يتفكروا في أنكم ليس به أى شيء من الجنون ، بل دو أكمل الفاس عقلا ، وأسدم رأيا ، وأنقام نفساً .

والتعبير : بصاحبهم للإيذان بأن طول مصاحبتهم له مما يطلعهم على نزاهته عما إتهموه به ، فهو - صلى الله عليه وسلم - قد لبث فيهم قبل الرسالة أربعين سنة كانوا يلقبونه فيها بالصادق الأمين ، ويعرفون عنه أسمى ألوان الإدراك السليم والتفكير المستقيم .

قال الجمل : وجملته ما يصاحبهم من جنة ، في محل نصب معموله ليتفكروا فهو عامل فيها محلا لا لفظا لوجود المعلق له عن العمل وهو ما التافية . ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله : أولم يتفكروا ، ثم لبثاء كلاما آخر إما استفهام إنكار وإما نفياً . ويجوز أن تكون : ما ، استفهامية في محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم . والتقدير : أى شيء استقر بصاحبهم من الجنون ، (١) .

وقوله : إن هو إلا نذير مبين ، بيان لوظيفته - صلى الله عليه وسلم - أى : ليس بمجنون كما زعمتم أيها المشركون وإنما هو مباليغ في الإنذار ، مظهر له غاية الإظهار . فهو لا يقصر في تخويفكم من سوء عاقبة التكذيب ، ولا يتهاون في نصيحتكم وإرشادكم الى ما يصلح من شأنكم . ثم دعاء القرآن الى النظر والاستدلال العقلي فقال : أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء . . .

الملكوت : هو الملك العظيم زيدت فيه الام والتاء للمبالغة كما في جبروت والجملة الكريمة مسوقة لتوبيخهم على إخلالهم بالتأمل في الآيات التكوينية اثر تفرغهم على عدم تفكيرهم في أمر نبيهم - صلى الله عليه وسلم - ،

أى : أكذبوا ولم يتفكروا فى شأن رسولهم - صلى الله عليه وسلم - وما هو عليه من كمال العقل ، ولم ينظروا نظر تأمل وإعتبار وإستدلال فى ملكوت السموات من الشمس والقمر والنجوم وغيرها ، وفى ملكوت الأرض من البحار والجبال والدواب وغيرها ، ولم ينظروا كذلك فيما خلق الله مما يقع عليه لاسم الثنى من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف مما يشهد بأن لهذا المكون خالقا قادرا هو المستحق وحده للعبادة والخضوع .

وقوله : من شئ ، بيان لما ، وفى ذلك تنبيه على أن الدلالة على التوحيد غير مقصورة على السموات والأرض ، بل كل ذرة من ذرات العالم دليل على توحيده .

وقوله : ، وأن عسى أن يكون قد إقترب أجلهم ، فى محل جر معطوف على ما قبله ، و ، أن ، مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، وخبرها عسى مع فاعلها الذى هو ، أن يكون ، .

والمعنى : أو لم ينظروا - أيضا - فى إقترب آجالهم ، وتوقع حلولها فيسارعوا إلى باب الحق والتوجه إلى ما ينتجهم قبل مفاجأة الموت لهم ونزول العذاب بهم وهم أعمى حال .

لأنهم لو تفكروا فى أمر رسولهم - صلى الله عليه وسلم - ولو نظروا فيما خلق الله من مخلوقات بعين التدبر والاتعاظ ، لآمنوا وهدوا إلى صراط العزيز الحميد .

وقوله : فبأى حديث بعده يؤمنون ، أى : إذا لم يؤمنوا بالقرآن وهو أكمل كتب الله بيانا ، وأقواها برهانا ، فبأى كلام بعده يؤمنون ؟

والجمللة المكريمة مسوقة للتعجب من أحوالهم . واقطع أى أمل فى إيمانهم لأنهم ما داموا لم يؤمنوا بهذا الرسول المؤيد بالمعجزات ، وبهذا الكلام المعجز الجامع لكل ما يفيد الهداية ، فأحرى بهم ألا يؤمنوا بغير ذلك .

ثم عقب القرآن على هذا التوبيخ والتهديد للمشركين بقوله : « من يضل الله فلا هادي له ، ويذرهم في طغيانهم يعمهون » .

أى : من يرد الله إضلاله يسبب اختياره للضلالة ، وصممه عن الاستماع للحق فلا قدرة لأحد على هدايته ، وهو - سبحانه - يترك هؤلاء الضالين في طغيانهم متحيرين مترددين .

ثم بينت السورة الكريمة أن أمر الساعة مرده إلى الله - تعالى - ، وأن السائلين عن وقتها من الأحسن لهم أن يستعدوا لها بدل أن يكثروا من السؤال عن زمن مجيئها فقامت :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا بِرَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَنَفَسٌ ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٧٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَقَمًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْءُ إِنَّا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١٨) » .

قال الألوسي : عن ابن عباس أن قوماً من اليهود قالوا : يا محمد ، أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً ، فإننا نعلم متى هي ، وكان ذلك امتحاناً منهم ، مع علمهم أن الله - تعالى - قد استأثر بعلمها . وأخرج ابن جرير عن قتادة أن جماعة من قريش قالوا : يا محمد أسر لإينا متى الساعة لما بيننا وبينك من القرابة فنزلت ، (١) .

وتوله : ديسألونك عن الساعة أيان مرساها ، استئناف مسوق لبيان بعض أنواع ضلالهم وطغيانهم ،

والساعة في الأصل اسم لمدار قليل من الزمان غير معين ، وتطلق في عرف الشرع على يوم القيامة وهو المراد بالسؤال هنا .

وأطلق على يوم القيامة ساعة إما لوقوعه بغتة ، أو لسرعة مافيه من الحساب ، أو لأنه على طوله قدر يسير عند الله - تعالى - ،

و د أيان ، ظرف زمان متضمن معنى متى . و د مرساها ، مصدر ميمي من أرساه إذا أثبته وأقره ، ولا يكاد يستعمل الإرساء إلا في الشيء الثقيل كما في قوله - تعالى - د والجبال أرساها ، ونسبته هنا إلى الساعة باعتبار تشبيه المعاني بالأجسام . و د أيان د خبر مقدم و د مرساها ، مبتدأ مؤخر .

والمعنى : يسألك يا محمد هؤلاء القوم عن الساعة قائلين أيان مرساها ؟

أى متى إرساؤها واستقرارها ، أر متى زمن مجيئها وحصولها ؟

وقوله د قل إنما علمها عند ربى ، جواب عن سؤالهم : أى : قل أيها الرسول الكريم : علم الساعة أو علم قيامها عند ربى وحده ليس عندى ولا عند غيرى من الخلق شيء منه .

والتعبير بإنما المفيد للحصر للاشعار بأنه - سبحانه - هو الذى استأثر بعلم ذلك ولم يخبر أحدا به من ملك مقرب أو نبي مرسل .

وقوله د لا يجديها لوقتها إلا هو ، بيان لاستمرار إخفائها إلى حين قيامها وإقنات كل من إظهار أمرها بطريق الإخبار .

والتجلية : الكشف والإظهار . يقال : جلى لى الأمر وانجلى وجلاه تجلية بمعنى : كشفه وأظهره أقم الاظهار .

والمعنى : لا يكشف الحجاب عن خفاها ، ولا يظهرها للناس في الوقت الذي يختاره إلا الله وحده .

قال بعضهم : والسبب في إخفاء الساعة عن العباد لكي يكوّنوا دائماً على حذر ، فيكون ذلك أدعى للطاعة وأزجر عن المعصية ، فإنه متى علمها المكلف ربما تقاصر عن التوبة وأخرها .

ثم عظم - سبحانه - أمر الساعة فقال : ثقلت في السموات والأرض ، أي : كبرت أو شقت على أهلها لخوفهم من شدائدها وأهوالها وما فيها من محاسبة ومجازاة ، وعن السدى : أن من خفي عليه علم شيء كان ثقيلاً عليه .
أو المعنى : ثقلت عند الوقوع على نفس السموات حتى انشقت وانثرت نجومها وكورت شمسها ، وعلى نفس الأرض حتى سيرت جبالها ، وسجرت بحارها ، وقوله : لا تأنيكم إلا بفتة ، أي : لا تأنيكم إلا فجأة وعلى حين غفلة من غير توقع ولا إنتظار .

وقد وردت أحاديث متعددة تؤيد وقوع الساعة فجأة ، ومنها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه . ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته - أي ناقة ذات اللبن - فلا يطعمه ولتقوم الساعة وهو يلط حوضه - أي يطليه بالجص أو الطين - فلا يسقى فيه . ولتقوم الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فمه فلا يطعمها .

ثم قال - تعالى - : يسألونك كأنك حقي عنها قل إنما علمها عند الله ولمكن أكثر الناس لا يعلمون .

أي : يسألونك يا محمد هذا السؤال كأنك حقي عنها أي : كأنك عالم بها . من حقي عن الشيء إذا بحث عن تعرف حاله بتتبع واستقصاء ومن بحث عن شيء وسأل عنه استحكم عليه به ، وعدى حقي ، بمن اعتباراً لأصل معناه ، وهو السؤال والبحث .

قال صاحب الكشف : « كأنك حفي عنها عالم بها . وحقيقته كأنك
بليغ في السؤال عنها ، لأن من بالغ في المسألة عن الشيء . والتقدير عنه .
استحكم علمه فيه ورصن - أي ثبت وتمكن - ، وهذا التركيب هناه المبالغة
ومنه اخفاء الشارب ، واحتماء البقل ، استئصاله ، وأحفي في المسألة إذا ألحف
- أي ألح وتشدد - وحفي بقلان وتحني به : بالغ في البريه . . وقيل : أن قريشا
قالت له ان يفتنا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة ؟ فقل : يسألونك عنها كأنك
حفي تحفي بهم فتختصمهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوي علمها عن غيرهم ،
ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في أخبارك به ، لمكنت مبلغه القريب
والبعيد من غير تخصيص ، كسائر ما أوحى اليك .

ثم قال : فإن قلت : لمكرر يسألونك وإنما علمها عند الله ؟ قلت : لا تأكيد
ولما جاء به من زيادة قوله « كأنك حفي عنها » ، وعلى هذا تكرير العلماء
والحذاق ، (١) .

وقال صاحب الانتصاف : وفي هذا النوع من التكرير نكتة لا تلقى الا
في الكتاب العزيز ، وهو أجل من أن يشارك فيها . وذلك أن الممهود في أمثال
هذا التكرار أن الكلام إذا بني على مقصد واعترض في أثناءه عارض فأريد
الرجوع لتتميم المقصد الأول وقد بعد عهده ، طرى بذكر المقصد الأول لتتصل
نهايته ببدايته ، وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال ، وسيماني ، وهذا منها
فإنه لما ابتدأ الكلام . بقوله « يسألونك عن الساعة أيان مرساها » ، ثم
اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله « قل إنما علمها عند ربي » ، إلى قوله
« بغة » ، أن يد تمم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم ، وهو المضمن
في قوله « كأنك حفي عنها » وهو شديد التعليق بالسؤال وقد يعد عهده ،
فطرى ذكره نظرية عامة ، ولا نراه أبداً يطرى إلا بنوع من الإجمال

كالتذكرة للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدم . فمن ثم قيل
« يسألونك » ، ولم يذكر المسئول عنه وهو « الساعة » ، اكتفاء بما تقدم ، فلما
كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضا مجملا فقال : « قل إنما عليها
عند الله » ، وبلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد بسطه ، (١) .

هذا ، وإذا كان علم الساعة مرده إلى الله وحده ، فإن « ناك » نصوصاً من
الكتاب والسنة تحدثت عن أماراتها وعلاماتها ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

« فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون » . فإني
لهم إذا جاءتهم ذكراهم ، .

والأشراط : جمع شرط - يفتح الشين والزاء - وهي العلامات الدالة على
قربها ، وأعظم هذه العلامات بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - لإذها كل الدين
وما بعد الكمال إلا الزوال .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول :
« بعثت أنا والساعة كهاتين » ، ويفرج بين أصبعيه الوسطى والسبابة .

وفي حديث جبريل المشهور أنه سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن
الساعة ، فقال له ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها :
« إذا ولدت الأمة ربها - أي سيدها - ، وإذا تطاول رعاها الإبل
في البنيان » .

ومن علامات الساعة - كما صرح بذلك الأحاديث - قبض العلم ، ففي
الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
« إن الله لا يقبض العلم إنزاعاً ينتزعه من العباد ، ولا يكن يقبض العلم بقبض

علماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهلاء فسئلوا فأفتوا بغير علم ضلوا وأضلوا ، ومنها - أى من علامات الساعة - كثرة الزلازل ، وتقارب زمان - أى فلة البركة فى الوقت بحيث يمر الشهر كأنه أسبوع - ، وظهور الفتن كثرة الهرج - أى القتل إلى غير ذلك من العلامات التى وردت فى الأحاديث نبوية ، وقد صاق بعض المفسرين وعلى رأسهم ابن كثير جملة منها (١) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم - أن يبين للناس أن كل لأمر بيد الله - تعالى - ، وأن علم الغيب كله مرجه إليه - سبحانه - فقال : **قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ، أى : لا أملك لأجل نفسى جلب نفع ولا دفع ضرر ما .**

وقوله : **لنفسى ، متعلق بأملك .** أو بمحذوف وقع حالا من **نفعا ، المراد : لا أملك ذلك فى وقت من الأوقات .**

وقوله : **إلا ما شاء الله ،** استثناء متصل . **أى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا فى وقت من الأوقات إلا فى وقت مشيئة الله بأن يمكننى من ذلك ،** نفي حينئذ أملك بمشيئته .

وقيل الاستثناء منقطع ، **أى لكن ما شاء الله من ذلك كان .**

وقوله : **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ،** : لمكانت حالى - كما قال الزمخشري - على خلاف ما هى عليه من استكثار خير ، واستغفار المنافع واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسنى شيء منها ، أكن غالبا مرة ومغلوبا أخرى فى الحروب ، ورابحا وخاسرا فى التجارات بصييا ومخطئا فى التدابير ، (٢) .

قال الجمل : فإن قلت : قد أخبر - صلى الله عليه وسلم - عن المغيبات وقد جاءت أحاديث

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٧١ .

(٢) تفسير السكشاف ج ٢ ص ١٨٥ .

في الصحيح بذلك وهو من أعظم معجزاته فكيف بينه وبين قوله - تعالى -
« ولو كنتم أعلم الغيب :... الخ ، ؟ قلت : يحتمل أنه قاله على سبيل التواضع
والآداب ، والمعنى : لا أعلم الغيب إلا أن يطلعني الله عليه ويقدره لي .

ويحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلع الله على علم الغيب . فلما أطلع الله
الله أخبر به كما قال « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » إلا من ارتضى من
رسول ، أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ، ثم بما
ذلك أظهره - سبحانه - على أشياء من المغيبات فأخبر عنها ليكون ذلك
معجزة له ودلالة على صحة نبوته (١) .

ثم بين القرآن وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قوله « إنا
إنا نذير وبشير لقوم يؤمنون ، أى : ما أنا إلا عبد أرسلني الله نذير
وبشيراً ، وليس من مهمتى أو وظيفتى معرفة علم الغيب .

وقوله « لقوم يؤمنون ، يجوز أن يتعلق بقوله « نذير وبشير ، جميعاً لأن
المؤمنين هم الذين ينتفعون بالإنذار والتبشير ، ويجوز أن يتعلق بقوله « بشير
وحده ، وعليه يكون متعلق النذير محذوف أى : للكافرين . وحذف للعلم به :

وبهذا الإعلان من جانب الرسول - صلى الله عليه وسلم - للناس عز
وظيفته ، تتم لعقيدة التوحيد الإسلامية كل خصائص التجريد المطلق من الشرك
في أية صورة من صوره ، وتنفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها فيها بشر
ولو كان هذا البشر بمجداً - صلى الله عليه وسلم - فعند عتبة الغيب تقف الطاقة
البشرية ، ويقف العلم البشرى ، وتقف القدرة البشرية ، إذ علم الغيب إنما هو
له الذى لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن مظاهر قدرة الله وأدلة وحدانيته ، فذكرت

س بمبدأ نشأتهم ، وكيف أن بعضهم قد انحرف عن طريق التوحيد إلى طريق
رك ، وسأقت ذلك في صورة القصة لضرب المثل من واقع الحياة فقالت :

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
سُكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ،
ثُمَّ أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لِنُكَونَنَّ مِنَ
تَاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا
فَالَى اللَّهُ عَمَّ يُشْرِكُونَ (١٩٠) » .

قوله - تعالى - « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها
مكر إليها ، لاستئناف مسوق لبيان ما يقتضيه التوحيد الذي هو المقصد الأعظم .
أى . إن الذي يستحق العبادة والخضوع ، والذي عنده مفاتيح الغيب هو
الذي خلقكم من نفس واحدة هي نفس أبيكم آدم ، وجعل من نوع هذه
نفس وجنسها زوجها - حواء ، ثم انتشر الناس منهما بعد ذلك كما قال
تعالى - « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق
بها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » .

وقوله « ليسكن إليها » أى : ليطمئن إليها ويميل ولا ينفرد ، لأن الجنس
، الجنس أميل وبه آنس . وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ ،
يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه بحية نفسه ليكونه بضعة منه .

فالأصل في الحياة الزوجية هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار
هذه نظرة الاسلام إلى تلك الحياة قال - تعالى - « ومن آياته أن خلق
كم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

والضمير المستكن في « يسكن » يعود إلى النفس ، وكان الظاهر تأنيده لأن
نفس من المؤنثات الصاعية ولذا أثبت صفتها وهي قوله « واحدة » ، إلا أنه

جاء مذكرا هنا باعتبار أن المراد من النفس هنا - آدم عليه السلام - ولولاه
على حسب الظاهر لتوهم نسبة السكون إلى الأني ، فكان التذكير كما يقول
الزحشرى - أحسن طياقا للمعنى .

وقوله : فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به .

الغشاء : غطاء الشيء الذى يستقره من فوقه ، والغشية : الظلة التى تظل
الإنسان من سحابة أو غيرها ، والتغشى كناية عن الجماع . أى فلما تغشى
الزوج الذى هو الذكر الزوجة التى هى الأنثى وتدثرها لقضاء شهوتهما حملت
حملا خفيفا . أى : حملت منه محمولا خفيفا وهو الجنين فى أول حملة لا تجد المرأ
له ثقلا لأنه يكون نطفة ثم مضغة ، ولا ثقل له يذكر فى تلك الأحوال ، فمرت
به . أى : فضت به إلى وقت ميلاده من غير نقصان ولا إسقاط . أو المعنى
فاستمرت به كما كانت من قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت من غير
مشقة وتلك هى المرحلة الأولى من مراحل الحمل .

وتأمل معى - أيها القارى الكريم - مرة أخرى قوله - تعالى : ، فلما
تغشاها حملت حملا خفيفا . . . ، انرى سمو القرآن فى تمهيديره ، وأدبه فى
عرض الحيائق . إن أسلوبه يلطف ويدق عند تصوير العلاقة بين الزوجين
فهو يسوقها عن طريق كناية بديعة تتناسب مع جو السكن والمودة بين
الزوجين وتنسق مع جو السر الذى تدعو إليه الشريعة الإسلامية عند المباشرة
بين الرجل والمرأة ، ولا محذ كناية تؤدي هذه المعانى أفضل من كل
تغشاها . .

ثم تأنى المرحلة الثانية من مراحل الحمل فيمعب عنها القرآن بقوله : ، فلما
أنقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتننا صالحا لنكونن من الشاكرين . .

أى : فحين صارت ذات ثقل بسبت نمو الحمل فى بطنها ، فالحزمة للصيرور
كقولهم : أنمر فلان وألبن أى : صار ذا ثمر ولبن .
أى : وحين صارت الأم كذلك وتبين الحمل ، وتعلق به قلب الزوجين ، توجه

لى ربهما يدعوانه بضراره وطمع بقولهما : « لئن آتينا صالحا ، أى لئن أعطيتنا سلا سويا تام الخلقة ، يصلح للأعمال الإنسانية النافعة لنكونن من الشاكرين » . ك على نعمائك التى من أجلها هذه النعمة واستجاب الله للزوجين دعاهما ، رزقهما الولد الصالح فماذا كانت النتيجة ؟ .

لقد كانت النتيجة عدم الوفاء لله فيما عاهداه عليه ، ويحكى القرآن ذلك قول : فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ، أى : لحسين أعطاهما سبحانه - الولد الصالح الذى كانا يتمنيانه ، جعلنا الله - تعالى - شركاء هذا العطاء ، وأخلا بالشكر فى مقابلة هذه النعمة أسوأ إخلال ، حيث سبوا هذا المطاء إلى الأصنام والأوثان ، أو إلى الطبيعة كما يزعم الطبيعيون . إلى غير ذلك مما يقتضى مع إفراد الله - تعالى - بالعبادة والشكر .

وقوله « فتعالى الله عما يشركون » ، تنزيه فيه معنى التعجب من أحوالهم . : تنزه - سبحانه - وتقديس عن شرك هؤلاء الأغبياء الجاحدين الذين ابلون نعم الله بالإشراك والكفران .

والضمير فى « يشركون » يعود على أولئك الآباء الذين جعلوا لله شركاء ، والمحققون من العلماء يرون أن هاتين الآيتين قد سبقنا تبييننا للشركين ، بئ أن الله - تعالى - أنعم عليهم بخلقهم من نفس واحدة ، وجعل أزواجهم ، أنفسهم ليا نسوا بهم ، وأعطاهم الذرية ، وأخذ عليهم الدمود بشكره على النعم ، ولسكنهم جحدوا قعمه وأشركوا معه فى العبادة والشكر آلهة رى « فتعالى الله عما يشركون » .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بهذا السياق آدم وحواء ، واستدلوا على ك بما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لما نف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال لها سميه عبد الحارث فإنه يعيش مته عبد الحارث فماش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » .

وقد أثبت ابن كثير في تفسيره ضعف هذا الحديث من عدة وجوه ، ثم قال : قال الحسن : عن الله - تعالى - بهذه الآية ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده ، وقال قتادة : كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهو دوا ونصروا . قال ابن كثير : وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ، ونحن على مذهب الحسن البصري في هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال : فتعالى الله عما يشركون^(١) .

وقال صاحب الانتصاف : والاسلم والأقرب أن يكون المراد - والله أعلم - جنسى الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين ، وكان المعنى خلقكم جنساً واحداً ، وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن ، فلما تفشى الجنس الذى هو الذكر ، الجنس الآخر الذى هو الأنثى جرى من هذين الجنسيتين كيت وكيت . وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون على حد قولهم « بنو فلان قتلوا قتيلاً » ، يعنى من نسبة البعض إلى الكل^(٢) .

والذى نراه أن الآيتين واردتان في توبيخ المشركين على شركهم ونقضهم لعهودهم مع الله - تعالى - لأن الأحاديث والآثار التى وردت في أنهما وردتا في شأن آدم وحواء لتسميتهما ابنيهما بعبد الحارث اتباعاً لوسوسة الشيطان لهما ليست صحيحة ، كما أثبت ذلك علماء الحديث .

ثم أخذت السورة بعد ذلك في توبيخ المشركين ، وفي إبطال شركهم بأسلوب منطوق حكيم فقالت :

« أَيَشْرِكُونَ مَا لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) الانتصاف على المكشاف ج ٢ ص ١٨٦ لابن المنير - بتصرف يسير -

١٩١ - سورة الأعراف .

لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى
لَا يَتَّبِعُواكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)
إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُ
أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا ، قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ (١٩٥)
إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦)
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ
يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ
إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) .

قوله - تعالى - : « أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، أيشركون به - تعالى - وهو الخالق لهم ولكل شيء ، ما لا يخلق شيئا »
الاشياء مهما يكن حقيرا ، بل إن هذه الأصنام التي تعبد من دون الله مخلو
ومصنوعة ، فكيف يليق بسليم العقل أن يجعل المخلوق العاجز شريكا
للخالق القادر .

والاستفهام الإنكار والتعجيل . والمراد بما في قوله : « ما لا يخلق شيئا »
أصنامهم ، ورجع الضمير إليهما مفردا لرعاية لفظها ، كما أن إرجاع ضمير الجاه
إليها في قوله : « وهم يخلقون » ، لرعاية معناها .

وجاء بضمير العقلاء في « يخلقون » ، مسايعة لهم في اعتقادهم أنها تنصرف وتنفس
ثم قال - تعالى - : « ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون »
أى : أن هذه الأصنام فضلا عن كونها مخلوقة ، فانها لا تستطيع أن تنجوا

لعبادها نصرأ على أعدائهم ، بل إنما لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شراً ، ومن هذه صفته كيف يعبد من دون الله ؟ قال - تعالى - : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلمهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . »

ثم بين - سبحانه - عجز الأصنام عما هو أدنى من النصر المنفي عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب من غير تحصيله لطالب فقال : « وإن ندعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، أى : وإن تدعو أيها المشركون هذه الأصنام إلى الهدى والرشاد لا يتبعوكم ، أى أنهم لا ينفعوكم بشيء ولا ينتفعون منكم بشيء . »

وقوله : « سواء عليكم أَدَعَوْتُمُوهم أم أنتم صامتون ، استئناف مقرر لمضمون ما قبله . »

أى : مستو عندكم دعاؤكم لإياهم وبقاؤكم على صمتكم ، فإنه لا يتغير حالكم في الحالين ، كما لا يتغير حالهم بحكم أنهم جماد .

ثم مضى القرآن في دعوته لإياهم إلى التدبر والتأمل فقال : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، . »

أى : أن هذه الأصناف التى تعبدونها من دون الله ، أو تنادونها بالدفع الضر أو جلب النفع ، عباد أمثالكم ، أى : مماثلة لكم في كونها مملوكة لله مسخرة ، مثله لقدرته كما أنكم أنتم كذلك فكيف تعبدونها أو تنادونها ؟

وأصلق عليها لفظ « عباد » مع أنها جماد وفق اعتقادهم فيها بتبكيثهم وتوبييخها .

وقوله « فادعواهم فليستجيبوا لكم ، تحقيق لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيثهم أى : فادعواهم في رفع ما يصيبكم من ضر ، أو في جلب ما أنتم في حاجة إليه من نفع ، « إن كنتم صادقين ، في زعمكم أن هذه الأصنام قادرة على ذلك . »

ثم تابع القرآن تفريره لهذه الأصنام وعابديها فقال : « ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها » .

الاستفهام للإنتكار ، والمعنى : أن هذه الأصنام التي تزعمون أنها تقربكم إلى الله زلفى هي أقل منكم مستوى لفقدائها الخواص التي هي مناط المكسب لأنها ليس لها أرجل تسمى بها إلى دفع ضرر أو جلب نفع ، وليس لها أيد تبطش بها أى تأخذ بها ما تريد أخذه ، وليس لها أعين تبصر بها شئونكم وأحوالكم وليس لها آذان تسمع بها أقوالكم ، وتعرف بواسطتها مطالبكم ، فأنتم أيها الناس تفضلون هذه الأصنام بما منحكم الله - تعالى - من حواس السمع والبصر وغيرها فكيف يعبد الفاضل المفضل ، وكيف يتقاد الأتقى للأضعف ؟

ثم أمر الله - تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يناصبهم المحاجة وأن يكرر عليهم التوبيخ فقال : « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » ، أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين هبطوا بعقولهم إلى أحط المستويات نادوا شركاءكم الذين زعمتموهم أولياء ثم تعاونوا أنتم على كيدى وإلحاق الضرر من غير انتظار أو إهمال ، فإنى أنا معتر بالله ، وملتجى إلى حماه ومن كان كذلك فلن يخش شيئا من المخلوقين جميعا .

وهذا نهاية التحدى من جانب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم والخط من شأنهم وشأن آلهتهم .

ثم بين لهم الأسباب التي دعتهم إلى تحديهم وتبكيهم فقال : « إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الضالين إننى ما تحديتكم وطلبت كيدكم وكيد أصنامكم - إن كنتم أنتم وهم تقدرتون على ذلك على سبيل الفرض - إلا

لأنى معتر باقته وحده ، فهو ناصرى ومتولى أمرى ، وهو الذى نزل هذا القرآن
لأخرجكم به من الظلمات إلى النور ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يتولى
الصالحين وأن يجعل العاقبة لهم .

قال الحسن البصرى : إن المشركين كانوا يخوفون الرسول - صلى الله
عليه وسلم - بألهمهم فقال - تعالى - د قل ادعوا شركاءكم ... الآية - ليظهر
لكم أنه لا قدرة لها على إيصال المضار إلى بوجه من الوجوه . وهذا كما قال
هود - عليه السلام - لقومه رداً على قولهم . د إن نقول إلا اعتراك بعض
آلهتنا بسوء - قال : إني أشهد الله وأشهدوا أنى برى - مما نشر كون . من
دونه فكيدون جميعاً ثم لا تنظرون

ثم قال - تعالى - د والذين تدعون من دونه الله لا يستطيعون نصركم
ولا أنفسهم ينصرون ، أى : والذين تعبدونهم من دونه الله أو تتادونهم لدفع
الضرر أو جلب النفع لا يستطيعون نصركم فى أى أمر من الأمور ، وفضلاً
من ذلك فهم لا يستطيعون رفع الأذى عن أنفسهم إذا ما اعتدى عليهم معتمد .

ثم قال - تعالى - د وإن تدعهم إلى الهدى ، أى : إلى أن يرشدوكم
إلى ما تحصلون به مقاصدكم من النصر على الأعداء أو غير ذلك ، لا يسمعوا ،
أى : لا يسمعوا شيئاً مما تطلبونه منهم ، ولو سمعوا - على سبيل الفرض -
ما استجابوا لكم لعجزهم عن فعل أى شئ .

وقوله د وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ، بيان لعجزهم عن الإبصار
بعد بيان عجزهم عن السمع ، أى : وترى هذه الأصنام كأنها تنظر إليك
بواسطة تلك العميون الصناعية التى ركبت فيها ولكنها فى الواقع لا تبصر
مخلوها من الحياة .

وبذلك تكون هذه الآيات السكرية قد وبخت المشركين وآلهتهم أعظم
توبيخ ، وأثبتت بالأدلة المنطقية الحكيمة ، وبوسائل الحس والمشاهدة أن هذه

الأصنام لإتلك لنفسها نفعاً ولا ضرراً ، وأن الذين قالوا في شأنها ، مانعهم
إلا ليقرّبونا إلى الله زلنى ، هم قوم غافلون جاهلون ، قد مبطوا بمقولههم إلى
أحط الدركات ، لأنهم يتقربون إلى الله زلنى عن طريق مالا يسمع ولا يبصر
ولا يفنى عنهم شيئاً ، بل لا يستطيع أن يدفع الأذى عن نفسه .

وفي الوقت نفسه فالآيات دعوة قوية لكل عاقل إلى أن يجعل عبادته
وخضوعه لله الواحد القهار .

ثم تتجه السورة الكريمة بعد ذلك إلى شخص الرسول - صلى الله عليه
وسلم - فترسم له ولكل عاقل طريق معاملته للخلق على وجه يقيه شر الحرج
والضيق فتقول .

« خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) » .

العفو : يطلق في اللغة على خالص الشئ وجيده ، وعلى الفضل الزائد فيه ،
وعلى السهل الذي لا كلفة فيه .

أى : خذ ماعفاً وسهل وتيسر من أخلاق الناس ، وأرض منهم بما تيسر
من أعمالهم وتسهل من غير كلفة . ولا تطلب منهم ما يشق عليهم ويرهقهم
حتى لا ينفروا ، وكن ليناً رقيقاً في معاملة أتباعك ، فإنك « لو كنت فظاً
غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، وأمر بالعرف ، أى : مر غيرك
بالمعروف المستحسن من الأفعال ، وهو كل ما عرف حسنه في الشرع ، فإن
ذلك أجدر بالقبول من غير تكسر ، فإن النفوس حين تتعود الخير الواضح
الذى لا يحتاج إلى مناقشة وجدال ، يسلس قيادها ، ويسهل توجيهها .

« وأعرض عن الجاهلين » الذين لا يدركون قيم الأشياء والأشخاص
والكلمات فيما يسد منهم من أنواع السفاهة والإبداء لأن الرد على أمثال
هؤلاء ومناقشتهم لا تؤدي إلى خير ، ولا تنتهى إلى نتيجة . والسكوت عنهم
احترام للنفس ، واحترام للقول ، وقد يؤدي الإعراض عنهم إلى تذليل
نفوسهم وترويضها .

وهذه الآية على قصرها تشتمل - كما قال العلماء - على مكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان لأخيه الإنسان ، وهي طريق قويم لكل ما تطلبه الإنسانية الفاضلة لأبنائها الأبرار ، وقد جاءت في أعقاب حديث طويل عن أدلة وحدانية الله - تعالى - وإبطال الشرك والشركاء ، لكي تبين للناس في كل زمان ومكان أن التحلى بمكارم الأخلاق إنما هو نتيجة لإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ، الفرد السمد .

قال القرطبي : هذه الآية من ثلاث كلمات ، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات .

فقوله « خذ العفو » دخل فيه صلة القاطعين والعفو عن المذنبين ، والرفق بالمؤمنين ، وغير ذلك من أخلاق المطيعين . ودخل في قوله « وأمر بالعرف » صلة الأرحام ، وتقوى الله في الحلال والحرام ، وغض الأبصار ، والاستعداد للدار القرار .

وفي قوله « وأعرض عن الجاهلين » الحض على التعلق بالعلم ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتزهد عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجاهلة الأغبياء ، وغير ذلك من الأخلاق المجيدة والأفعال الرشيدة ، (١) .

ثم يرشد القرآن المسلمين في شخص الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - إلى ما بهدى غضبهم ويطفى ثورتهم فيقول :

« وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) .

النزغ والنخس والنرد بمعنى واحد ، وهو إدخال الإبرة أو طرف العصا ونحوها في الجلد .

أى : وإن تعرض لك من الشيطان وسوسة تثير غضبك ، وتحملك على خلاف ما أمرت به من أخذ العفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلین ، فالتجىء إلى الله ، واستعن بحماه ، فإنه - سبحانه - سميع الدعاء ، عليم بكل أحوالك . وهو وحده الكفيل بصرف وسوسة الشياطين عنك ، وصيانتك من همزاتهم ونزغاتهم .

ثم بين - سبحانه - حالة المتقين فقال : إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، .

طائف من الطواف والطواف بالشئ أى : الاستدارة به أو حوله . يقال : طاف بالشئ إذا دار حوله . والمراد به هنا وسوسة الشيطان وهمزاته .

أى : إن الذين اتقوا الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما يفضبه إذا مسهم شئ من وسوسة الشيطان ونزغاته التى تلهيهم عن طاعة الله ومراقبته ، تذكروا أى : تذكروا أن المس إنما هو من عدوهم الشيطان فادوا سريعاً إلى طاعة الله ، وإلى خوف مقامه ونهى أنفسهم عن اتباع همزات الشياطين .

والجمله الكريمة مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر ببيان أن الاستعاذة سنة مسلوكة للمتقين ، وأن الإخلال بها من طبيعة الضالين .

وفى قوله : إذا مسهم طائف ، إشعار بعلو منزلتهم ، وقوة إيمانهم ، وسلامة يقينهم لأنهم بمجرد أن تطوف بهم وسواس الشيطان أو بمجرد أن يمسهم شئ منه فإنهم يندكرون عداوته ، فيرجعون سريعاً إلى حمى ربهم يستجيرون به ويتوبون إليه .

وفى التعبير عن الوسوسة بالطائف إشعار بأنها وإن مست هؤلاء المتقين فإنها لا تؤثر فيهم ، لأنها كأنها طاقت حولهم دون أن تصل إليهم . وقوله : فإذا هم مبصرون ، أى : فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ ، وخطوات الشيطان ، فيبتعدون عنها .

وفي هذه الآية الكريمة ما يهدي العقول ، ويطب النفوس ، إذ هي تبين لنا أن مس الشيطان قد يفلق بصيرة الإنسان عن كل خير ، ولكن التقوى هي التي تفتح هذه البصيرة ، وهي التي تجعل الإنسان دائماً يقظاً متذكراً لما أمره الله به أو نهاه عنه ، فينتصر بذلك على وساوس الشيطان وهمزاته ، وتبقى لهم بصيرتهم على أحسن ما تكون صفاء ونقاء وكشفاً .

أما الذين لم يتقوا الله ، ولم يلجأوا إلى حماه ، ولم يخالفوا الشيطان فقد عبر عنهم القرآن بقوله : « وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون » ، يمدونهم من المد ، وهو الزيادة يقال : مده يده أى : زاده ، والغى : الضلال ، مصدر غوى بغوى غيا وغواية .

أى : وإخوان الشياطين من المشركين والغافلين تزيدهم الشياطين من الضلال عن طريق الوسوسة والإغراء بإرتكاب المعاصي والموبقات ، ثم لا يقصرون ، أى : ثم لا يكف هؤلاء الشياطين عن إمداد أو ليائتهم من الإنس بالوان الشرور والآثام حتى يهلكوهم . ويجوز أن يعود الضمير لإخوانهم : أى ثم لا يكف هؤلاء الناس عن الغي والضلال مهما وعظيهم الواعظون وأرشدهم المرشدون .

و « يقصرون » من أقصر عن الشيء . إذا كف عنه ونزع مع القدرة عليه ، ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان غوايتهم وضلالهم فقال :

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ، قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ مِن رَّبِّي ، هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) » .

الاجتباء : افتعال من الجباية بمعنى الجمع ، يقال : جبت الماء في الحوض أى جمعته ، ومنه قيل للحوض جابية .

والمعنى : وإذا لم تأت أيها الرسول هؤلاء المشركين بآية من القرآن وترأخى الوحي بنزولها ، أو بآية مما اقترحوه عليك من الآيات الكونية ، إذا لم تفعل ذلك قالوا لك بجهالة وسفاهة ، لولا اجتديتها ، أى : هلا جمعتها من عند نفسك واخترعتها اختراعاً بمقلدك ، أو هلا ألححت في الطلب على ربك ليعطيك إياها ويجمعها لك .

قل لهم يا محمد على سبيل التبعييت ردأ على نهكمهم بك ، إنما أتبع ما يوحى إلى من ربي ، أى إنما أمتبع لأم يتدع فما يوحى به الله إلى من الآيات أما أبلغه إليكم بدون تغيير أو تبديل .

ثم أرشدكم - سبحانه - إلى أن هذا القرآن هو اعظم المعجزات ، وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيئات فقال : . هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

أى : هذا القرآن بمنزلة البصائر للقلوب ، به تبصر الحق . وتذكر الصواب وهو هداية لكم من الضلالة ، ورحمة من العذاب لقوم يؤمنون به ، ويعملون بإرشاداته ووصاياه .

وكما افتتحت السورة بالشأن على القرآن ، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتتذرع به وذكرى للمؤمنين ، فقد انتهت في أواخرها إلى أمر الناس بحسن الاستماع إلى هذا القرآن ، وإلى تدبره والعمل به فقالت :

« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) » .

أى وإذا قرئ القرآن الذى ذكرت خصائصه ومزاياه عليكم فاستمعوا له بتدبر وخشوع ، وأصغوا إليه بأسماعكم وكل جوارحكم لتفهموا معانيه ، وتفقهوا ترجماته ، وأنصتوا لقراءته حتى تنقضى تعظيماً له ، ولما كباراً له ، لكي تفوزوا برحمة الله ورضاه .

وبعض العلماء يحمل القراءة في الآية على القراءة خلف الإمام في الصلاة، أي أن على المؤتم أن يستمع إلى قراءة الإمام بتدبر وخشوع، واستدلوا على ذلك بأحاديث في هذا المعنى. وبعضهم يحمل الآية عامة في وجوب الاستماع إلى قراءة القرآن بتدبر وإنصات وخشوع في الصلاة وفي غير الصلاة وحملوا الأحاديث التي أوردوها أصحاب الرأي الأول على العموم أيضاً.

والذي نراه أن الآية تأمر بوجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة، لأن تعاليم الإسلام وآدابه تقتضي منا أن نستمع إلى القرآن بتدبر وإنصات وخشوع، ليؤثر تأثيره الشافي في القلوب، وياقودها إلى الطاعة والتقوى، فتنال المغفرة والرحمة.

ثم اختتمت السورة الكريمة بالحديث عن ذكر الله الذي هو طرب القلوب ودواؤها وعافية الأبدان وشفاؤها فقالت :

« وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) » .

أي : استحضر عظمة ربك - جل جلاله - في قلبك . واذكره بما يقربك إليه عن طريق قراءة القرآن والدعاء والنسبج والتحميد والتهليل وغير ذلك . وقوله « تضرعا وخيفة » ، في موضع الحال بتأويل اسم الفاعل أي . اذكره متضرعا متذللا له وخائفا منه - سبحانه - .

وقوله « ودون الجهر من القول » ، معطوف على قوله « في نفسك » ، أي : اذكر ربك ذكرا في نفسك ، وذكرا بلسانك دين الجهر .

والمراد بالجهر : رفع الصوت بإفراط ، وبما دونه مما هو أقل منه ، وهو الوسط بين الجهر والخافتة ، قال ابن عباس : هو أن يسمع نفسه .

وقوله : بالغدو والآصال ، متعلق باذكر ، والغدو جمع غدوة وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .
والآصال جمع أصيل وهو من العصر إلى الغروب .

أى : اذكر ربك مستحضرا عظمته ، فى كل وقت ، وراقبه فى كل حال ، لا سيما فى هذين الوقتين لأنهما طرفا النهار ومن افتتح نهاره بهذه ذكر الله واختتمه به كان جديرا برعاية ربه .

قيل : وخص هذان الوقتان بالذكر لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد ، وما بينهما من أوقات الغالب فيها الانقطاع لأمر المعاش .
ثم نهى - سبحانه - عن الغفلة عن ذكره فقال : « ولا تكن من الغافلين » الذين شغلهم الدنيا عن ذكر الله .

وفيه إشعار بطلب دوام ذكره - تعالى - واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية .

قال بعض العلماء : ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن للذكر آدابا من أهمها :

١ - أن يكون فى النفس لأن الإخفاء أدخل فى الإخلاص ، وأقرب إلى الإجابة ، وأبعد من الرياء .

٢ - أن يكون على سبيل التضرع وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير .

٣ - أن يكون على وجه الخيفة أى الخوف والخشية من سلطان الربوبية وعظمة الألوهية من المؤاخذة على التقصير فى العمل لتخشع النفس ويخضع القلب .

٤ - أن يكون دون الجهر لأنه أقرب إلى حسن التفكير ، وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار .

فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - يا أيها الناس : أربعوا على أنفسكم - أى هونوا على أنفسكم - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً . إن الذين تدعونهم سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ، .

• أن يكون باللسان لا بالقلب وحده ، وهو مستفاد من قوله ودون الجهر ، لأن معناه ومتكلاماً كلاماً دون الجهر ، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة ، معطوفاً على ، تضرباً ، أو هو معطوف على ، في نفسك ، أى : اذكره ذكراً في نفسك وذكر ألسانك دون الجهر^(١) .

ثم ذكر - سبحانه - ما يقوى دواعى الذكر ، وينهض بالهمم إليه ، بمدحه للملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال : إن الذين عند ربك ، وهم ملائكة الملائكة الأعلى . والمراد بالعندية القرب من الله - تعالى - بالزلفى والرضا لا المسكنية لتنزهه - سبحانه - عن ذلك .

• لا يستكبرون عن عبادته ، بل يؤدونها حسباً أمروا به بخضوع وطاعة • ويسبحونه ، أى : يزهونه عن كل مالا يليق بجلاله على ابلغ وجه .
• وله يسجدون ، أى : يخصونه وحده بغاية العبودية والتذلل والخضوع ، ولا يشركون معه أحداً فى عبادة من عباداتهم .

أما بعد : فهذه هى سورة الأعراف التى سميت بنا سبجاً طويلاً وهى تحدثنا عن أدلة وحدانية الله ، وعن هداية القرآن الكريم ، وعن مظاهر نعم الله على خلقه ، وعن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وعن بعض الأنبياء وما جرى لهم مع أقوامهم ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء الأقوام ، وعن سنن الله - تعالى - فى إسعاد الأمم وإشقائها ، وغير ذلك من أصول التشريع وآداب الاجتماع ، وشتون البشر ...

وقد استعملت السورة فى أوامرها ونواهيها وتوجيهاتها أساليب التذكير

بالنعم ، والتخويف من النقم ، وإيراد الحجج المقنعة ، ودفع الشبهات
الفاصلة . . .

وهذا تفسير لها تناولنا فيه بالشرح والتحليل ما اشتملت عليه من توجيهات
سامية ، وآداب عالية ، ومقاصد جليلة ، وحجج باهرة ، ومواعظ مؤثرة .
والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم ، ونافعا لنا
يوم الدين .

والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم .

فهرس

إجمالى لتفسير سورة الأعراف

رقها	الآية المفسرة	ص	رقها	الآية المفسرة	ص
	المقدمة	٣	٢٢	فدلاهما بغرور ...	٢٤
١	المص ...	١٠	٢٣	قالا ربنا ظلمنا ...	٣٥
٢	كتاب أنزل إليك ..	١١	٢٤	قال اهبطوا بعضكم	٢٥
٣	اتبعوا ما أنزل إليكم	١٢	٢٥	قال فيها تحيون ...	٣٥
٤	وكم من قرية ...	١٣	٢٦	يا بنى آدم قد أنزلنا ..	٣٦
٥	فأكان دعواهم ...	١٤	٢٧	يا بنى آدم لا يفتننكم ..	٢٧
٦	فلنسلن الذين ...	١٥	٢٨	وإذا فعلوا فاحشة ..	٢٨
٧	فلنقصن عليهم بعلم ..	١٦	٢٩	قل أمر ربي بالقسط ..	٣٩
٨	والوزن يومئذ الحق ..	١٧	٣٠	فريقا هدى وفريقا ..	٤٠
٩	ومن خفت موازينه ..	١٩	٣١	يا بنى آدم خذوا زينتكم	٤١
١٠	ولقد مكناكم فى الأرض	٢١	٣٢	قل من حرم زينة الله ..	٤٢
١١	واقعد خلقناكم ثم ..	٢٢	٣٣	قل إنما حرم ربي ..	٤٣
١٢	قل ما منمك ...	٢٤	٣٤	ولسكل أمة أجل ..	٤٤
١٣	قال فاهبط منها ...	٢٥	٣٥	يا بنى آدم إنما يأتينكم	٤٥
١٤	قال أنظرنى إلى ...	٢٦	٣٦	والذين كذبوا بآياتنا	٤٦
١٥	قال إنك من ...	٢٧	٣٧	فن أظلم من افترى ..	٤٦
١٦	قال فيها أغويتنى ...	٢٨	٣٨	قال ادخلوا فى أمم ..	٤٧
١٧	ثم لا يبينهم ...	٢٩	٣٩	وقالت أولام لآخرام	٤٨
١٨	قال اخرج منها ...	٣٠	٤٠	إن الدين كذبوا بآياتنا	٤٩
١٩	ويا آدم أسكن ...	٣١	٤١	لهم من جهنم مهاد ..	٥٠
٢٠	فوسوس لها الشيطان	٣٢	٤٢	والذين آمنوا وعملوا	٥١
٢١	وقاسمهما إني أسكن	٣٣	٤٣	ونرغنا ما فى صدورهم	٥٢

رقها	الآية المفسرة	ص	رقها	الآية المفسرة	ص
٧١	قال قد وقع عليكم	٩٥	٤٤	ونادى أصحاب الجنة ..	٥٤
٧٢	فأنجيناهم والذين ...	٩٦	٤٥	الذين يصدون عن ...	٥٥
٧٣	وإلى نمرود أخاهم ...	٩٧	٤٦	وبينهما حجاب ...	٥٦
٧٤	واذكروا إذ جعلناكم	٩٨	٤٧	وإذا صرفت أبصارهم ..	٥٨
٧٥	قال الملأ الذين ...	٩٩	٤٨	ونادى أصحاب الأعراف	٥٩
٧٦	قال الذين استكبروا ..	١٠٠	٤٩	أهؤلاء الذين أقسمتم ..	٦٠
٧٧	ففقروا الناقة ...	١٠١	٥٠	ونادى أصحاب النار ..	٦١
٧٨	فأخذتهم الرجفة ...	١٠٢	٥١	الذين اتخذوا دينهم ..	٦٢
٧٩	فتولى عنهم ...	١٠٣	٥٢	ولقد جئناهم بكتاب ..	٦٢
٨٠	ولولا إذ قال ...	١٠٦	٥٣	هل ينظرون إلا ..	٦٣
٨١	لأنسكم لتأتون ...	١٠٧	٥٤	إن ربكم الله ...	٦٤
٨٢	وما كان جواب ...	١٠٨	٥٥	لادعوا ربكم تضرعا ..	٦٨
٨٣	فأنجيناهم وأهله ...	١٠٩	٥٦	ولا تفسدوا في الأرض	٧٠
٨٤	وأمرنا عليهم ..	١١٠	٥٧	وهو الذى يرسل الرياح	٧٢
٨٥	وإلى مدين أخاهم ...	١١١	٥٨	والبله الطيب يخرج ..	٧٣
٨٦	ولا تقعدوا بكل ...	١١٢	٥٩	لقد أرسلنا نوحا ...	٨١
٨٧	وإن كان طائفة ...	١١٣	٦٠	قال الملأ من قومه ...	٨٢
٨٨	قال الملأ الذين ...	١١٤	٦١	قال يا قوم ليس بي ...	٨٣
٨٩	قد افترينا على الله ...	١١٥	٦٢	أبلغكم رسالات ربي	٨٤
٩٠	وقال الملأ الذين ...	١١٦	٦٣	أو عجبتم أن جاءكم ...	٨٥
٩١	فأخذتهم الرجفة ...	١١٧	٦٤	فكذبوه فأنجيناهم ...	٨٦
٩٢	الذين كذبوا شعيبا ..	١١٨	٦٥	وإلى عاد أخاهم هودا	٨٩
٩٣	فتولى عنهم وقال ...	١١٩	٦٦	قال الملأ الذين ..	٩٠
٩٤	وما أرسلنا في قرية ..	١٢٧	٦٧	قيل يا قوم ليس ...	٩١
٩٥	ثم بدلنا مكان السيئة .	١٢٨	٦٨	أبلغكم رسالات ربي	٩٢
٩٦	ولو أن أهل القرى ..	١٢٩	٦٩	أو عجبتم أن جاءكم ..	٩٣
٩٧	أفأما من أهل القرى ..	١٣٠	٧٠	قالوا أجتئنا ...	٩٤

رقمها	الآية المفسرة	ص	رقمها	الآية المفسرة	ص
٩٨	أو أمن أهل القرى	١٣١	١٢٤	لأقطعن أبدكم ...	١٥٥
٩٩	أفأمنوا مكر الله ..	١٣٢	١٢٥	قالوا إنا إلى ربنا ...	١٥٥
١٠٠	أو لم يهد للذين يرثون	١٣٣	١٢٦	وما تنقم منا إلا أن ...	١٥٥
١٠١	تلك القرى نقص ..	١٣٤	١٢٧	وقال الملأ من قوم ...	١٥٥
١٠٢	وما وجدنا لأكثرهم	١٣٥	١٢٨	قال موسى لقومه ...	١٥٦
١٠٣	ثم بعثنا من بعدهم ..	١٤١	١٢٩	قالوا أؤذينا من ..	١٥٦
١٠٤	وقال موسى يافرعون	١٤٢	١٣٠	ولقد أخذنا آل ...	١٥٩
١٠٥	حقبق على أن لا أقول	١٤٣	١٣١	فإذا جاءتهم الحسنة ...	١٦٠
١٠٦	قال إن كنت جئت	١٤٣	١٣٢	وقالوا مهما تأتنا ...	١٦١
١٠٧	فأتى عصاه فإذا ..	١٤٤	١٣٣	فأرسلنا عليهم ...	١٦٢
١٠٨	ونزع يده فإذا ..	١٤٥	١٣٤	ولما وقع عليهم الرجز ...	١٦٣
١٠٩	قال الملأ من قوم	١٤٦	١٣٥	فلما كشفنا عنهم ...	١٦٣
١١٠	يريد أن يخرجكم	٤٧	١٣٦	فانتقمنا منهم ...	١٦٤
١١١	قالوا أرجه وأخاه	١٤٨	١٣٧	وأرثنا القوم ...	١٦٦
١١٢	يا قوئك بكل ساحر	١٤٩	١٣٨	وجاوزنا ببني إسرائيل ...	١٦٩
١١٣	وجاء السحرة فرعون	١٥٠	١٣٩	إن هؤلاء متبر ...	١٧٠
١١٤	قال نعم وإنا نكفكم	١٥١	١٤٠	قال أغير الله أبنيكم ...	١٧١
١١٥	قالوا يا موسى إما أن	١٥١	١٤١	ولإذا أنجيناهم من ...	١٧٣
١١٦	قال ألقوا فلما ...	١٥٢	١٤٢	وواعدنا موسى ...	١٧٦
١١٧	وأوحينا إلى موسى أن	١٥٣	١٤٣	ولما جاء موسى ...	١٧٧
١١٨	فوقع الحمد وبطل	١٥٣	١٤٤	قال يا موسى إني ...	١٧٨
١١٩	فغلبوا هنالك ...	١٥٣	١٤٥	وكتبنا له في الألواح ...	١٨٤
١٢٠	وألقي السحرة ساجدين	١٥٣	١٤٦	سأصرف عن آياتي ...	١٨٥
١٢١	قالوا آمنا برب العالمين	١٥٤	١٤٧	والذين كذبوا ...	١٨٦
١٢٢	رب موسى وهارون	١٥٤	١٤٨	واتخذ قوم موسى ...	١٨٨
٢٢٣	قال فرعون آمنت به	١٥٤	١٤٩	ولما سقط في أيديهم ...	١٨٩

رقمها	الآية المفسرة	ص	رقمها	الآية المفسرة	ص
١٥٠	ولما رجع موسى ...	١٩٠	١٧٦	ولو شئنا لرفعناه ...	٢٦٥
١٥١	قال رب اغفر لي ...	١٩٢	١٧٧	سواء مثلاً القوم ...	٢٦٧
١٥٢	إن الذين اتخذوا ...	١٩٣	١٧٨	من يهد الله فهو المهتدي ...	٢٦٩
١٥٣	والذين عملوا السيئات ...	١٩٦	١٧٩	ولقد ذرأنا لجهنم ...	٢٦١
١٥٤	ولما سكنت عن موسى ...	١٩٧	١٨٠	وقد الأسماء الجسني ...	٢٧١
١٥٥	واختار موسى قومه ...	١٩٨	١٨١	وعن خلقنا أمة يهدون ...	٢٧٤
١٥٦	واكتب لنا في هذه ...	١٩٩	١٨٢	والذين كذبوا بآياتنا ...	٢٧٥
١٥٧	الذين يتبعون الرسول ...	٢٠٣	١٨٣	وأمل لهم إن كيدى ...	٢٧٥
١٥٨	قل يا أيها الناس إني ...	٢٠٧	١٨٤	أو لم يتفكروا	
١٥٩	ومن قوم موسى ...	٢١٢		ما بصاحبهم ...	٢٧٦
١٦٠	وقطعناهم أنتى ...	٢١٣	١٨٥	أرلم ينظروا في ملكوت	
١٦١	وإذ قبل لهم اسكنوا ...	٢١٤	٢٧٧		
١٦٢	فبدل الذين ظلموا ...	٢١٥	١٨٦	من يضل الله فلا ...	٢٧٧
١٦٣	واسألهم عن القرية ...	٢٢٥	١٨٧	يسألونك عن الساعة ...	٢٧٩
١٦٤	وإذ قالت أمة منهم ...	٢٢٦	١٨٨	قل لا أملك لنفسى ...	٢٧١
١٦٥	فلما نسوا ما ذكروا ...	٢٢٧	١٨٩	هو الذى خلقكم من ...	٢٨٦
١٦٦	فلما عتوا عما نهوا ...	٢٢٨	١٩٠	فما آتاها ما جالها جعلها ...	٢٨٧
١٦٧	وإذ تأذن ربك ...	٢٣٥	١٩١	أيشركون ما لا يخلق ...	٢٨٩
١٦٨	وقطعناهم فى الأرض ...	٢٤٨	١٩٢	ولا يستطاعون لهم نصر ...	٢٨٩
١٦٩	نخلف من بعدهم خلف ...	٢٥٠	١٩٣	وإن تدعوهم إلى الهدى ...	٢٩٠
١٧٠	والذين همسكون ...	٢٥١	١٩٤	إن الذين تدعون من	
١٧١	وإذ نتقنا الجبل ...	٢٥٥		دون ...	٢٩١
١٧٢	وإذ أخذ ربك ...	٢٥٨	١٩٥	ألهم أرجل يمشون بها ...	٢٩٢
١٧٣	أو تقولوا إنما أشرك ...	٢٥٩	١٩٦	إن ولي الله الذى ...	٢٩٣
١٧٤	وكذلك نصر فى الآيات	٢٦٠	١٩٧	والذين تدعون من	٢٩٤
١٧٥	واتل عليهم نبأ النى ...	٢٦٤	١٩٨	وإن تدعهم إلى الهدى ...	٢٩٤

رقمها	الآية المفسرة	ص	رقمها	الآية المفسرة	ص
٢٩٩	خذ العفو وأمر بالعرف	٢٩٤	٢٠٣	ولإذا لم تأت بهم بآية	٢٩٧
٢٠٠	وإما ينزغتك من الشيطان	٢٩٥	٢٠٤	ولإذا قرىء القرآن	٢٩٨
٢٠١	إن الذين انقوا إذا ...	٢٩٦	٢٠٥	واذكر ربك في نفسك	٣٠٠
٢٠٢	ولمخوانهم يمدونهم في	٢٩٧	٢٠٦	إن الذين عند ربك	٣٠١

رقم الإيداع ٥٦٩١ / ١٩٧٦

